

كتاب أنشوب

فلاح في بلاط صاحبة الجلالة



أبراهيم الورولاني

كتاب أكتوبر

فلاح في بلاط طائفة البحارة

لـ إبراهيم الورولاني



دار المعارف

ملحوظة لقارئ هذه الصفحات :
لن تقرأ رواية تقليدية بل
سيرة من سنوات حياة مصرية
المؤلف

الغلاف بريشة الفنان : محمود مصطفى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سطور قبل الكتاب

بسبب هذه السطور التي طلب مني الأستاذ ابراهيم الورداني أن أكتبها في مقدمة كتابه ، تعطل صدور « فلاح في بلاط صاحبة الجلالة » ، وبقي منتظرا عدة أسابيع في ماكينات وآلات الطباعة .

ذلك أن ابراهيم الورداني بالنسبة لجيلي بصورة عامة ، وبالنسبة لي بصورة خاصة ليس مجرد كاتب عادي حتى يمكن أن أكون أنا الذي أكتب مقدمة كتاب له .. فإبراهيم الورداني هو أول مدرسة تعلمت فيها معنى الكتابة وسحر الألفاظ وعطر الكلمات وجمال الحروف والتعبيرات .. وبسبب ابراهيم الورداني تغير بالتأكيد تاريخ حياتي وعرفت عشق الكلمة وغرام القلم وعذاب المهنة التي لم أعرف غيرها منذ كنت في الثالثة عشرة ..

في هذه السن الصغيرة كانت قراءاتي مجرد قشور لا تتجاوز حدود جريدة اسمها البعكوكة - أشهر المجلات الكوميديّة في سنوات الأربعينات - وبعض روايات الجيب ، ومغامرات السندبادين الشهيرين البحري والبري .. قراءات كلها من نوع قزقة اللب لمجرد التسلية وشغل أى وقت فراغ وليس لي عليها طول بال ، فأى دعوة من أحد أصدقاء شلة المجموعة في شارع الأمير بشبرا حيث كان سكني في ذلك الوقت كان يجعلني ألقى بأي كتاب أو صحيفة وأجرى جريا إلى الشارع .

إلى أن حدث والتقيت به .. بإبراهيم الورداني .
ورغم بعاد السنين وتتابع الأحداث وزحف الشعر الأبيض على
الرأس التي كان يلمع لونها بالسواد ، فلازلت أذكر جيدا كل تفاصيل
هذا اللقاء ..

أذكر جيدا أن اليوم كان الأربعاء أول أكتوبر ١٩٤٧ وأن الساعة
كانت تقترب من الحادية عشرة صباحا وهو موعد اجتماع ولقاء شلة
واصدقاء الشارع .. أهم موعد كنا نحرص عليه جميعا رغم تفاهة
أو هياقة ما كنا نمارسه معا من ألعاب مشتركة ولكنها بالنسبة لنا
ولتفكيرنا كانت أهم من اجتماعات مجلس الأمن والذي كنا في عرفنا
عنه لأول مرة في ذلك الوقت عندما خرجنا نشترك في مظاهرات
الاستقبال التي ملأت كل القاهرة احتفالا بعودة محمود فهمي
النقراشي ورئيس الوزراء قادما من الخارج حيث وقف في مجلس الأمن
وقال للانجليز وبأعلى صوت : اخرجوا من بلادنا أيها القراصنة .. !

يوم الأربعاء أول أكتوبر ٤٧ أعيد إليه ، فما أكثر التواريخ والأيام
والسنوات التي نسيتهما ، ولكن هذا اليوم ، وهذه السنة .. وهذه
الساعة أبدا أبدا لا يمكن أن تنوّه في زحام الأحداث ..

كان أمامي على كل حال خمس دقائق باقية على اجتماع « الشلة »
في الشارع ، وكنت تقريبا في طريقى إلى باب الخروج عندما اصطدمت
قدمي بورقة صحيفة كان واضحا أنها بقية باقية من جرنال اسمه
« النداء » فرشناه على مائدة الفطور وألقى به أخى قبل أن يغادر
الشقة ويتركنى وحيدا ..

انحنيت ألنقط الصفحة عندما لفت نظرى عنوان لازالت حروفه
تطل أمامى حتى اليوم :
ليالى القاهرة ..

بيد اللامبالاة فردت الصفحة وأوشكت أن أمر عليها مروراً سريعا

ولكن شيئاً غريباً جذبني إليها .. منذ أول فقرة قرأتها بدأت أحس أنني
أنفصل تماماً عن كل هذا العالم الذى حولى .. لم أشعر بنفسي وأنا
أجلس القرفصاء فوق الأرض وعيناي جاحظتان معلقتان على سطور
الصفحة الكبيرة وكل مداركى بعيدا بعيدا مع هذا العالم الغريب الذى
أخذنى إليه كاتب القصة ..

هل مضى وقت طويل علىّ قبل أن أنتهى من قراءة القصة ؟
لا أذكر ..

كل الذى أذكره أننى نسيت تماماً موعد الشلة وجلست مبهورا أعيد
قراءة القصة الطويلة مرتين أو ثلاث مرات ثم أنظر إلى اسم كاتبها
مرة واثنين وثلاثا .. ثم بعد تهيدة عميقة وجدت نفسي أقول بصوت
عال .. صوت لازلت أسمعه حتى اليوم : يا سلام .. الكتابة دى جميلة
قوى ..

لأول مرة عرفت فى هذه اللحظة معنى الكتابة وقيمة القلم وعظمة
كاتب له قلم يستطيع أن يكتب به ما يجذب اهتمام واحد مثلى وينسيه
مواعيده وألغابه وكل مشغوليّاته ويبقيه مسمرًا مجمدا أمام كلمات هذا
الكتاب .

استولى علىّ شعور عظيم بأن هذه هى أعظم مهنة فى الوجود يمكن
أن يقوم بها انسان .. مهنة أن يتمكن كاتب من سحب قارئه بعيدا عن
كل مشاغله وأفكاره وناسه ويجلسه أمامه ويملى عليه بمختلف المشاعر من
آلام وآمال وأحزان وأفراح كل ما يريد أن يقول دون أن يترك لهذا
الجالس أمامه فرصة حتى أن يتلفت يمينا أو يسارا ..
ما أجل الكتابة .. بل ما أجل أن أكون كاتباً ..
وفى هذه اللحظة .. فى هذه الساعة .. فى هذا اليوم .. قررت أن
أكون كاتباً ..

وبعد أسبوع تقريبا .. فى يوم الجمعة ١٠ أكتوبر كنت رئيس تحرير

أول مجلة أصدرتها واسمها « الحقائق » .. مجلة منزلية من صفحات وأوراق الكرايس أقوم أنا بكتابتها وقراءتها ..

ومن هذه المجلة الخاصة جدا جدا عرفت شيئا بالغ الأهمية .. عرفت أنني لكي أكتب يجب أولا أن أقرأ .. وبدأت أطوف سور الأزبكية وباعة الصحف وأشهرها بائع عجوز في العتبة بحثا عن كل قصص كاتب « ليالى القاهرة » ابراهيم الوردانى . كنت قد عرفت أنه كان يكتب فى مسامرات الجيب فاخذت ابحث عن كل الاعداد القديمة التى كان يكتب فيها .. وتتبعته فى مجلة الاثنين والمصور وبعض الأعداد الخاصة من مجلة الهلال التى كان يكتب فيها ..

كل قصصه قرأتها .. إلى أن صدر له كتاب اسمه « نحن بشر » كانت فرحتى به بالغة .. ولم انتظر حتى أعود إلى البيت لأقرأه بل اختفيت وحدى فى حوش مدرسة التوفيقية تحت ظلال شجرة لا أريد الدخول إلى الفصل قبل أن أنتهى من قراءة الكتاب .. كانت دنيا جديدة فتحتها لى ابراهيم الوردانى بأسلوبه الفريد الذى راح يغزو به صفحات ومجلات الأربعينات وهو خلاها فارس القمة فى كتابة القصة ..

اسلوب تحس بأن لكلماته نوعية خاصة فى التحول إلى عطر يتسلل إلى داخلك وينعشها اثارة واهتماما واعجابا .. وكان قد بدأ فى هذا الوقت يجمع بين قوة الأسلوب ورشاقة التعبيرات ودقة وصف الشخصيات وحبكة النهاية حتى تكون المفاجأة التى تجعل القارئ يقفز من كرسيه اعجابا وانتعاشا .

ومنذ قرأت لابراهيم الوردانى عرفت معنى القراءة والكتابة معا .. ومن مدرسة الوردانى دخلت مدارس أخرى لعدد آخر من أصحاب الأقلام ، لكن ابراهيم الوردانى ظل فى داخلى له مكانته الخاصة التى

لا يمكننى أن أنساها بل لعلى بعد كل هذه السنوات أسأل نفسى : هل كان يمكن لو لم أقرأ للوردانى فى بداية حياتى أن أعشق القراءة والكتابة هذا العشق الذى كان كل حياتى ؟ ..

أغرب ما فى الاجابة عن هذا السؤال أن ابراهيم الوردانى الذى كان أول كاتب قرأت له ، كان آخر كاتب عرفته كشخص عندما انتميت إلى هذه المهنة العظيمة وبدأت اعايش عن قرب كل الأساء اللامعة والنجوم الساطعة فى سماءها ..

فلاح ..
فلاح بكل طيبة قلب الفلاح وقناعاته وفرحته بحصاد الموسم يكفيه إirاده لكل العام ..

فلاح له جذور عديدة تمتد إلى أعماق القرية وأعماق تاريخ مينا وخوفو ورمسيس وكل الفراعنة الذين كانوا يسرون شامخى الرأس تحف بهم وتحيطهم الرعية ..
فلاح له كل مواصفات الفلاح المصرى من طيبة وعناد وبساطة وقوة ، وقناعة بالقليل ، وتمسك بكل ما يؤمن به لايمكن أن يتنازل أو يتخلى عنه مهما كانت المتاعب أو الأهوال .
ولهذا ليس غريبا أن يكون عنوانه لهذا الكتاب هو « فلاح فى بلاط صاحبة الجلالة » .

إنه ليس كتابا فى التاريخ ، ولكنه حافل بصفحات وأسرار التاريخ .

ليس كتابا فى السياسة ، ولكنك تعيش فيه السياسة .
ليس كتابا فى الوطنية ولكنك تتعلم منه الوطنية .
إنه مجموعة صور من سنوات الأربعينات .
هذه السنوات التى فى رحم أحداثها نمت بذور الثورة التى غيرت وجه مصر ..

وفى كتابات إبراهيم الوردانى خلال هذه السنين تعلم كثيرون جمال
وحلاوة الكتابة ..

ولكن هاهى الأيام تجرى والتلميذ يقدم كتاب الأستاذ ..
تفضل يا أستاذ ..

يا ناظر أول مدرسة تعلمت فيها كيف أمسك القلم ..

صلاح منتصر

« البنيون »

القاهرة - ١٩٤١

انتقلت من « حارة خليل على بشبرا » إلى « بنسيون فيوليت
بشارع الفجالة » .. غرفة فسيحة ، ذات ستائر ، وسرير نحاسي
لامع ، ودولاب كبير شامخ ، ونجفة في السقف ، وسجادة على
الأرض ، ومقاعد كثيرة وثيرة ، ومائدة رخامية براقية - أفرغت عليها
كتبى وأوراقى وأقلامى فورا - فهنا حقا تحلو الكتابة !
حوائجى كلها حقيقية من الكرتون الغليظ البالى ، بها ثياب محدودة
جدا . شيشب وفرشة ومشط ، وبدلة واحدة مكحوتة هى التى ألبسها ،
وقفص كبير من الجريد مشحون بالكتب والمجلات وكتل الأوراق
المكتوبة - ما أشد خجلى من شكله الريفى ولكنه أهم ما عندى !
صاحبة البنسيون شامية طيبة فى الخمسين تقريبا ، اسمها « مدام
آدمة » . ولأن هناك توصية فقد خفضت إيجار الحجرة الشهرى من
١٥٠ قرشا إلى ١٢٠ قرشا ! دفعت إيجار أول شهر فورا - وقبل أن
أفكر فى أى شىء أو أرتب أى شىء تحركت خارجا فأمامى مهمة
عاجلة لابد أن أتمها قبل أن استريح وأستقر فى مأوى الجديد الرائع
هذا ! .. أحصيت النقود الباقية فى جيبى وهى ثلاثة جنيهات وخمسة
عشر قرشا .. نعم وبوسعى أن أؤدى المهمة كاملة حتى لو صرفتها

كلها .. خرجت .. أغلقت الباب بهدوء .. أحاذر أن يرانى أحد ببدلتى
الزرية وحذائى الهالك !

.....

اليوم أول الشهر ، وقد قبضت أول مرتب كامل لى من عملى
الجديد .. تسعة جنيهات وربيع جنيه . وأول شىء فعلته أن سددت
ديونى ، وهاهو ايجار البنسيون مدفوع ، وأمامى الآن أن أدفع جنيهها -
آخر قسط من الثلاثة جنيهات - لأستلم بدلتى الجديدة « قماش
وتفصيل » من عند « الحاج جلال الترنزى » فى آخر شارع الفجالة ..
ولابد من حذاء جديد طبعا ، وثمانه لا يقل عن أربعين قرشا . ثم
القميص ، بل لابد من قميصين وربما الواحد بـ ٢٥ أو ٣٠ قرشا . ثم
الكرافته ، وقد رأيتها فى القترينة بثلاثة قروش . ومناديل جيب بقرش
صاغ الواحد ، ثم ماكينة حلاقة وفرشة وأمواس بخمسة تعريفة ،
وفوطة طبعا ولابد !

تحركت فى شارع الفجالة نحو « عم جلال » . الشارع كله
بارات ، وخمارات ، ودكاكين مكدسة ، وله لمعة شارع قاهرى هام ! ..
مسكن الفجالة ترقية طبقية لى ، فأنا لم أقترب من قلب البلد أبدا .. لم
أسكن فى غير أطراف وأحراش « شبرا » و « جزيرة بدران » .. منذ
جئت من القرية ، ابتدأتى فى شبرا ، وثانوى فى شبرا ، وشيكولانى ،
وشارع مسرة ، والترعة البولاقية ، وكنيسة الراهبات .. القاهرة مخيفة
ومزججة فهمى فى حالة حرب « حرب هتلر وموسوليني » .. مخيفة
وصاخبة تتلاطم مع مليون عسكري مسعور ومخمور يأخذون أيام
الاجازات قبل الموت .. انجليز ، وأمريكان ، وأتراك ، وسنغال ..
فوانيس زرقاء ، وطرابيش حمراء ، ونساء ليل نشيطات ، وموسيقى
وحشية . ففى كل ركن كباريه .. سكارى يتطوحوون ويتعاركون ..
مصفحات ودبابات وصفارات انذار .. البنات المجندات ووقة

خدودهن .. ثكنات قصر النيل والوجوه والأبدان الحمراء العارية تملأ
النوافذ .. العمارات كلها مشحونة بسكان من لندن وباريس وقبرص
وماطة وأستراليا وجنوب افريقيا !

القاهرة ومن ورائها الريف اليتيم ، منكشة على نفسها تتفاعل مع
التغير في صمت وبلا إرادة .. مجرد حلقه مندهشة وراء الحرب وجنود
الحرب وأسرى الحرب ومخازن الحرب .. ليست هناك من أحداث هامة
إلا « مجموعة الملك » وقد بدأت تظهر مغامراته .. وبمجموعة الأمراء
والبنوات والبكوات . والآلهة عبود وبدراوى وسليطان والملوم والباسل
واندراوس .. لكل واحد قصر وضعية وعبيد .. الفقر والحرمان
والضياع - ورغم فلوس الحرب - ينحر مصر ويفتك بكرامتها ..
المدارس ضئيلة ، والمستشفيات نادرة ، وزجاجة اللبنة لاتجدها ، وإبرة
وابور الجاز واختفاؤها يحدث أزمة .. الناس مشغولون وراء هتلر
وتشرشل وروزفلت .. « سينما ديانا » والسلام الانجليزى يقف له
الجميع ، والافلام كلها عن الحرب .. وزجاجات البيرة ، والكونياك ،
والويسكى ، ولفافات الحشيش .. « الصحافة » فى كل دار رقيب
عسكرى انجليزى يشطب الخارجيات ورقيب مصرى يشطب
الداخليات . « الأهرام » كالعادة فى القمة .. « المصرى » من ورائه
ينمو .. و « المقطم » بعد الظهر ، و « البلاغ » و « الجهاد »
و « صوت الأمة » و « كوكب الشرق » .. حافظ عوض ، وتوفيق
دياب ، ومكرم عبيد ، وكريم ثابت ، وأبو الفتح ، واهلالى ، مجلات
اسبوعية بالعشرات ومعظمها يعيش على المصاريف السرية من وزارة
الداخلية .. « رخا » يرسم عشر مجلات كل اسبوع .. « التابعى »
وهج هائل ، و « الصاوى » نجم الاحلام ، و « توفيق الحكيم »
يكتب حواراته مع الحمير .. « العقاد » متفرغ لشتيمة هتلر وتحليل
تشرشل .. « طه حسين » يترجم اليونانيات والباريسيات ..

« المازنى » يتلطم بين المجلات .. « ناجى » و « زكى مبارك » يسكران على نواصى الحانات ! .. « أفلام الحرب » بشارة واكيم ومزراحى ، والمعلم بحبح ، وأم أحمد ، والكسار ، والريحاني ، ويوسف وهبى !.. كباره وكوبرى « بديعة » ! .. « بيا » فى الكيتكات .. موجة أحلام مع أفلام عبد الوهاب ومحمد كريم ! .. المجلات وأهم أبوابها « الهايلايف » و « الطبقة الراقية » و « أولاد وبنات الذوات » و « الناس مقامات » ! .. و « اسمهان » باعت قبلة بمائة جنيه فى حفلة خيرية ، و « شعراوى » خسر أمس خمسة آلاف جنيه فى البوكر ، و « عبود » اشترى يختا بليون جنيه ، و « الملكة نازلى » « تصطاد الفحول فى الليل بجوار عوامة الجزيرة » ! المقاهى ، المقاهى ، فى القاهرة كثيرة كثيرة ، فالعاطلون والمتسكعون هم معظم المواطنين .. المدارس بمصاريف فمن يريد أن يتعلم .. الجامعة ورغم ندرة خريجها إلا أن تسعة أعشارهم لا يجدون وظائف .. بعضهم يحمل صندوق مسح الأحذية وشهادة الليسانس أو البكالوريوس معلقة فوق ظهره ! .. الفهولة ولعبة الثلاث ورقات وخطف الرزق هى هواية « ابن البلد » وعلى طول الليل والنهار .. الفلاحون فى الوحل والنشع والتراب .. ركود واستسلام ماذا يفعلون .. لا توجد نقود أو أجور أو ركوبة .. الجزمة أو البلغة شىء نادر .. زبدة الريف كلها تسافر إلى حفنة الأمراء والباشاوات والخوجات والملايين تسف التراب ! .. النقود فى الارياف غير موجودة بل غير معروفة .. السفر بالقطار محنة لأنه غال .. لا يوجد أتوبيس ، بل لا توجد طرق .. الحمار المسكين هو رائد عملية النقل على طول بلاد النيل لاسواه .. جهاد بعض الفلاحين يبدو أنه مظاهرة . كأنه اتفاق تمرد قبلى وبحرى على أن أولادهم يجب أن يدخلوا المدارس . يجب أن يواجهوا هذا الظلم . إنهم فى عناء الاستشهاد الحقيقى يهربون أولادهم خلصة إلى تحتة التعليم .. يبيعون

الحصيرة والملاية والحلة بل ولحم الكتف لمن يشتري ليجدوا لهم
المصاريف وتكاليف الإقامة .

.....

اشترت ولم أفصل .. وعدت أحمل لفائف الأشياء كلها لأتسلل
متواريا كي لا يلحظني أحد . وأدير أكرة باب حجرى وأدخل بطرف
حذائي .. أغلق الباب وأخذ أنفاسى أخيرا فما أشد حاجتى للراحة ..
وضعت اللفائف على الكنبه ، ثم خلعت الجاكته ، وقذفها بعيدا .. ثم
استدردت أخلع بقية ثيابى . لأتلجم على منظر غريب ومفاجئ ! ..
يافزعى ما هذا ؟

(فتاة) نائمة على سريرى وفى أعماق حالات النوم ! .. فتاة
بيضاء ملفوفة حمراء شقراء ناصعة الظهر لامعة بطن الساق ! .. حملقت
فيها برهة بلا إرادة ، ثم استدردت برأسى عنها فى حياء مذعور ..
خجلت من وقفى التى تجمدت عليها برهة بل لعنت نظراتى الوقحة .
وياللعار أن أطيل النظر فى امرأة نائمة . اندفعت خارجا من الباب ..
أغلقت من خلفى فى هدوء ، ووقفت بجواره حائرا مضطربا لا أدرى
ما هذا وماذا أفعل .

.....

لمحتنى مدام آدمة فى وقفى فاستغربت واقتربت منى تسألنى
ما الخبر ؟ .. وفى ارتباك شديد أشرت نحو الحجرة فإن فيها أناسا
نائمين ! .. اندفعت تفتح الباب ودخلت .. بقيت فى وقفى حائرا .. ثم
بعد لحظات سمعت ضجة معركة .. أصوات صفعات وركلات ولعنات
واستغاثات .. ثم فتاة السرير تهول صائحة باكية ومن خلفها مدام
آدمة مندلعة الغضب ، وفى يدها - ياللهول - شبشبى القديم الغليظ
تنهال به على ماتطوله من لحم الفتاة الرقيق ! .. تواريت ، تواريت ..
فقد تجمع نزلاء البنسيون على الضجة والصياح .. والظاهر انهم اعتادوا

على مثل هذا . فبعضهم ضحك وبعضهم سكت . وبعضهم تقدم ليخلص .. وباللهشة ما أقسى النساء على النساء ا .. لأول مرة أرى جيرانى فى غرفات البنسيون .. عواجيز شوام ، وكهول أرمن ، وجريك ، ومصريين ، ونساء وبنات من مختلف الاعمار . دخلت وأغلقت الباب بالمفتاح .. استندت لاهنا بطريقة من مرق من لحظات تكهرب فيها الهواء .. أشحت بنظراتى عن منظر السرير .. بقايا نومة الفتاة مازالت ظاهرة على طيات المرتبة والمخدة . بل أنفاسها فائحة فى الحجرة وأحسن أن أفتح الشباك للهواء النقى .. تقدمت فتعثرت فى فردة شبشب « منتوفى » مبطن بالقטיפه الخضراء وعليه نقشه ورود حمراء .. صغيرة وكأنه لأقدام الاطفال . لا بد أنه للفتاة ، فقد لاحظتها تجرى حافية .. تخرجت أن أمسكه أو أحركه ، ولا بد أن هناك فردة أخرى فأين ؟ .. بحثت حتى وجدتها مقذوفة تحت آخر السرير بلصق الحائط .. تركتها فى مكانها فماذا بوسعى أن أفعل ؟! .. أسمع خطوات ، وصوت مدام آدمة تكلم أحد الناس وطرقات على بابى .. أتقدم لأفتح وأنا أضم الجاكنه على صدرى .. يا إلهى فالهواء الكهربائى يعود .. مدام آدمة تدفع الفتاة فى غلظة وقسوة كى تلتقط شبشبها ، والفتاة من عنف الدفعة تنطرح أرضا وتتنظر فيما حولها مذعورة ومحتجة .. أشير لها نحو تحت السرير .. مدام آدمة مازالت تصخب وتشتم وتتوعد بينما ألوى رأسى بعيدا كى لاتقع عينائى على المنظر الزاحف التعيس للفتاة تحت السرير .. التحاشى عورات العيب وقلة الرجولة .. ثم عندما جمعت الفردتين ولبستهما نفضت شعرها المبعثر وقفزت نحو الباب ، ولكنها توقفت لحظة لترمينى بنظرة نارية - سرت بالقشعريرة فى كل كيائى !

.....

خرجت الفتاة ، وبقيت مدام آدمة ، بل جلست تحاول أن تقدم اعتذارا أو تفسيرا عما حدث من فعلة بنت أختها .. أن أمها وأخوتها

المهاجرات من مدينتهن الاسكندرية خرجوا وأغلقوا باب حجرتهم بالمفتاح والبنيت كانت متعبة وتريد أن تنام فهي تسهر كل الليل ! .. مدام آدمة تتأوه وهي تلعن مصائب غارات هتلر على الاسكندرية تلك التي نزلت كلها على دماغها .. ثم رفعت وجهها نحوى - وكانت قد هدأت - فراعها ارتباكى وشكل وجهى الذى غطس تماما فى حمرة الحياء .. توقفت عن الكلام وسألتنى هل أنا مريض ؟ .. لا لا أبدا فقط أنا متعب ! .. وتلعثمت أمامها بما أريد أن أوضحه أو أقوله حتى تمكنت . ففهمت أخيرا أننى أنا الذى يريد أن يعتذر عن هذا الدخول المقتحم على آنسة نائمة فقد كان يجب أن أطرق الباب ! .. ظلت تحملق ذاهلة فى منظرى ، ثم تهدلت ملاحظها فجأة الى مس من تأثر وعطف وأمومة ! .. المرأة متدينة ومتمرسة وتفهم أنواع الناس ، وقد اكتشفت نوعى فورا .. تلك الأغلفة الريفية ومهما تدارت .. الاخلاقية والمتعطفة شديدة الرهافة والبراءة . بل لعلها بأنوئتها الثاقبة قد أدركت أننى - رغم طولى المفرط ورغم الواحد والعشرين عاما التى قيدتها عن عمرى فى دفتر البنسيون ، فلست أعرف عن جنس المرأة إلا مايبين اضطرارا من وجهها أو ذراعها أو ساقها .. أعطتنى نظرة أمومة محرومة شاردة .. إنها .. بلا أولاد .. ثم وقفت ووضعت ذراعها على كتفى فى رقة وحنو . وابستمت وفركت شعرى المشعث بيدها فكم تحب الناعم المجدد .. ثم استنكرت أن أعتذر . تعتذر لمن ؟ .. وعن ماذا ؟ فإنها هى هذه الحمقاء اللعينة التى يجب ان تكفر عن فعلتها وتبوس القدم !

شجعتنى المرأة الطيبة ان أخرج من حيائى وأتبسط معها . ثم هللت فى مَرَحٍ وابتهاج عندما رأت لفائف المشتريات الجديدة ، وراحت تفك أربطتها استعدادا لترتيبها وتعليقها .. ثم تحمست تمتدحها وتطرى ذوقى فى ألوان الكرافتة . وأيضا البدلة الكحلية فكأنها لأمير .. ثم

اتجهت تفتح الدولاب وتحرك الشماعات ، وعندما اقتربت من قفص الجريد لترتبه أيضا . قفزت أقف أمامها شاكرا ومستعظفا أن تتركني أرتب بقية الحوائج بنفسى .. ضحكت فى طيبة . وعندما همت بالخروج وجدت نفسى أستوقفها ، وقد روعنى فجأة ماخطر على بالى من أنها قد تحضر الفتاة لتبوس القدم كما قالت .. كدت أتوسل اليها ألا تفعل ذلك ولكننى تراجع - وتمتعت بأى كلام - ثم ودعتها وأغلقت الباب .

.....

أغلقت الباب من خلفها .. نعم تراجع فجأة ، فما هذا التخاذل الذى أنا فيه ؟ .. حتى متى هذا الحياء من جنس النساء ؟ ، بل ما هذا الحياء من كل أهل تلك المدينة الصاخبة بينما طموحى الراقد فى أوراق هذا القفص يقول أو يدعى بأنه مجهز نفسه لوثبة اقتحام الأسوار الغليظة لتلك المدينة وأناس تلك المدينة .

استرددت نفسى ، وبدأت أنزع هذا القديم عن بدنى . وفجأة - وقد خلعت فردة البنطلون - دق الباب .. يا إلهى .. ربما هى الفتاة جاءوا بها لتعتذر .. متى تنتهى تلك الكهربائية ؟ .. لا لن افتح .. ومع تصميم الطرق ارتفع صوت مدام آدمة ينادينى باسمى . استعدت فردة البنطلون سريعا ، وضمت الجاكطة بعصبية مزقتها من عند الكوع . وفتحت الباب مواربا فلاداعى لعب الدخول .. مدام آدمة تحمل كوبا من الليمون وفيه ثلج وتقدمه لى فهو على حسابها . ثم تستحنى أن أسرع جريا الى الحمام - قبل أن يلحقه سوى - فقد أعدت لى الماء الساخن والليفة والصابونة والفقوطة .. حمام ساخن ؟! .. لقد تصورتنى عندما استوقفتها اننى خجلت أن أطلب منها أن استحم ، فلا بد من ذلك قبل استعمال الجديد طبعاً ! .. ثم همست - كمن أصبحت حظوة بنوية خاصة عندها - بأننى سوف أجد زجاجة الكولونيا على طرف

البانيو .. كولونيا ؟ .. حمام ؟ .. ماء ساخن ؟ .. كم سوف ترهقنى
مدام آدمة هذه .. آه يا قاهرة بنسيون فيوليت كيف أجارى طباعك
وتقاليدك ؟ .

.....

أخذت حماما رائعا وجريئا .. وفى صراع شديد مع النفس اقنعت
نفسى ألا مانع من قطرات خفيفة من تلك الكولونيا - التى هى من
هوية النساء فقط .. عدت إلى غرفتى فى قفزات واسعة والفوطة تغطى
رأسى ووجهى .

أنعشنى الحمام وأبهجتنى الكولونيا وأحسست أننى بت قاهريا
مرفها .. وبوسعى الآن أن أجرب هذا الجديد .. ارتديت القميص
اللينو ، وربطت الكرافطة البراقة ، ثم دخلت فى البدلة الكحلى
الزاهية - صوف انجليزى - والحذاء اللميع .. وأمام مرآة الدولاب
الطويلة العريضة ، وقفت أتأمل ابن الفلاحين هاهو . وشكرا يا أبى
المرحوم على ما قدرت .. ابن الفلاح الجلف ها هو يتحدى فى الفرق
با أولاد الباشوات والبيكوات والبرنسات ؟ .. تمشيت أمام المرأة ..
استدردت وتباهيت - يا ولد ماهذا .. فهل أنت من حاضرة الريفيرا
أم من أرياف الجيزة ؟ .. تبخترت بأناقى بعض الوقت أمام المرأة ..
ثم أخذت جلستى المرفهة على المقعد العريض المريح أفكر فيها سوف
أقرر وأدبر .

النزول الآن إلى قلب البلد واللياقة هاهى موجودة بل مغرية ،
ولكن كيف ، ولماذا العجلة الآن وأنا متعب . كما أنه لم يعد فى جيبي لا
ورقة من ذات العشرة قروش ؟ . التهمتنى الأناقة وقوضت جيبي لبقية
الشهر .. ليست مأساة فلا تهمنى الفلوس ، وأبدا لم تذلى الفلوس ..
تتأخر أو تتلكأ ولكنها عندى دائما وفى آخر لحظة تأتى وتطرق الباب .
نعم ورغم مشوار الفقر الماحق الرهيب لم تتلطم كرامتى أو تهان بسبب

قلة المال أو الفلوس .. ورقة العشرة قروش الكريمة تلك سوف تكفيني للعشاء سحج بالفينو ، والافطار فول مدمس بالبيض . وركوب الترام الأبيض للعباسية ذهابا وإيابا . وغدا له الله .. وثوقى دائما ومهما جنحت عنه خالق الكون فهو معى دائما فلماذا أرهق نفسى الآن فى أمور ليست من مهمتى ؟

.....

المهم الآن وبعد أن جريت واطمأنتت على هيئتى الجديدة . ان أجرب وأطمئن أيضا على حبيبتي مائدة الكتابة - الرخامية الشهية ناعمة الملمس - وشهوئى لها منذ رأيتها ولمستها - تتحرك وتتحرق وتنفور .. بسطت الورق والقلم على سطحها البراق المريح . وبألهى كم أنا سعيد وممتن جدا لأنك اخترتني كاتبا . ولكن كيف الطريق ؟ .. منذ الطفولة الذابلة والصبا القاحل فى حقول الغلاية والفلاحين والإشارة من ورائى أننى برعم نبيئ . سوف يتفتح ويعبق ، فماذا غير التأمل والكتابة .. لا أعرف أى شىء الا التأمل والكتابة .. ومنذ سنوات انفردت بنفسى وفى خفية أتعلم وأتدرب على غوص النفس فى أعماق المعرفة .. بل تطاول النفس إلى مجهول المعرفة .. نحن بشر . ورحلة مثيرة مثابرة . وتوقع دائما شيئا جديدا تكتشفه .. قرأت وقرأت وقرأت حتى تشبعت وأتخمت وأرهقت . وتعال أيها الفلاح العبيط وارفع عنك هذا الغبيط وكفاية شحن .. وخذ هذا هو حقك المباح وجرب أن تلقى بذورك .. جرب أن تكتب بمثل ماقرأت .. ودخلت معبد الكتابة .. تفرغت للتوسل لأى جديد فى الفكر والكتابة .. تجارب تقية تقية منهكة مخلصنة طويلة تأخذ الجلسة فى شرفة عصرها .. أكتب وأقارن بين مايقرا أو ينشر .. بل تماديت فى مثابرة التجارب إلى درجة تقمص توقيعات العمالقة فى خدعات بيضاء . فعندى مثلا فى قاع هذا القفص الدميم . مسرحية من ثلاثة فصول ينقصها الرابع ، قلدت فيها « العظيم المبهر وليم شكسبير » بأرضياته وشخصه .. وجلست فقرأتها

على عتاة من أصدقائي القارئين ، فصدقوا حقاً إنها من تأليف شكسبير .. وهكذا تمكنت أخيراً فملكتم شهادة الثقة بالنفس !
وظهر « عرفان » فراش البنسيون ليقول إن التليفون يطلبني ..
قمت مسرعاً فلا بد أنه صديقي الحميم « نجيب حلمي » فمن يعرف أنني في البنسيون إلا هو الذي اختاره لي .. أشار عرفان نحو آخر الردهة الطويلة وفي منطقة يغمرها الظلام . وزارار النور على يمينك والتليفون مفتوح على الكومودينو .. لم أجد زرار النور - وهذا أحسن - ولكنني وجدت التليفون بسهولة - ولم يكن هناك أحد - فجلست مسترخياً على مقعد وتناولت السماعة .. إنه كما توقعت صديقي نجيب يريد أن يطمئن على أحوالي .

صديقي نجيب يستدرجني فما رأيك في مدام آدمة وبنسيون مدام آدمة ؟ .. مكان نظيف ومريح ولائق وكما كنت ترغب أليس كذلك ؟
حكيت له عن طيبة المرأة الودود وحزمها البالغ .. ثم في همس يغمره التردد والحياء .

حكيت له عن واقعة البنت البضة الناصعة الشقراء التي فوجئت بها نائمة على سريري تصور !!

وضجت الضحكات من نجيب فقد استحلى الحكاية وصمم أن يعرفها من أولها إلى آخرها .. وتخرجت أن أحكي ، كيف أقدر أن أحكي مثل تلك الأشياء ؟ .. ولكنه ألح واستحث حتى حكيت له كل شيء .. حتى عن الشبشب القديم اللعين وكيف هوى غليظاً قاسياً على لحم الفتاة الغض .. حكيت وانطلقت وتهورت وضحكات نجيب الصاخبة تستدرجني بالاستزادة .. وفجأة ظهر « عرفان » وأدهشه أن أجلس في الظلام ، فأشعل الضوء .. ويا لها من مفاجأة أخرى صاعقة وضعت بعدها السماعة فوراً وبلا كلام - وأنا أحملي في المنظر الذي أمامي .. الفتاة ، فتاة الشبشب والسرير - كانت جالسة على مقعد

تتابع مكالمتي التليفونية ساخرة ومبتسمة .. ضبطت اغتباطها . تستمع
ساخرة ومبتسمة وهي مرتدية ثيابها ، وحقيبتها بجوارها ، وعطرها
فائح . ونظراتها مثبتة على منظرى المضطرب . يالللخجل ..
يا للللخجل .. لم أتمالك نفسى بصوت يسلخ نفسه من الحلق .

قلت - أنت سمعت ؟

قالت - أنت حكيت .

وازدادت حالتى تدهورا عندما ظهرت مدام آدمة فجأة ورأتنا نكلم
بعضنا .. يا للهول فهل تقول لها ؟ .. وماذا بوسعها أن تقول لها ؟ ..
الفتاة جريئة ولعوب . وبمثل مارأيتها سليطة البكاء والصياح فها هى
أيضا أمامى الآن سليطة الابتسامة والسخرية والهزء .. ولكنها بمجرد أن
رأت مدام آدمة ألفت نحوى نظرة غامزة مستخفة ، ثم التفتت نحو
مدام آدمة تلوح لها وهي تفلت مسرعة نحو باب الخروج .

مدام آدمة ترانى لأول مرة فى هيئتي الجديدة .. هتفت تبدى
إعجابها ، ثم أخذت وردة حمراء من « الفازة » وصممت أن ترشقها لى
فى عروة الجاكطة .. لا لا يامدام آدمة فأنا لا أستعمل هذه الأشياء ..
ولكنها صممت فأنا شاب ويجب أن أسعد الناس بمنظرى المزدان ..
تخرجت أن أكسفها فاستسلمت لها وأنا أتساءل ، أليس شيئا عنيفا أن
أجارى طباع هؤلاء الناس ؟ .

.....

مدام آدمة صممت مرة أخرى أن أتناول فنجان قهوة معها ..
وبدأت تسألنى عن عملى ووظيفتى ؟ .. ارتبكت ، فأنا لا أتصور ردا
على هذا السؤال إلا أننى مؤلف وكاتب .. أخجل منذ زمان أن أجيب
على أى سائل بغير أننى مؤلف وكاتب .. قلت لها بعد جهد أننى
« كاتب » - والحقيقة فانا صادق إن وظيفتى الجديدة هى كاتب حقا ،
ولكن فى قيودات المخازن !

تجبرأت وأنا أتناول أول رشفة من فنجان القهوة .. أجرب شجاعتي

فأسألها عن عمل ابنة اختها هذه ؟ .. قالت إن « مسيو مترى » صاحب المطبعة العصرية وجارنا فى العمارة المقابلة توسط لها فاشتغلت « كاسييرة » فى « سينما فيمينيا بشارع عماد الدين » بائعة تذاكر فى الشباك . وبوسعها أن تدخلك مجاناً فى أية مرة .

قالت هذا ثم أخذت تحكى وتتأوه عن مصائب حرب هتلر ونكبات حرب هتلر .. أختها وبناتها المهاجرات من الاسكندرية .. كل بنسيونات الفجالة والسكاكينى وغمرة مكدسة بالمهاجرين المساكين من الاسكندرية فرارا من غارات القنابل التى لاتنتقطع .. أرامل وأطفال ويتامى ياعينى فماذا يفعلون ؟ .. اخى المسكينه وقد صرعت القنابل ابنها الاكبر الذى كان يعول البنات وهدمت بيتهن ودمرت عفشهن . فأين الملجأ لهم غير بنسيون المنكوبة آدمة .

قلت : - ما اسمها ؟

قالت - من ؟ .. اخى

قلت - لا . اقصد .. اقصد ..

قالت - تقصد « مارى » ؟ . الشعنونة « مى » .. نحن نناديها

باسم الدلع « ميبى » .. فإن « مى زيادة » من عائلتنا ومن نسبنا .. المشهورة مى زيادة التى تكتب هل تعرفها ؟؟

« النحلة والرحيق » _____

القاهرة ٤١ و ٤٢ :

وتمضى الأيام فى بنسيون فيوليت .بالفجالة ..
صديقى « نجيب - ما أشد امتنانى له - أنقذ ضائقتى المالية ،
بصفقة كتاب مخطوط قديم وهام ، مطلوب نقله لحساب « قسيس
قبطى » يريد أن يقتنى نسخة منه قبل أن يعيده إلى مكتبة الدير . وضعه
أمامى ، ومعه رزمة من الورق الابيض المتين ، ثم ورقة جديدة لامعة
من ذات الخمسة جنيهات .. تلك الخمسة مقدما ، والخمسة الأخرى
تنتظرنى بعد أن انتهى منه - والشرط أن أنتهى منه خلال أسبوع فما
رأيك ؟

شكرته طبعاً ، فالخمسة جنيهات تلك إنقاذ وهدية .. لقد أديت له
مثل تلك المهمات السهلة من قبل - مهمات نقل الكتب القديمة -
وهو يعرف أنها تبهج نفسى بقدر ماتبهج جيبى .. أى شىء فيه ورق
وقلم وكتابة يضعنى فوراً على مقعد من الزهو والانتعاش .. الكتاب عن
« الأديرة القديمة » وخط كاتبه القديم نبش مداد غليظ كمن كتبه بظفر
الاصبع .. لا بأس .. يستهوينى التأمل والحملقة فى أى قديم من تراث
أو آثار حتى ولو كان بسيطاً أو ساذجاً .. هؤلاء المثابرون القدماء من
مختلف العصور وأيضاً هؤلاء المفكرون العظماء من مؤلفى الكتب ، أشعر

أن بينى وبينهم صلة رحم .. وأحس دائما أن يوسعى أن أستحضرهم في أى وقت لأصنع وإياهم احتفالا عائليا خاصا .. ومهما افتتنت بهم وشهقت مشاعري من وراء عصورهم فأنا لا أجرى مهرولا متحسرا من خلفهم بل أودعهم في تأثر وإشفاق بعد أن حم قضاء الله وانقطع خيط الحياة من بين أيديهم .. إنهم سعاة يريد يوصلون الرسائل من عصر إلى عصر .. انصرفت عصورهم وانصرفوا معها فتوقفت رسائلهم .. أما أنا فأعيش عمرى الذى لم يروه ولم يجربوه ، ولى رسائلنى التى لم تتوقف بعد . وبإغرابة ما يحكى هذه الايام عن « مخازن هتل السرية » ، وكيف يوشك أن يولد فيها فى أى لحظة « صاروخ » يمكن أن ينطلق مزجرا فيدمر قارة ، كما يمكن أيضا أن يرح أيضا منتزها فيطبع قبلة على أرض القمر ويعود .

حياتى فى بنسيون الفجالة مازالت منكشمة وواجفة .. ادخل وأخرج كالمستسل لا أخلط بأحد ولا أكلم أحدا .. ودخول « الحمام » محنة ، فدائما ترتطم عيناى بالنساء والبنات خارجات أو داخلات بقمصان النوم أو بأخف الرداء . فأرتد عائدا إلى حجرى فى قهر وحيرة .. و« مى » هذه أو « مارى » كما عرفت اسمها .. بت أنحاشاها بل أخافها بل أوشك ان أقول أكرهها .. فقد وضع لى أنها عابثة ولعوب . لاتبالى حتى بخالتها أو أمها .. ولقد رأيته عدة مرات من خلف شيش النافذة يوصلها عساكر انجليز وضباط انجليز .. وأحيانا أراها دون أن ترائى داخلة محملة بزجاجات بيرة وويسكى وعيش فينو وعلب شيكولاته ولفافات كثيرة وكله من « النافى » ! علاقتى بها تبادل استخفاف أو عدم استلطاف .. لا أكلمها ولا تكلمنى .. فذات مرة وكنت واقفا عند ركن التليفون وهى خارجة متعجلة ، وعندما رأتنى توقفت فى جرأة سهلة واستدارت تعطينى ظهرها المكشوف - تطلب منى كمن تأمر أو تمنح أن أساعدها فى غلق

« سوستة البلوزة » ! غضبت .. استنكرت .. أحسست إنها لا تحترم رجولتى .. فأشحت عنها ولويت ظهري مبتعدا بعد أن رشقتها بنظرة ضيق واحتقار ، ولم آبه بطنين من تمتتها المندهشة يصل إلى أذنى تسخر أو تحتج وتردد فيه كلمة فلاح وفلاحين ! . منذ ذاك الوقت أعطيتها منظر رجل لا يراها .. لا أكلهما أو تكلمنى بل إنها باتت - عندما يتصادف وتراعى - تقطع أى منظر للمرح أو الكلام كانت فيه ، وترمى بنظرات غريبة حادة حارقة فيها ما يشبه رغبة الصباح والبيكاء .

« مدام آدمة » صاحبة البنسيون سافرت إلى بقايا أهلها في - بر الشام - زيارة شهر أو شهرين !
أسلمت أمور ومسئولية البنسيون إلى أختها - مدام وديدة - التى هى أم « مارى » واسم الدلع « مى » وأخذت عليها العهود والمواثيق وأعطتها التوصيات والترتيبات وشددت على سمعة البنسيون ومختلف الشئون .

وعندما جاءت تودعنى ، ضمتنى إلى صدرها وقبلت كتفى ، وداعبتنى بعبارة غريبة - دوختنى كثيرا فيها بعد ! .. مالت على أذنى تجذبها وتقرصها تقول . معنى ماتقول .. خذ الحرص من الشعنونة المبهولة مارى وحاذر أن تقع فى حبها بمثل ما وقعت هى فى حبك .. إنها حفارة رجال - مثل جدتها الله يرحمها - وهى الآن فى لطشة التصميم على اكتشافك أيها المنجم الخبيء .

الحب ؟ .. الحب ؟

خفق قلبى بشدة .. بل أحسست أنه يعوى من شدة الحرمان .. لهفتى وتحرقى نعم نعم ؟ . ولكن مع مارى هذه لا ؟ .. لا .. لا وقت عندى لنوعها حتى ولو عشت ألف عام .. مستحيل طبعا ! .. هزار طبعا ! . فهل هذا معقول ؟ ولكن . ولكن .. ياعنف الأرق والقلق

الذى استلمنى منذ قولة تلك العبارة ، والعينان السليطتان الباكيتان
أحاول أن أطفئ لهيبها لأنام فأفشل !

.....

انطلقت الحريات فى أرجاء البنسيون بعد سفر مدام آدمة .. تحول
الهدوء الرصين إلى لعلعة ضحكات ، وضجة سهرات ، ووجوه جديدة
ذهابا وإيابا ، وتفايح وكونياك وصوانى كباب وموائد قمار . غضبت
واستكرت هذا الانقلاب طبعاً . ولكن أنا لاشأن لى . وماذا يوسعى
أن أفعل ، فهل أغادر هذا البنسيون مثلاً ؟ .. كيف أترك الطيبة مدام
آدمة ؟ .. ثم إلى أين ؟!

وذات يوم قبل أن أخرج فى الصباح أبلغنى « عرفان » الفراش -
وهو يلوى وجهه عنى كى لا أرى ملامحه المنهزمة ، أن عيد ميلاد
الدموازيل « مى » له حفلة الليلة فى البنسيون .. رقص ومغنى وديوك
رومى .. وأنتى مدعو مثل كل النزلاء .

عيد ميلاد الدموازيل « مى » ؟! لا .. لا .. أنا . أنا لا أحضر
هذه الاشياء لا أعرف مثل تلك الاعياد .. ثم إن عندى عملاً سوف
أسهر عليه !

.....

عندى عمل سوف أسهر عليه .. « قصة » أكتبها الآن وتلاً
حواسى .. جديدة ولاتقة للنشر فى صحف هذه الأيام ، ياليت .
أنا أقرأ كل الصحف والمجلات - وهى كم هائل - من عند
« المعلم فضل الله » ومائدته الشهية مفروشة بجوار « كازينو
البسفور » بالقرب من البنسيون .. أعطيه قرشاً كل يوم فيتركنى أقرأ
وأتصفح ماأريد . بل بعضها يبيت معى ثم أعيده فى اليوم التالى .

« الصحافة » .. صاحبة الجلالة الصحافة المصرية .. « عربى
وأفرنجى » وأصحابها كلهم إما « شوام » أو « يهود » .. « الاهرام »

أولاد تقلا » .. الهلال « أولاد زيدان » . المقطم والمقتطف واللطائف
« أولاد غر وصروف واسكاروس » « روزا اليوسف » « جلال » ،
و « كريم » وثابت ، وانكونا ، وخورى ، وشميل وشقير ، وبركات ،
ونحمين ، وسركيس ، مطران ، وميخائيل . الخ الخ .

أما البقايا من ورق خفيف وحجم هين فهو مسحوب بحبل
الأحزاب .. يظهر ويختفى وراء ظهور واختفاء حكومات الأحزاب ..
ولكن « التابعى » بآخر ساعة مقتحم وموجود وتبزغ له مدرسة جديدة
تلهب الخيال .. و « أبو الفتح » الوحيد ، ودهشة أن ينجح هذا
« المصرى » بين العتاة .. ثم تبدأ وتلمع من ثنايا السور الشامى
اليهودى الجاثم ، تقوب أخرى ترسل الضوء أو البصيص من وجوه
مصرية صميمة تبدو تفرك يدها ! .

« مصطفى أمين وعلى أمين » - أو « مقالات مصمص والسندباد »
وبدء العذوبة والانعاش الصحفى .. بدء تحرر الفكر والهدف والأسلوب
من غلظة قلب ودم وضمير صحافة الشوام واليهود .. « فكرى
أباظة » - ورغم أنه بالايجار لحساب أولاد زيدان - فباسمه ينادى
على المبيعات فقد بات معبود الجماهير .. « جلال الحماصى » وتحفز
الانافة الصحفية .. « كامل الشناوى » والريق المصرى يجرى
ويحلو .. وشقيقه « مأمون » و « سعيد عبده » و « رخا » و « بيرم »
و « محمد غريب » و « حافظ محمود » و « قاسم جودة » و « أحمد
حسين » و « محمد صبيح » و « فتحى رضوان » وراية « ومصر
الفتاة » .. وما أشد اغراء الوطنيات .. « سلامة موسى » والفانوس
السحرى مع « المجلة الجديدة » .. « زكى عبدالقادر » و « الفصول »
واستضافة المواهب .. « أحمد أمين » و « الزيات » و « أمين الخولى »
و « بنت الشاطئ » يحركون الشهية للقراءة الأدبية .. « محمود
كامل » وموكبه العصرى فى قصص وروايات يوزع عطريات مثيرة فى

القصة والرواية .. « توفيق الحكيم » طبعاً « وأحمد الصاوى » طبعاً طبعاً ! .. تقوب جديدة تطل بأضواء المدينة وتلهب مشاعرى .. تخلب لى .. توجج طموحى العارم والمحروم - وبإلهى كيف النفاذ من هذا السور الغليظ الصارم . والصحافة مازالت طبقية ومحسوبة .. مازالت فخارة وأرستقراطية .. مازالت أبهاء بلاطها تسد أنفها عن رائحة أولاد الفلاحين !

.....

أمس وبواسطة أحد المعارف الهامين لصديقى « نجيب » .. ذهبت إلى مبنى جريدة « المقطم بباب اللوق » ، وكان الميعاد قد تحدد لى أن أقابل العظيم الصحفى المتبختر المهول « كريم ثابت » - لعل كتابتى تعجبه فيلحقنى ولو فى سلاملك القصر من بلاط تلك المشتهاة صاحبة الجلالة الصحافة .. لامانع من حتى هذا « المقطم » رغم أنه كاسد وكريه .. وكنت قد أخذت له نماذج من جميع أنواع الكتابات .. قصص قصيرة ، وفصول نقد لكتب قديمة وجديدة ، وأفكار عن باب صحفى جديد يرصد الأخطاء والغفوات « عنوانه » ، « لو » ..

قابلنى كريم ثابت وهو منتفش ويبرق ، فى مقعد مطهم مستدير وطويل المسند يلف به فى خيلاء الديك ، ومن حوله تليفونات وأزرار ، وأوراق ، وكتب ، وصور ، وأقلام ذهب ، والكرافتة حمراء فاقعة وعليها ماسة ، وأنفه المعقوف كأنه صقر يطل على ضفدع .. شكلى الريفى ومهما رتبت فيه هو تربة سمراء واضحة وصريحة .. لم يطلب منى الجلوس .. مضغت كبريائى .. تحملت .. مددت له يدى بأجزاء الأوراق وقد رتبها بإغراء العناوين وأوائل السطور بحيث إذا راقى تكون جاهزة لتأشيرة النشر فوراً !

تناولها منى ، ثم قلبها بأصابعه المصقولة فى سأم متعجل .. لم يستوقفه شىء .. لم يتأن ليستوقفه شىء .. وعلى ملاحظه بدأت تسرى

ابتسامه ساخرة لاتحاول أن تخفى امتعاضها .. ثم أعاد لى الأوراق وقام واقفا وأخرج مندبله الحريري من جيبه يفرك به أصابعه كمن يسح عنها التلوث .. تحرك فى تودد متفطرس وهو يأخذنى نحو الباب .. وقف برهة يكلمنى ويعطينى نتيجة المقابلة .. أعطانى الزجر أو النصيحة بأن كلمة « بقلم فلان - الذى هو أنا - والذى كتبتهما تحت العنوان يا شاطر - تحتاج لعشرين سنة حمل أحجار وحفر صخور حتى تنالها - هذا إذا كنت المازنى الصغير أو « سلامة موسى الصغير »! المازنى وسلامة موسى يا شاطر يا من تريد أن تكتب اسمك فى الصدر مثلهم ، حفروا بأقلامهم عشرين سنة حتى أفسح لهم النشر وباتت أسماؤهم تتصدر العناوين .

ارتبكت .. خجلت أن أقول له سيدى لم تقرأ ما بعد العنوان والاسم ! .. وربما رأى عنف الصدمة على وجهى ، أو ربما أراد أن يراضى من توسط لى ، فقال : قد تنفع « مصححا » فهل تجيد النحو ؟ فقلت بسرعة وبصوت عال - وكان الدم قد تأجج فى رأسى - لا لست أجيده أو أريده ! .. دهش من علو صوتى ولكنه تجاهل وهو يفتح الباب لأنصرف ثم عاد يعطى آخر فرصة .. تشتغل فى الاعلانات ؟ اعلانات ؟ ! .. لم أرد .. لم أبادله حتى النظر أو التحية .. اندفعت خارجا يرهقنى الذل والندم .

بعد هذا المنظر .. بعد هذا الذى حدث ، قررت وأقسمت ألا أدخل الكتابة والصحافة من باب الوساطة أو المحسوبة أبدا .. أبدا أبدا .. نقاء تلك المهنة ألا يكون فيها وساطة أو محسوبة . نجاح تلك المهنة ألا يكون فيها وساطة أو محسوبة .. كيف يكون فيها وساطة أو محسوبة ؟ .. وحكاية عشرين سنة حتى يتيسر أن يعترف بك كلام فارغ فهل هى مسيرة ليमान ؟ .. من وضع ومن شرع وبأى حق ومن هو يكون هذا الذى أعطى هذا القرار الصارم بأن على المواهب الغضة

أن تحبس حتى تذبل أو تموت في زنازين تلك السنين الطويلة .. ثم
عشرون سنة كيف تبدأ مثلا .. لا أبدا لم أقع في ذلة هذا الاستسلام ..
السور غليظ نعم ولكن يجب أن أجد الطريقة لاقتحامه .. حتى لو
خدعت حراسه .

.....

عندما عدت من عملي في وقت الظهر - فوجئت بشكل البنسيون
وقد تغير .. مقاعد كثيرة ، وديكورات غريبة . وكرائيش حمراء
وخضراء وصفراء في السقف والحيطان ، وموائد كثيرة لامعة ومظهمة
وعليها أطباق وأكواب وزجاجات وفازات ورد .. آلات موسيقية كبيرة
وصغيرة .. ميكروفونات يجربونها على « الدسك » الذي أحضره
« السرجنت برجر » .. لفائف هدايا .. وباقات ورد وبوكيات
زهور ، ملفوفة بأشرطة حمراء وزرقاء وعليها كروت .. سهرة عيد
ميلاد المدموازيل « مى » ، ويا إلهي من يصرف على كل هذا ؟
هل هو فقط ديك الدجاج العجوز الغلبان ملتوى اللسان « الخواجة
مترى » ؟ دخلت حجرتي ونيتي أن أغلق بابها على نفسي .. اكتشفت
انهم أخذوا كل المقاعد وحتى الكنبه والسجادة .
فكرت أن أغضب أو أحتج ولكنى هدأت وتراجعت .. ماذا يهم ..
ليلة تمر ..

.....

استلقيت على السرير بعد أن قربت حبيبتى المائدة الرخامية ،
فيوسعى الاستغناء عن المقعد .. شردت واستمذحت أن أشاغب سحيق
أفكارى .. عيد ميلاد المدموازيل مى هذه ؟
فإذا فكرت أن أحضره مثلا مثلا ، فيجب طبعاً أن يكون في يدي
هدية لها .. هدية .. ها .. ليس في جيبى إلا نصف جنيه باهت وبضعة
قروش كالحلة فهل أشتري لها مصاصة مثلا ؟ ضحكت لجرأة الخيال

وخلو البال وأتمنى واقه لو أتمكن فأصلها يوما مع هذه الطفلة الوحشية .
لى أيام وأنا متمك فى كتابة تلك القصة التى عنوانها الهامشى
« يوميات مهاجرة » وعنوانها الرئيسى « قلبى فى يدى » .. تلك
القصة والبطلة فيها ومهما أشحت هى هذه المدموازيل مى . الذئبة
الفضة الملونة الغريبة فى غابة الرجال .. حفارة الرجال بأظافرها
المانيكير وأصابعها البسكويت .. الوليمة الطازجة الحريفة فى سوق
اللاعقين وأكلة اللحوم .. المهاجرة الحائرة بأنوثتها المتفجرة الصريحة
وحريتها الفاحشة الصريحة أيضا .. قصة تختلس نفسها من تقاليد
كتابات هذه الأيام .. أبدا لا أحلم أن تنشر بسهولة . فمن يتجرأ أن
ينشرها ؟ إنها عارية الصراحة أيضا بمثل صراحة العرى . من عصر
صاحبها .

سهرة عيد ميلاد المدموازيل مى بدأت منذ أول الليل ومستحيل
الكتابة أو القراءة فالحجرة تهتز من عنف الطبل وزججرة موسيقى
الجاز .. زماير ، صفاقير ، ورقص الكاريوكا وكارمن ميراندا ، وأوه
جونى أوه .. ضجيج الساهرين وضحكات ، ولعلعات ، وزعقات ،
وشهقات ، وأغنيات الميكرفون بالفرنسى والانجليزى فقط .. عدة
مرات أحاول أكتب أو أقرأ فأفشل . أطفأت النور .. أبعدت
الأفكار .. استرخيت أحلق فى الظلام طويلا طويلا . حتى رويدا
رويدا ، غفوت وغصت فى النوم !

.....

استيقظت فجأة على مايشبه طرق الباب .. أشعلت النور ونظرت
« إلى ساعة المنبه » وكانت الثالثة صباحا .. فركت عيني ، فمن هذا
الذى يطرق فى تلك الساعة ؟ .. ربما توهمت فإن الطرق قد سكت ..
عدت أتصنت فالبنسيون هاجع تماما فلا بد أن الساهرين قد انصرفوا .
وقبل أن أعود وأطفىء النور عاد الطرق واضحا هذه المرة .. قفزت

من السرير . وكنت من شدة الحر بلباسي الداخلية جدا .. فتحت الباب .. ويا هول مارأيت فقد عدت وبسرعة أغلقه .. ولكن قدم الطارق كانت محشورة وتحدى الغلق .

إنها الدموازيل « مى » واقفة مترنحة تتساند على ضلفة الباب .. متطوحة وواضح أنها سكرانة .. فى يدها اليمنى طبق كبير . يهتز وفيه لحم ديك رومى ومحشى وبوفتيك . ويدها اليسرى ترفع زجاجة خمر نصفها ممتلئ ! .. ماهذا ؟ .. ماهذا ؟ .. نصيبى من سهرة عيد الميلاد الذى لم أحضره ؟ .. نظرت إليها جاحظ العينين وقد شلت أطرافى .. أحاول أن أتوارى بمنظرى الردىء المخجل .. عينها تتوسلان أن تدخل .. تدخل ؟ كيف تدخل ولماذا تدخل ؟ مستحيل أن تدخل ! ولكنها بدت مصرة مصممة ، وقد روعنى أن تحدث أى فضيحة توقظ أهل البنسيون .. واشتد ذعرى عندما رأيت الزجاجة التى تتطوح فى يدها توشك إن تقع . والطبق أيضا . وسوف يكون لتهشيمهما على البلاط صوت المدافع وصفارات الانذار .. اضطرت وبعد صعوبة أن أتناول منها الطبق والزجاجة وأضعهما على الأرض داخل الغرفة . ثم استدرت نحوها غاضبا ومستشيطا فماذا تريد الآن بعد كل هذا ؟ .. وقبل أن أقول أى شيء ، أو تقول هى أى شيء ، تطوحت تدور حول نفسها عدة مرات قبل أن تتداعى مكومة على بلاط الأرض داخل حجرتى مغميا عليها !

يا إلهى تلك الكارثة .. فماذا أفعل ؟ .. طرحت نفسى بجوارها أفحصها مرتاعا فهل أصابتها نوبة دوار أو تكون يافزعى قد ماتت ؟ .. فوجدتها مفتوحة العينين تضحك وتتلوى وتطوح بذراعيها وتتمتم فى هس خافت ومتقطع ومخطوط . بأنها مجرد دائخة .. كثرة الشراب أنقلت دماغها ولسوف تنهض فورا .

حاولت أن تنهض ولكنها لم تتمكن ، فعادت تستسلم لانطراحة الأرض وعيناها ترفرفان ضاحكتين مناديتين على منظرى المرتبك

المدعور .. وعندما لاحظت أننى هممت بالخروج لمناداة « عرفان » أو
أى عون للاستعاف ، أشارت لى فى توسل واستعطاف ، بل هممت بتبوس
القدم - يامغيث - ترجونى ألا أفعل .. سوف تتمكن فتفيق سريعا
إذا ما استراحت هنا . بعض الوقت .. تستريح ؟ .. هنا على
البلاط ؟ .. أخذنى الاضطراب فيما يمكن أن أفعل فيجب أن تقوم من
نومتها تلك أولا .. مددت ذراعى أساعدها ، ثم ذراعى الأخرى بعد
أن استعصى عليها النهوض بنفسها . حتى تمكنت أخيرا فعدلتها
واقفة .. ولكنها تهدلت وتهاوت وانطرحت على صدرى بل أوشكت أن
تنزلق واقعة مرة أخرى .. وهكذا بعد أن أرهقت جدا حسمت الموقف
بأن رفعتها وحملتها بكلتا ذراعى .. وقفت حائرا بها فأين أضعها ؟ ..
ذراعاها مضمومتان حول عنق كإنها كلابتان .. صدرها منغرس فى
ضلوعى ، وأنفاسها تلهب وجهى ، وتلويها وتثنيها يمد بأقدامى ..
تحركت بها وطرحتها على السرير .. لامفر فلا يوجد إلا السرير ..
أسرعت أغطيها بالملاءة وأنا ألوى وجهى .. ثم أطفأت النور
وتراجعت وأنا مكهرب تماما لألتصق بالباب ! . أخور لاهثا بجوار
الباب ! .. أحلق ساكنا فى الظلام ، طويلا .. طويلا .. ولست
أدرى - وبعد أن فكرت برهة ما - كيف قمت وأغلقت الباب ..
أغلقتة بالمفتاح !

« الخطيئة »

القاهرة - ١٩٤٢ :

عادت « مدام آدمة » صاحبة البنسيون - وبعد أن غابت في بر الشام سبعة أشهر كاملة - لتجد أمورا كثيرة قد تغيرت وتبدلت في شئون « بنسيون فيوليت » !

« عرفان » السفرجى المخلص الأمين - وكانت « الست ودبعة » شقيقة مدام آدمة قد طردته من خدمة البنسيون - عرف ميعاد عودتها بالسفينة فذهب ليكون أول من يستقبلها على رصيف ميناء السويس .. رافقها في المشوار الطويل ، من رصيف الميناء إلى رصيف المحطة . وفي القطار من محطة السويس إلى محطة باب الحديد ، ومن محطة باب الحديد إلى باب البنسيون - وطنينه في أذنها عن هول ماجرى في غيبتها ! .. يعطيها التقرير الشامل والكامل والمسهب والصريح - فماذا عاد يخاف أن يخفى وقد انقطع أكل عيشه بعد شهرين فقط من سفرها .. روى لها المبادل ، والمهازل والمخازى ، وست ودبعة ، وست بدبعة ، والمدموازيلات ماري ، ومرجريت ، وروز .. البنسيون التنظيف العفيف الشريف وكيف فاحت سريعا رائحة سمعته الجديدة .. الزبائن الذين هاجروا والذين استجدوا .. وكل ليلة ، قمار ، وسهر ، وسكر ، وفجر ، ومنكر ، ياسيدتي الطيبة مدام آدمة .. قال لها كل شيء ..

أفرغ كل ماعنده .. وعند باب البنسيون وضع الحقائق واستأذن أن
ينصرف بعض الوقت - لتدخل مدام آدمة وكلها رعشة وجنون !

.....

لم أكن موجودا لأشاهد ماحدث .. فوجئت بالأنباء الخطيرة
وباغتني الخبر - الذى همسوا به فى أذنى أول مادخلت - وهو أن مدام
آدمة طردت أختها وبنات أختها بعد ضجة وفضيحة وخناقة ضارية
طويلة - حضر من أجلها العسكرى - بعد أن رمت عفش وديعة
وبناتها فى الشارع وتناثر وتهشم وضاع بعضه .. باغتني النبأ وانكمش لى
دمى .. طردن فىلى أين ؟!

وعندما ذهبت أحيى مدام آدمة واستفهم .. صدمتني باستقبالها ..
قابلتني بنظرات تفرس الابر فى وجهى .. ارتبكت ومددت يدي أحييها
فى تساؤل ودهشة ، فمدت يدها فى لمسة خاطفة ثم أشاحت تجز على
أسنانها وتتمتم فى صوت يخنقه الارهاق والبكاء !! بأن كل الناس
أصبحوا أبالييس فلم تعد هناك ثقة أو أمانة فى قريب أو غريب ! .
ترددت فيما أرد به فماذا تقصد ، ثم جلست بجوارها فى بلاهة حائرة -
فواضح أن عرفان قال لها عنى أيضا أشياء وأشياء .. مرت فترة صمت
متوتر ، ثم استدارت تخلق فى وجهى كمن لاتصدق ، وقالت .. حتى
أنت وكنت أظنك ابنا أو ملاكا ؟

لكت ريقى الناشف فى حلقي وأنا أزرد كلماتها .. حاولت اظهار
الاحتجاج فما ذنبى .. أختها وبنات أختها فما شأنى ؟ .. ولكننى سريعا
ماتراجعت منكشا فى ذلة وهبوط - فما جدوى أن أكذب والاعتراف
فى منظرى واضح وصريح .

مؤكد فعرفان حكى لها الكثير والكثير عن كل شيء .. فهل لحق
فحكى لها كل شيء عنى ؟ .. عن المدموازيل مارى فى غرفتى كل
الوقت ؟ .. زجاجات البيرة والسهر حتى الفجر ؟ .. دروس الرقص

والكونكان والبوكر ؟ .. خناقة « الخواجة مترى » وتقطيع الفانلة
والقميص ؟ .. يا إلهى فهل حكى لها حقا كل شيء ؟ .. كنت متعبا
وخائرا وذهنى شارد وبعيد إلى أشياء أخرى فلم أجد كلاما أقوله ..
و .. تهقرت متسللا إلى حجرى !

ألوذ بحجرى وأغلق الباب .. ألتصق بالحائط وقبضة يدى ترتعد
وتضرب الجدار .. نظرات مدام آدمة - تلك الكارهة والمفجوعة -
فماذا تدل إلا أننى قد سقطت من عينها .. حنقت على عرفان فلا بد
وأنة قد بالغ فى بعض الذى حكاه .. ولكن يابؤس نفسى ففيمما يكون
قد بالغ . وتلك هى الحقيقة تطل من منظرى التعس الملوع المبعثر وأنا
واقف أنظر إلى نفسى فى المرأة .. منظرى البائر الكاسد المهزوم .. هذا
السقوط الجارف والمباغت فى برائن أول خطيئة .. أول مذاق وأول
رشفة من أنوثة المرأة .. أول ثقب فى معبد الحرمان الذى عشت أتحصن
وأتهجد فيه .. اتسع الثقب سريعا يادهشنى ويأويلاه - فمارى هذه
أصبحت لى ادمانا رهيبا .. نعم هذا هو الوصف الحقيقى . ادمانا
رهيبا !

لا . لست أعاتب نفسى الآن .. لست أحاكم نفسى الآن .. أنا
غريق لم يطلب النجدة بعد .. أنا مشنوق لم يطلب الرأفة بعد .. نشوقى
ومتعنى سارية وعارمة فى عذب هذا السم وأبدا لا أطلب النجاة .. حتى
لو كانت الأمور انتحارا وتلاشيا .. فما ذنبى فهل خلقت نفسى ؟ .. ثم
أنا الموجود لست أنا الحقيقى ؟ .. لست صبى القرية النقى الطاهر .
ولا غلام المدرسة الواجب الحجول . ولا حامل تعويذة الحجاب
الريفى تحت الابط و قد جئت لأعلقه حنانا على صدور أهل هذه
المدينة .. لا .. أنا لست أنا فمن أنا ؟

أنا حرمان العصر كله .. الحرمان بكل ضراوة الانواع ومكدس
الرواسب .. « حرمان الفقر » وهذا أنا أحاول أن أقضه . حرمان

القهر . وهذا أنا أحاول أن أقنم الساحة بقلمي لاجابه .. وبقي
« حرمان الجنس » - هذا العاقى - وقد تفتحت مصاريحه عندي
فجأة .. ولا مراجع عندي له فهو فى قريتي وغريزتي دواليب ضاعت
مفاتيحها منذ الأزل !

أتحرك حائرا عصبيا فى غرفتي . فماذا يهمنى الآن من راكد
المخلوقات إذ أسقط فى عين مدام أدمه هذه أو سواها ؟ .. أزمى الهامة
الآن بل كل ما يهمنى الآن أن أعرف أين مارى ؟ .. إلى أين انتقلت
هى وأمها وأخوتها ؟ .. لابد أن أعرف أين هى الآن ، ولأهم أن أراهن
فورا .. فقط كى أستقر وأستريح وتهدا منى الأعصاب !

.....

خرجت أبحث فأين أبحث ؟ سألت البواب . وسألت البقال ،
وحمت حول مطبعة الخواجة مترى ، بل فكرت فى قسم الاربكية
القريب فلا بد أن هناك محضرا وعنوانا قد كتب .. تعبت تنقيا فى
شوارع الفجالة والظاهر والسكاكني .. اطل على يفت البنسونات .
واتقصى عن الذين يؤجرون الغرفات المفروشة فى البيوت ، وأحلق فى
النوافذ فلعلنى أرى الشعر الاشقر والوجه الابيض يطل من أى
شباك .. وحتى سينا فيميننا . حيث تبدأ وردية الليل فى شباك بيع
التذاكر ، وقفت أنتظرها خافق الفؤاد ولكنها لم تظهر ولم تحضر .
عدت فاشلا أحقق مع البواب وصبيان البواب ، فكيف لم تترك أى
رسالة أو أى كلام ؟ .. كيف وفى الأشهر الأخيرة أصبحت محمولة فى
محبولة ، بل ملتائة وضد الجميع من اندفاعه تعلقها بى ؟ .. ولقد كان
يدوخنى ويميد بى حتى قبل تلك الأسابيع عنف استقبالها وتقطع أنفاسها
إذا تأخرت عن أى وقت أو ميعاد .. وغيرها المرعبة إذا رأتنى أسلم أو
أنحدث مع أى فتاة أو امرأة سواها .. وبادهشتى عندما أوشكت ذات
مرة أن تفترس « مسيو مترى » وكيف مزقت فائلته وقميصه وعصت

ذراعه وبصقت على وجهه ، فقد حاول أن يسخر من تعلقها الخائب
الاهبل بهذا الفلاح الجلف. المفلس .. شهقاتها وفزعاتها إذا ما رأتني
أتمرد أو أجافى ! .. ليونتها المستسلمة أحيانا وعصبيتها المتدللة
أحيانا ! .. دموعها المتوسلة البراقة وضحكات الرنانة كأجراس في
الجنة .. يحررها العرمم الفياض الهادر والغامض. وبإلهي فقد انزلت
تماما فيه .. انزلت سهلا وسريعا وبغثة وأنا لا أعرف العوم فيه ..
أصارع الانزلاق بمزيد من الانزلاق في لهفة أن اكتشف .. في فضول أن
اكتشف ، كيف يمكن لفناة باهرة بارعة العوم في بحر تلك المدينة . أن
تحب خاييا كاسدا مثل لم يمارس العوم إلا في تروعة الفلاحين !؟

.....

عدت بعد أن هدنى التعب إلى حجرى في البنسيون وكان الوقت
بعد منتصف الليل .. لمحت على المائدة الرخامية لفافة ملونة .. علبة
بقلاوة شامية ، وكيس من الفستق الحلبي . هدايا سفر ير الشام من
مدام آدمة .. المرأة الطيبة الودود .. خجلت . تأثرت . نكست رأسى
في شرود معذب طويل .. أطفئ النور .. أطرح جسدى الخائر المكدود

على السرير ولتبدأ معى مخاطب الأرق في الظلام !
عدة أيام وأنا أبحث عن « مارى » في لهفة حارقة تتصاعد لحظة بعد
لحظة .. رعبى وفزعى أن تكون قد هاجرت وتركت القاهرة نهائيا ..
عذابى وتمزقى كيف لم تهتم أن تتصل بى ، أو تترك أى رسالة أو معلومة ،
فهل كانت عواطفها الجارفة - تلك التى حطمت أسوارى وقلاعى
بمجرد عبث وهو وخداع ؟.. مجرد تنوع التذوق لطبق المش الرفيف
وطعمه الملهب الحريف !؟

لم أعد أهتم أن أكتب أو أشتغل أو أبحث عن أى مستقبل وأى
طموح .. لا طاقة لى لفعل أى شىء حتى تظهر مارى ، وبعدها يمكن
أن أستريح ! .. وذات يوم لمحت الخواجة متري يمشى في شارع

التيجاء المطيعة التي يملكها .. ولست ادري كيف أحسست من
ظهور قدميه أن خطواته إلى ماري وأختها .. إنه مدمن لهذه الفتاة أيضاً ،
ولكنه ايمان البائس القنوع ... يعلق الأوهام ومهما يهبط الثمن ..
مشيت من ورائه دون أن يراني .. تلصصت خطواتي من خلفه ..
يضمرنى الخجل من منظري المتجسس فماذا أفعل ؟.. وفي آخر الشارع
توقف عند « محل جزار » ، وخرج بعد وقت طويل ومن ورائه صبي
يحمل لفائف كثيرة من ورق اللحم .. ثم استدار معه في شارع « حبيب
شلبى » .. وتوقف مرة أخرى أمام « دكان فكهاني » .. واختار
واختار ، واشترى واشترى ، وأخرج من جيبه جنيهات كثيرة ، وعاد
يمشى والصبي يحمل من ورائه .. ثم عبر الشارع واستدار نحو حارة
صغيرة مغلقة .. وعند ثاني منزل رأيته يرق من الباب .. ورفعت رأسي
نحو الطوابق ، ثم تداريت سريعاً وفي قلبي غبطة هائلة ، فقد رأيت
وجه « الست ودیعة » يطل من نافذة الدور الثاني !

أغمضت عيني وأخذت أنفاسي في شهيق طويل .. أخيراً وجدت
ماري ويوسعي الآن أن أسند ظهري وأستريح !

بقيت واقفا وعيني على نافذة الشقة والباب .. لن يقضى كل النهار
طبعاً فعنده عمل المطبعة .. ومضت ساعة وأكثر حتى لمحتة أخيراً
يخرج .. تابعته بنظراتي حتى ابتعد واختفى .. أخذت أنفاسي ورحت
أصعد السلم قفزاً ، ثم توقفت لاهثاً أمام باب الشقة ، أحاول أن
أرتب من شكلي وأفكاري ، ومن خلف الباب أسمع صوت الأغاني في
الراديو .. نداءات ، وزعقات ، وضحكات ، فهل هي ماري التي
تضحك ؟.. كيف تقدر أن تضحك وأنا عنها بعيد ؟.. خفق قلبي ،
وتشجعت وضاقت على الجرس .. خطوات تنهادي .. فرقة شيشب
الست ودیعة .. وبمجرد أن فتحت الباب ورأيتي اكتهر وجهها وهمت أن
تقلقه .. بدا لي واضحاً أن ظهوري مفاجأة غير سارة .. ولكنها

تراجعت وفتحته لا لأدخل بل لتخرج هي لي وتوارب الباب من خلفها .. وفي صوت خافت كاره طلارد - تحاول ألا يسمعه أحد - سألتني ماذا أريد منهن الآن ؟- غصت في الحجل والارتباك ، ولكني بقيت واقفا وأنا أنهته بما يعني أنني جئت لأقابل اللبسوازيل « ماري » ؟ .. حنقت نظراتها وشدنتني من ذراعي تدفعني نحو السلام ، فماري ليست موجودة الآن . ولن تكون موجودة في أي وقت . استفزني كلامها وحركتها فزجرت ملاحي في غصبة أخافتها ، فقد خيل لها أنني سوف أزيجها وأقتحم الباب .. وتبدلت سريعاً ورسمت على وجهها ملامح أم حائرة ومرفقة تتوسل لشهامة رجل أن يترك بنات الناس في حالها .. ترجوني وتستعطفني أن أنصرف فملذا أريد من ابنتها الآن .. ماري لا بد لها أن تتزوج ، فهي أكبر منك بستين وأنت لاتقدر ولا تريد أن تتزوجها ، فماذا تريد منها الآن ؟ .. واعلم أن هذه الشقة قد استأجرها « مسيو متری » فهو عائلتنا الوحيد وساترنا الوحيد الآن ، وشرطه الأول ألا يرى وجهك مع ماري في أي وقت وإلا أنصرف عنا بلا عودة !

اسمع كلامها المفترس المروع بلا تأثير ، بلا أدنى تأثير .. مشاعري لاتأبه فهي مشدودة إلى الموجودة خلف الباب .. وفجأة فتح الباب ، وأطل وجه الصغيرة « روز » وبمجرد أن رأته واقفاً أمام أمها شهقت وأوشكت أن يعلو صوتها يعلن حضوري .. ولكن أمها قفزت سريعاً لتلحق وتضع يدها على فمها قبل أن تنطق ، ودفعتها إلى الداخل وأغلقت الباب ، وسمعت صوت غلق الترياس أيضاً .. تلجمت برهة .. تصنت برهة .. اسمع ضجة ومناقشة وزعيقاً .. خجلت من وقفتي المتصنعة المعيبة .. نكست رأسي أتراجع ذليلاً-أنزل السلام .. ومع كل سلم أنزله أشعر بأن صفة مدوية تنزل على وجهي ! نزلت ، تركت الحارة .. مشيت .. النهار اصفر وشاحب .. كل

شيء من حولي أصفر وشاحب .. أترنح بخطواتي ثم أتوقف .. أتقدم بخطواتي ثم أراجع .. هل حقاً يجب أن أنصرف ؟ .. وإلى أين أقدر أن أنصرف وهذا هو واقعي البشع السخيف - ماأشد قسوتي في وصف نفسي - يمثل الجرو المربوط بالحبل إلى نافذة حارة « حبيب شلبي » فهل كنت يوماً أتصور أن أقع في هذا الهوان .. يا إلهي .. كيف أسترد حريتي من تلك الذلة وهذا الهوان ؟

وفجأة وأنا ماشى أتخط - أحسست من خلف ظهري بيد تلمسني .. إنها « روز » لاهثة الأنفاس ، فقد تمكنت ولحقتني .. تهمس وهي تتوارى بي خلف أحد الأركان ، فلدتها رسالة من ماري .. إنها ترجوك وتستحلفك ألا تحضر إلى هذه الشقة مرة أخرى !.. وقبل أن تأخذني الصدمة فاجأتني بأن الرسالة لها بقية .. وعليك أن تقطع تذكرتين في « سينما متروبول » لحفلة الساعة الثالثة ، ظهراً وتترك واحدة باسمها في الشباك ، وانتظرها فسوف تحضر !

الرائعة روز تهول مبتعدة .. انتشيت ، استرحت .. استرخت عروقي المشدودة أخذت أنفاسي بكل راحة .. ماري اذن تحبني ؟.. مازالت تحبني ؟.. وفي حماس الراحة والنشوة قرصني الرعب فتذكرت شيئاً سرت من بعده البرودة في كل بدني .. ليس في جيبى الا القروش المحدودة التي لا تكفى ثمن اللقاء ؟ وثنم التذاكر هذا فمن أين ؟.. لا يوجد من أقدر أن أستلف منه الآن ؟ .. يجب أن أجد فوراً ولو نصف جنيه ، فمن أين ؟ .. استغرقت في محنتي تلك حتى برق الحائط فجأة في ذهني حيناً لمحت عيني « مكتبة معلوف » لبيع وشراء الكتب والروايات القديمة .. حسناً فهذا هو الحل الآن لاسواه ..

هرولت لأقف مرتعشا أمام ركن غرفتي المكس بالكتب .. أنا أفعلمها لأول مرة .. كل كتاب أقتنيته أصبح صديقي ورفيقي ويصعب التفريط فيه .. اقشعرت مشاعري ویدی تنسلل لتختار الذى سوف

أبيعه .. أحسست وأنا أتلمس وأختلس أننى لص خسيس ! ولكن ..
أشحت ضجراً عن بقايا مثالياتي الواهية ، فهل عادت تذكرنى بنفسها
فى مثل تلك التوافه ؟.. اخترت جزأين من « دائرة معارف العالم
الفيلسوف محمد فريد وجدى » .. أحضنتها وقلبى يلتوى فها أعزها
عندى ، ولكننى شربتها ونهلت منها حتى ارتويت فكفى جشعاً ..
خرجت بها بائساً منهار الكبرياء لأقف أمام الحاجة معلوف ليسلمنى
بعد فصال عسير « ثلاثون قرشاً » لاتزيد ملياً ! لا بأس ، فهذا
انقاذ .. التذكرة بأربعة قروش ونصرف الباقي !

وفى ظلام السينما جلست انتظر .. المقعد مازال خالياً بجوارى ..
انتهت مقدمة الاعلانات ، ثم مرت استراحة ماقبل الفيلم ، ثم بدأت
تيرات الفيلم ، بل بدأ الفيلم نفسه والمقعد مازال خالياً بجوارى ..
بدأت أنفاسى تلفظ زفير النار .. استلمتنى لحظات الاحتراق ..
ياغرابة هذا الذى يحدث لى ؟.. هذا السعير غدا وبعد غد فماذا
بعد ؟.. لم أعد أقدر أن أظل منتظراً فالمقعد بات لى من القلق
كالجمر .. وفجأة لاحت مارى .. هذه هى مارى .. شكراً يامارى ..
تبرق عيناها ملتاعتان وهى تلتصق بى لاهثة الأنفاس ويدها تشد كف
يدى إلى حجرها فى وجد وهفة !

اكتشفت أن لقاءاتى بمارى يجب أن تتم دائماً خلسة وفى الظلام ،
فالحاجة مترى يرسل من ورائها الجواسيس . وليس هناك خلسة
سهلة ورخيصة وتشفى بعض الغليل إلا قاعات السينما المنتشرة فى كل
مكان وكل يوم يجب أن أواجه محنة ثمن التذاكر ، فقد كان مرتبى
الضعيف يذوب بعد أول وثانى يوم - مع مارى طبعاً - ومن بعدها
ألهث فى عذاب أن أستدين أو أبيع .. وذات مرة ونحن منصرفان من
دار السينما اضطرب وجهها وبدا عليها الذعر ، عندما رأت رجلاً
يتابعنا بنظراته ، وقالت أنه أحد جواسيس الحاجة مترى !
فوجئت بعد هذا بانقطاعها عن مواعيدنا المرتبة .. عادت لى

اندلاعات النار .. وقد تحملت أول يوم وثاني يوم وثالث يوم .. أما في اليوم الرابع وقد أوشكت أن أتھوز بمخاطرة الطرق على بابها ، فوجئت برمول الراحة والھناء - الصغیرة روز - تنتظرني عند ناصية بنسيون فيوليت . وتحمل لی نبأ بأن أنتظر ماری أمام دكان السرجة في أول السوق من « شرم الفجالة » ومھما تأخرت أنتظرھا فسوف تحضر !

.....

كان الوقت قد اقترب من الظھيرة ، وأنا واقف منذ أول الضحی في انتظار ماری ، حينما ظھرت أخيرا لتشير برأسھا أن أتبع خطواتھا .. دخلت في اتجاه السوق .. ثم في أول حارة ، استدارت إلى زقاق ضيق ، وأمام بيت قديم متھدم من دورين مرقت من الباب !.. وكنت من خلفھا .. راحت تصعد السلالم المھشمة البالية وتقفز من فوق أكوام القمامة المبعثرة أمام كل شقة .. ثم وقفت أمام باب دور الثاني وطرقت عليه في ثبات واستعجال .. ويجرد أن فتح الباب أشارت لی أن أدخل .. دخلت .. شقة فقيرة جدا ورائحتها عفونة وبائسة المحتويات .. کلھا خرق ، ومزق ، وھلاھيل ومقاعد بلا أرجل ، وكنبة غائرة متھدلة ، ومرتبة مفروشة على الأرض !.. قدمت لی « العمة » زاهية .. وهی عجوز في الخمسين تقريبا .. نحيلة ومقددة وعیناھا صينيتان وشعرھا كوم من قش منفر .. إنها قمامة أخرى .. قدمتها لی فھي قريبتها .. شامية طبعاً ، ولابد أنها من حضيض الشوام .. تحررت ماری في جلستها كمن اعتادت على المكان ، وطرحت نفسها على الکنبة بعد أن قذفت بحذائھا من قدميھا ، وفكت أزرار البلوزة بل خلعتها .. والجونلة أيضا .. ثم سألتني بفتة فھل معی فلوس .. ماذا معی من فلوس ؟! ارتبكت واضطربت .. فلوس ..؟ ومعی بقية مرتبی الذی استلمته فقط أول أمس .. وتبقى منه جنیه ونصف جنیه وبضعة قروش !.. نعم .. نعم . وأخرجت كل ما في جيبی .. تناولت الورقتين فقط ، الجنیه ثم النصف جنیه ، ثم علا صوتھا ينادی العمة زاهية ..

وختلى وتصرفى فى شئوتنا ياعمق العزيزة !
وقد تصرفت العمة العزيزة فى سرعة عجيبة .. عادت بأكوام
ولفائف هائلة .. ثلاثة أرتال كباب مشوى تفوح رائحته الشهية ،
وعدة أرغفة من الخبز الساخن الطازج الخارج فوراً من الفرن ..
وزجاجة « فياسكا » رهيبة من النبيذ اليونانى .. ولفائف جبن وزيتون
ومرتديلا وحوادق ، وقراطيس عنب وتين برشومى .. والباقي ربع
جنيه .. فهو إذن للعممة زاهية كى تذهب به إلى « سينما فلوريدا
بالسكاكينى » ، ففيها يعرض فيلم حبيبها الرائع العجوز « والاس
بيرى » !

« زاهية » تنصرف .. اللفائف والقراطيس تنفرط .. الأكواب
يرقص فيها النبيذ . عطر مارى يبدد أية رائحة .. هاهى مارى - وهنا
ومنذ اليوم سوف يكون وكر العشق لنا !.. مارى تقول هذا وهى
تقتنص مسحة عيني المستعرضة لبؤس المكان ، ثم توبخ نظراتي تلك
بأن تناديني إلى ذراعيها المشتاتين - ويكفى أن لنا فيه مرتبة
مفروشة !

.....

.....

أنا الآن فى الأشهر الأولى من القاهرة ١٩٤٢ ..
غصت تماماً فى « وعاء مارى » فلا أرى من المعالم سواها .. تجربة
مارى ؟! غصت بل يعت نفسى كاملاً وسهلاً فى صفقة تجربة مارى
هذه .. وحتى وأنا ألفظ أنفاس غريقاً منتحراً فى غورها المرعب ، كنت
أنازع نفسى ساذجاً أو صفيقا ، فما أنا إلا فى تجربة أو تجارب كاتب
تنقضى لتكتمل لياقة الأدوات من أجهزة الكاتب والروائى والمفكر !..
عالم النوع من هذه الانثى ؟!.. طلاسّم النوع ؟!.. غريب ورهيب
النوع ، ياشاسع الفرق من سذاجة خيال كنت أختال به وأنصوره
شعاعات من عروض جديدة سوف أبهر بها ساء الفكر والكتابة ، وبين

واقع صاعق مباغت يأخذنى فوراً إلى قاع الأعماق ، لتكون أول فض
البكارة من هذا الجنس ، مع هذه الانثى التماسح مارى !

صارحت نفسى مستميتا لآتشبث بالبقايا مما هرب وتبخر من
مثالياتى وأخلاقياتى وطموحاتى ، فالفتاة نارية متقلبة سادية هوجاء
حمقاء وجشعة ، لاتعرف ماذا تريد ؟.. إنها دائماً جائعة رجال وأموال ؟!
وبدأت أستغرب وأتعذب بدء انحسار لهيبتها العاطفى المشبوب ، فقد
بدأ يخجو وتنطفئ ذبالاته مع عويص إملاقى وذبول أحوالى وبادى
هزالى .. ولكن تبقى شىء غريب فيها مازال يؤجج طيش خيالها ..
تحلم هذه القاحلة لو كانت كاتبة وأديبة وصاحبة صالون مثل قريبتها
الشهيرة « مى زيادة » ؟ .. ورغم أنها جاهلة أو نصف أمية ، فهى
تتعثر فى القراءة والكتابة وليس لها طلاقة أى شىء إلا أنها تتكلم بعض
الفرنسية وبعض الانجليزية .. رغم كل هذا يخلب لبها ويريح نفسها
أن أكتب لها كل يوم رسالة عشق وغزل وهيام .. بل تحول هذا الأمر
إلى ثمن راحة ورفاهية لها تعوضها إذا لم تكن هناك نفود لنصرفها على
تكلفة خلواتنا .. تلك الرسائل وكنت أكتبها دائخاً ومرهقاً ومترنحاً وأنا
أتوجع ، فإننى فيها أفقد أسلوبى وصدق أفكارى ، كى تقدر أن تفهم
ماأقروه لها .. رسالة كل يوم تلك أصبحت طبق مزة السهرة تتناوله
المدموازيل « مى » الصغيرة فى شغف مدهش بل شبق غريب ، وكأنها
تحتوينى أو تعتصرنى فى لذة مفتقدة عالية المستوى !.. هل تريد أن
تفهمنى مما أكتب لها ؟ ... وماذا لها إذا فهمتى إلا أن تأخذ فى العادة
وتغوص به بين شفيتها .. ثم تميل بعنقها الناصع على كنفى ، وحبيبى
الأسمر الرائع ، فهل سوف تتزوجنى يوماً لأسعدك ؟.. تقول هذا
دائماً ، ودائماً تحس بلسعة قشعريرقى الباردة من هذا السؤال المرعب
فتسحب كلامها سريعاً ، فما قولتها تلك إلا نكتة ودعابة ، فهى ترفض
أن تتزوج من هو أصغر منها . وأحياناً يندفع الغضب ونفاد الصبر من

عينها حينما تكون قشعيرتى شديدة اللسعة ، وترمق فى عيني ثقبين صريحين يصرخان بأن زواج مثلها لى لا .. لا .. مستحيل !
وذات يوم .. وكانت الأمور قد طفحت إزائى منها ومن أسرتها .. وجدت نفسى أمامهم بين محالب اجتماع أسرى عاجل وشامل وهام ، حضرته مدام آدمة ، وحتى الخواجة مترى نفسه ، فقد نفذ صبره هو أيضا .. وهاهى مارى أيضا نفذ صبرها طبعاً .. وموافقة على مايقرونه لها .

وفى جلسة صاخبة . ومتوترة ، وغريبة التناول والمصارحة والسؤال الموجه لى ومطلوب الإجابة عنه الآن حالا .. إما أن أتزوجها فوراً وإما أن أتركها فوراً !.

هرعت نظراتى تتردد وتتوسل .. لحظات مرعبة كأنها لحظات ما قبل النطق بالإعدام .. كلا الامرين إعدام .. أتزوجها يعنى سوف أنام الليلة ولقبنى الجديد هو « قواد » ! أتركها يعنى سوف لا يستلمنى من الليلة أى نوم ..

لم أتردد طويلاً .. رفعت رأسى واقفاً وأنا أقف لأقول ..
- حسناً ، سوف أخرج لإحضار المأذون فانتظرونى ..

« هارب من التجربة » —————

خرجت ولم أعد ..
أتزوج ماري ؟ .. مستحيل ؟ .. طبعاً مستحيل ، وتعال فافترسني
ما شئت أيها العذاب الرجيم ! .
أمشي متطوحاً ذاهلاً في شارع الفجالة .. ينتظرونني الآن ومعى
المأذون ؟ .. سوف أحضره معى حالا ؟ ! .. كم أصبحت كذوباً
ومخادعاً ، بل أنا جبان ! .. خطواتي تتعثر ، وإحساسى شديد
بالوضاعة .. الساعة الآن الرابعة بعد الظهر ، وكل دقيقة بعد هذا لها
في لحمى ومشاعرى جز السكين .. الشارع صاحب هادر والحياة نشيطة
جارفة كالعادة .. عساكر إنجليز ، وبنات أفريقيا المجندات البيض ،
وعربات لورى وجيب ، والترمواي ، والأتوبيس الأخضر ، وخادمت
بالكعب الفلين والأساور الزجاج والحريير الصناعى ولطخات الروح
السائحة على وجوههن الكالحة .. أصبحن غانيات .. يجدن الزبائن
دائماً ، ففى أجسادهن التى حضنها الذل والفقر حرارة يفقدونها الباردون
الإنجليز ! .. ما الفرق بينهن وبين ماري ؟ .. أمشى .. أتوقف برهة
أمام عمارة البنسيون .. أرفع عيني إلى الطابق الثانى .. غرفتى
والشيش موارب ، واليافاطة من تحتها .. أشعر أننى بت غريباً عنها ..

يسكنها آخر لا يمت لى بصلة الآن .. أريد أن أنام .. أستريح .. فهل
أجلس ولو على الرصيف ؟! ..

أمشى .. أمشى .. أستدير من عند « كازينو البسفور » .. أرى
« الحاج فضل الله بائع الصحف » ومفروشاتة الشهية على الناصية .. لم
يعد يرانى ولم يعد يتلقى منى قرش كل يوم .. انصرفت عن قراءة
صحفه ومجلاته .. لم أعد أقرأ أى شىء ... لا صحف ولا كتب ولا مجلات
ولا أى ورق .. الصحيفة المنشورة أمامى ليلاً ونهاراً هى مارى .. شظية
هذا العصر من براكين الحرمان .. البرق والرعد فى ليالى الحرمان ..
يا هذا الحب هل أنت الحب ؟ هل أنت كل هذا العذاب ؟ .. ما أعجب
الأسرار فى مخلوقات هذه الحياة ؟ .. يا إلهى فأين القاموس من طلاس
المخلوقات فى هذه الحياة ؟! .. عفوك وغفرانك .. لماذا خلقتنا ، ومن
نحن ، ومن أين ، وإلى أين ؟ .. يقولون نصلى ، فأين أصلى ، ولمن
أصلى ؟ .. هل أركع على قضبان الترمواى وأصلى ؟ .. حقاً أريد أن
أصلى ؟ .. يخفق قلبى فأريد لو أصلى فهل أدخل « جامع أولاد عنان »
هذا الذى تواجهنى الآن منذته السامقة ؟ .. أصلى حتى يأتى الليل ؟ ..
أبيت فيه بمثل المجاذيب ؟ .. أنكمش على بلاطه حتى أذبل وأموت ؟
رحماك يا إلهى فهل أصابنى الجنون ؟ .. أمنتى الآن لو يحدث زلزال
ينشق الشارع ، يبتلع الفجالة كلها ، وكل مارى وأهلها !

أمشى فإلى أين ؟ .. خطواتى فى ميدان باب الحديد .. أطل على
محطة مصر فكم حلمت بها فى قريتى .. أتجه إلى محطة كوبرى
الليمون .. أقف على الرصيف .. المترو والقضبان .. مترو مصر
الجديدة .. عقلى الباطن يستتجد باحثاً عن صديق ، فهل بقى لى إلا
« صديقى نجيب » .. إنه يسكن فى آخر شارع المطار بمصر الجديدة ..
منذ أشهر لم أكلمه ولم أقابله بل أنا هارب منه .. نصائحى لى كانت
ترهقنى أكثر فماذا تجدى النصائح فى تلك الأمور ؟ .. عقاير الكلام مع

هذا المرض لا ، لا تنفع !.. أذهب إليه الآن فماذا أنشد منه ؟ .. لماذا
يملك أن يساعدنى ؟.. لماذا يملك أى إنسان أن يساعدنى ؟ .. المترو قادم
بأزيزه على القضبان ، وهؤلاء الذين يرمون أنفسهم تحت عجلاته ،
لماذا يحسون ؟.. يتر الجسد فجأة .. وتهشم الرأس فوراً ، فماذا
يحسون ؟!

.....

عندما فتح « نجيب » الباب ورآنى ، فرد ذراعيه سريعا ليتلقانى
بينها قبل أن أقع .. كنت أترنح .. هويت على صدره وأتيت الكلمات
يخرج نشيجا من فمى !.. دخل بى إلى ركن من غرفته وهو يهدئنى
مستغربا ومتأثرا !.. إنها غرفة بنسيون أيضا ، ولكن فى الفأخرة
هليوبليس .. معه « ضابط إنجليزى » وأمامها أوراق ودوسيهات
وأكواب ، وزجاجات بيرة .. أخذنى نجيب وقبل أن أفسر له أى شىء
لأغسل وجهى فى حمام غرفته الواسعة ذات الأركان والستائر .. ظل
واقفا يحمل الفوطه حتى جففت وجهى .. نظرت إليه فى امتنان
شديد .. وتلعثمت بكلمات الاعتذار عن حضورى غير المناسب ..
وهذا الضيف الموجود ! فأنا ، أنا فى أزمة حقيقية ، وليس لى سواه
الآن ! برق العطف فى عينيه فانهمرت دموعى ، بل انهمرت مشاعرى
فى هلوسة كلام ، فكم أنا يائس وفاشل ومجلود يا عزيزى نجيب ! مارى
يانجبى ؟.. التجربة الرهيبة مارى يانجبى ؟.. هذه الفتاة وأختها
وأما يانجبى ؟ .. من ينقذنى يانجبى ؟.. مصممة أن أتزوجها ..
أتزوجها ؟.. كيف ؟.. وبماذا أتزوجها وقد أصبحت عاطلا منذ
أسبوع ؟.. فى جيبى خطاب فصل لانقطاعى عن العمل . وإهالى
المتكرر للمواعيد .. هدأنى نجيب .. ضمنى إلى كتفه فى حنو أخ أكبر ..
شدنى من ذراعى إلى مائدة الغرفة .. وهيا صب لنفسك أولا « شوب
بيرة » ليرطب جوفك وتعال أعرفك بصدقنا العزيز « الميجور
كول » !

« الميجور كول » فى الاربعين تقريبا .. بشوش المنظر ، وله وجه حافل برقى الحلقة .. إنه ابن لورد ، وأستاذ أدب مساعد فى « جامعة اكسفورد » ومع حرب هتلر المجنونة فهذا هو يلقى فى سحيق الشمال الأفريقى وله كل ليلة منامة فى خيمة وناموسية فى « معسكرات جنيفة » بالقرب من « السويس » .. « نجيب » يعقد صفقات التمويل مع الجيش الإنجليزى أحيانا ، ويكسب كثير الفلوس !.. كل الناس يكسبون من فلوس الجيش الإنجليزى .. تجار الخيش والصفيح والحصير ، يلبسون الحرير ويشترى العمارات وكله من فلوس الجيش الإنجليزى !.. باعة الفول والبصل والتين يركبون فاره العربات وتلمع فى أصابعهم فصوص الخواتم وكله من فلوس الجيش الإنجليزى !.. العمال المعدمون هرعوا من قبلى وبحرى تشحنهم القطارات بعشرات الآلاف وراء فلوس الجيش الإنجليزى !.. « الميجور كول » وجلسه الآن مع نجيب لإتمام صفقة أطنان من نبات الخروج من أجل زيوت الطائرات .. إنه مرتش لطيف طبعا ، فالصفقة تتم فى غرفة بنسيون ، وعلى نشوة البيرة ، ولذة البطارخ .. ولكن رشوته فيها يبدو سهلة وخفيفة ، فكل مطلبه الليلة أن يسهر ويسكر مع أى أصدقاء حتى يأتى الفجر ليعود إلى تلك القاحلة .. لفافة الرمال « جنيفة السويس » .

.....

شربت ، شربت كثيرا وخيل لى أتنى أبعد رويدا رويدا عن الدوامة السفاحة التى دخلت بها .. اجتذبتى الحاجة كول فهو مثقف بارع وأديب ذواقه ويغلب لى ، فلا مانع أن يشتم « تشرشل » و « تشمبر لن » وكل لوردات وجنود الإنجليز ! واشتدت جاذبيته لى عندما حكى بصراحة كيف فى أول مرة رأى فيها الاهرامات وأبو الهول - وكان يومها سكرانا كيف خر ساجدا على الرمال .. حقيقة خر ساجدا على الرمال .. أباء العالم !.. تلك العظمة وتلك

العملاقة !.. يومها كيف نزل إلى الناس في الشوارع ليراهم كلهم تاريخيون .. حتى الحفاة والصعاليك كلهم تاريخيون .. فمن صنع تلك العظمة وتلك العملاقة إلا عظماء وعمالة وهؤلاء هم أولادهم التاريخيون . إنه يحترم مصر ويشفق على عظمتها الذليلة ، ويلعن هذا الاستعمار الذى يدوس بالحذاء على رأس أعظم الشعوب .

« الميجور كول » وقد أحبيته سريعا - ومنها كان هذا الكلام منه مبالغة أو مجاملة ، فقد أحسست بالقرب له فورا بعد أن ألقى مرثية للشاعر « شيل » ، ورأيت الدموع تترقق في عينيه . حرك جذوق المنطقنة ، فانطلقت أناقشه بل أناقشه من غوص التحليق في غموض هذا الوجود ، أدهشته أحيانا وأفحمته أحيانا ، فنسينا اللون والجنس وفارق العمر ، فما نحن إلا عقل وعقل .. وهكذا استغرقنا الحديث ! وفجأة دقت ساعة الحائط - وكأنها خبطة تفوقني وتنبهني إلى خشية المسرح التى تنتظرني .. الساعة الآن العاشرة .. عشر دقائق ، وكل دقة أتحفز معها إلى شيء يجب أن يحدث فورا .. مارى والمنتظرون !؟ بريق الدهشة السعيدة والمختالة في عينيهما عندما وثقت من كلمتي بأبنى ذاهب لأعود بالمأذون !؟.. صدقتنى ، فما أحقرنى فهل مازالوا ينتظرون ؟

قمت واقفا مندفعاً نحو الباب لأنصرف .. لحقنى نجيب ووقف أمامى ، فلا نزول فإلى أين النزول ؟.. صممت وقاومته ، واستحلفته أن يتركنى فيجب أن أنهى أمرا أشعر به الآن ! .. فاستنجد بالميجور كول أن يساعده فى منعى .. أرغماني غضبا أن أعود فأجلس ، وكول يسأل مستغربا إيه الحكاية ؟.. حكاية مارى ؟ .. أحكى حكاية مارى .. ؟ ها هى كل حكاية مارى .. فأنا أيها اللورد الرفيع إنسان مصرى ومازلت فى الثانية والعشرين ، جئت من الريف الأخضر إلى القاهرة الحمراء فقابلتني فتاة تتلظى اسمها مارى ، بركان اسمه مارى .. زلزال

اسمه مارى .. و.. حكيت .. حكيت .. كل المشاهد والتفاصيل وحتى وصلت إلى مشهد إحصار المأذون ، كنت قد تأججت مرة أخرى فوقفت مصمماً على الانصراف !

الميجور كول هذه المرة هو الذى وقف صارخاً ليعترضنى ، وله شكل قائد تباغته معركة حربية .. أغلق الباب بالمفتاح ووضعه فى جيبه ، ثم بدأ ينكش شعر رأسه ، وقد استبقى فى يده ورقة الفصل من العمل - من وثائق تدهورى تلك التى أخرجتها وأنا أحكى هاذياً .. وواضح رغم صرامة شكله أنه اندمج رومانسياً ومغرقاً فى مشكلتى العاطفية المؤثرة !

تلك الليلة وما حدث فيها .. وما تقرر فيها .. لقد رسم الميجور كول خطة حربية سريعة لاقتلاعى فوراً من معركة الفجالة الضارية ، فيجب أن أغادر القاهرة ! إلى أين ؟ .. إلى « معسكرات جنيفة » ، فهناك وظيفة ، والمرتب خمسة وعشرون جنيهًا ، والأكل والسكن مجاناً ، ولا أجازات ولا عودة من هناك حتى تشفى من هذه المارى .. واهربوا من التجربة كما يقول يسوع المسيح !

وظيفة ؟ .. فى الجيش الإنجليزى ؟ .. تحمس نجيب للفكرة بل هلل لها ، فهى التى سوف تصنع كل الحلول .. وظيفة كتابية سهلة وسوف تجد هناك مئات بل آلاف من أمثالك أولاد الناس الطيبين الغلابة !! .. أما أنا فقد بهت لحظة ، وفاجأتنى مشاعر من مثاليات امتعاض وكأنتى أواجه حالة خيانة للوطن .. اشتغل فى الجيش الإنجليزى ؟ .. الأعداء ؟! .. أنا الوطنى المشبوب ؟ .. لا .. لا .. آسف .. لست من نوع هؤلاء المثات أو الآلاف !

أنا دانتغ ولا أعرف بماذا أرد ونظراتى عليهما حائرة ومتردة .. وللوهلة الأولى تحسسا ما اعترانى وما كنت أفكر فيه ، فأخذنا يتضاحكان ويتغامزان وكأنهما أمام غلام مضحك وعنيد .. لم أنطق لهما

بأفكارى فأنا أعرف وأنا ألقبها على نفسى أنها أفكار متهافئة وضعيفة ،
فمن أنا وما وزنى حتى أعلن نفسى شعارا أو انقلابا ؟ .. تسعة أعشار
مصر المطحونة المضوغة يستردون أنفاسهم من فلوس الجيش
الإنجليزى .. يتعيشون الآن من فلوس الجيش الانجليزى .. الوطن
كله يشغل الآن مع الجيش الإنجليزى .. أعداؤنا الألداء المستعمرون
نعم ، ولكنهم الآن يجاربون أنفسهم ويذوقون أنفسهم فى ضراوة
الوحوش ، وما نحن لهم إلا محطة ذهاب وإياب .. نكست رأسى
ساکتا .. وضع أننى استسلمت !

وفى الفجر - فى العربة بجوار الميجور كول - أعطيت ظهري
للقاهرة .. من مصر الجديدة رأسا إلى طريق صحراء السويس ..
لا أستدير ولا أتلفت .. فقط أتحنس عنقى فقد بدأ حبل الفجالة
الغليظ يحز فيه - ومهما ابتعدت أبها الهارب فىلأ أين الفرار ؟

.....
.....

أنا عائد من « معسكرات جنيفة » فى عربة الميجور كول ، ولكنه
ليس موجودا !.. عائد بعد سبعة أشهر .. لم أحضر القاهرة منذ سبعة
أشهر .. بجوارى مجنونة سكسونية نحيلة وطويلة وملتهبة الخيال ، ذاهبة
إلى أجازتها أيضا فى القاهرة .. اسمها « بياتريس » ، وقد التقينا كثيرا
فى خلوات المعسكر .. وعرفت أنها خريجة ملجأ ، وليس لها أحد
فأعطيتها عطفًا وحنانًا صادقا اكتشفت من بعده أنه يمكن أن أكون أنا
هذا الأحد .. تقول أنها أحييتنى واسمى على فمها هو « فرعون
الصغير » ، ومن أجل هذا رتبت ، بل أغراها الميجور كول - أن
يكون توقيت أجازتها معى !

« بياتريس » تلتصق بى وتضغط على يدى .. ويدى شديدة
البرودة ، فقد بدأت أنفاسى تتجمد وكلما اقتربت من القاهرة ..

مشاعري بعيدة وأفكارى الآن كيف أتخلص منها بمجرد أن أوصولها إلى
عمارة المجندات بقصر النيل !.. بياتريس تحبى ويا عواطف الحرب
المهوجاء ، كم عدد المجندات البلهاء والوأتى تعلقن بطولى وسمرقى
واستهواهن تعففى وترفعى أو قل سذاجتى وبراءتى .. وقعت معهن
طبعاً فى قصص غريبة ومغامرات مذهلة من خلوات الليل وأثناء
الغارات ، وفرصة الأجساد والأنفاس تدفئ بعضها .. ولكن يا شدة
البرودة ، فأنا فى صقيع دائم .. حكاية مارى والروميو أو الكازانوف
المصرى وبعد أن أذاعها وأشاعها المرح « كول » نشرت لى جاذبية
خاصة - فهذا هو البرنس الهارب من الحب .. ولقد تعلمت بعد أسابيع
قليلة أن أدعوهم وأدعوهم إلى بلاط هذا البرنس الذى أصبح اسمه
« لؤلؤة جنيقة » .. الخيمة الملونة ذات الحديقة الصغيرة الخلابة ، والتى
تأنفت فى تنسيقها ورشقتها بياهر الأركان الشرقية والعصرية - وكله
من مخازن صديقى الميجور كول - فبات منظرها يغيظ حتى غطرسة
الانجليز .. نعم نجحت وبسرعة - وتفرغى أن أنسى .. صراعى أن
أنسى .. فى تأسيس وإشاعة نوع مجتمع مصرى عصرى رفيع المستوى
هادئ الكبرياء ، ليفرض احترام الانجليز للمصريين .. فى غلظة ،
ما استقبلتنى ومنذ أول لحظة تلك العزلة البائسة والتحاشى المهين منهم
لمعسكر الموظفين المصريين المدنيين .. جاهدت أن أشتته .. كافحت أن
أطرده .. فتحولت لؤلؤة جنيقة كل ليلة إلى مرح نفوس وسمر علاقات
وجاذبية صداقات تنسى اللون والجنس والدين !

.....

بياتريس تلتصق بى وتفرك يدى ساكنة .. « والوصول الهندى »
المتفطرس يقود العربى متأقفا ضجراً من غزلنا الصريح .. انطلق ينهب
الطريق فى سرعة مخبولة اسكتت بياتريس عنى ، فقد أخذ قلبى يدق
فى عنف وكلما اقتربت المسافات !

قلبي يخفق بعنف بل يعوى ، فأنا لم أنس مارى بالطبع .. كيف بسهولة ؟ .. أنها الحريق المتدلج فى مشاعرى ليل نهار .. إدمان أفكارى ليل نهار .. عائد لها وفى خطتى استرضاءات واغراءات ووعود مسرفة كثيرة إلا الزواج .. فى حقيبتى - من الثانى - هدايا متنوعة لها ولإخوتها وفى حقيبتى أيضًا كنوز كتابة سوف تلهبها وسوف نقضى متع الليلالى فى التلاغى بها .. قصص كثيرة وعجبية كتبتها بصريير الحرمان منها .. استعدت أسلوبى ، وتفتحت شهيتى ، وترعرع وجدانى ، وعاد طموحى فى أن أصبح كاتباً مشهوراً سوف يبهرها قريباً بذىوع اسمه ورواج أحواله ..

ومنذ أسابيع خطرت على بالى فكرة ، يا لها من فكرة .. وكنت قد تابعت فى الصحف والمجلات - « ضجة وفاة الأدبية اللامعة مى زيادة » - وانهمار أعمدة الصحف والمجلات برثائها ونشر القصائد عنها .. الكل يبكى ، والكل يرثى ، بل والتنافس هائل على نشر ما لم ينشر من مخطوطات قلمها .. حسناء الصالون الأدبى وفريدته الاعجوبة ذات الفتنة والبهاء والجمال ، وأسلوبها العصرى المتحرر النشوان .. ومنذ زمان يدهشنى ويأخذ بلبى أن تكون لغادة ناعمة حسناء مثلها هذا الحسن والنعموة فى الفكر والأسلوب أيضًا !.. هل يكتب لها أحد ؟ .. جبران مثلاً ؟ .. أو مطران مثلاً ؟ .. أو هؤلاء العديدون من عشاقها ومريديها ؟ .. العقاد ، وطه حسين ، وشوقى ، وحافظ ، والبشرى ، ولطفى السيد .. كل أدباء مصر .. بل كل أدباء العروبة وشهرة صالونها القاهرى ذاعت فى كل الآفاق ، وعجيبى فلا فضائح من حولها ولا اشاعات ، فهى لوحة الحب والصفاء والجمال الممنوحة للجميع .. يؤثر فى نفسى لوعة هذا الندب والحويل على فقديها ، فهل عقلت الدنيا ولم يعد يعوضها أحد ؟

قفزت الفكرة الغريبة إلى ذهنى .. « مارى » قريبتها ، أو كما تقول

فلماذا لا تكون هي « مى الجديدة » ؟ .. مى التى تحاول أن تعود ،
وأنا من خلف الستار أنفخ فى عبقها فلعله ينتشر ويفوح .. نعم فرصة
هذا الرنين من رثاء اسم مى الغائب ، أن أقترح به اسم مى الحاضر
والموجود .. ولم أتردد ..

وذات ليلة فى قمر جنيقة والكل نيام .. أمسكت ورقة وقلما ، وكتبت
خطابا للأستاذ « محمد التابعى » - صاحب وأشهر وأروج مجلة
أسبوعية فى الشرق العربى كله - « آخر ساعة » - أقدم له نفسى
فأنا فتاة اسمها « مارى » قريية للراحلة الكبيرة « مى زيادة » ، ومنها
تسرب حب الأدب والكتابة إلى نفسى - وإليكم « قصة قصيرة » من
أفكار بنات الجيل الجديد ، فأنا جامعية فى الثانية والعشرين ومن أسرة
تقليدية محافظة تحظر على بناتها العمل والظهور ، ومن أجل هذا أرجو
الموافقة على أن أتخذ توقيعًا مستعارًا أداوم الكتابة به لكم هو « مى
الصغيرة » - هذا إذا راق لكم نشر ما أرفقه ، وعندى من نوعه
الكثير سوف أتشجع وأرسله إذا شجعنى سرعة نشركم القصة
المرفقة .. وتفضلوا .. !

كتبت الخطاب يومها .. طويت أول قصة وضعتها فى ظرف أنيق ..
الصقت طابع بريد بقرش صاغ .. كتبت عنوان آخر ساعة بعمارة
بحرى ميدان الاسماعيليه - وألقيته فى صندوق البريد !
نفذت تلك الفكرة قبل عودتى للقاهرة بأيام ، وتوقعى إذا قدر لها
أن تنشر أن يكون هذا أثناء وجودى مع مارى لكن توقعى كان يائسا
وضعيفا ، فقد اعتبرت أن خيالى إنما يهذى ويخلق فى هيمانات بعيدة
التحقيق .. بل يائسة التحقيق !

.....

أنا عائد للقاهرة بعد غياب سبعة أشهر ..
فى جيبى « مائة جنيه » .. حقائبى مازالت فى « بنسيون فيوليت »

عند « مدام آدمة » .. وهذه الفتاة « بياتريس » مصممة ومتشبهة أن
أفرجها الليلة على معالم القاهرة !.. وعندما أصل بها إلى مقر إقامتها
سوف أعطيها الميعاد أمام « سينما ديانا » التي تعرفها - وفي نيتي إذا
وجدت مارى وحتما سوف أجدها .. فمع السلامه بياتريس أو حتى
اليزابيث الملكة نفسها !

« الأسوار » _____

القاهرة ٤٢ - ٤٣

أنا عائد بعد سبعة أشهر غياب وعذاب ، من لفافة الرمال الخشنة
في صحارى السويس ، والتي اسمها « جنيقة » .. شارع الفجالة
ودموعى تطفر حرمانا ، وينسيون فيوليت يا خفق القلب .. ومدام
آدمة كيف بالله سوف تستقبلنى ؟!

في جيبي مائة جنيه وأكثر ، من مرتباتى التى لم أكن أصرفها فأين
أصرفها في عراء جنيقة .. لهفتى حارقة إلى أشياء عديدة ، أهمها ورغم
كل شيء أن أرى مارى ، أستعيد مارى .. لا فائدة ولا جدوى من
أى هرب - فهذه الفتاة هى قدرى الواقف يمنع أى مرور ..
صدمتنى مدام آدمة بجفوة استقبلها .. لم تنس ولن تنسى منظرى
وأنا أقول أمامها : هأنذا خارج لأحضر المأذون ليزوجنى مارى
فورا .. خرجت من يومها وها أنا عائد بعد سبعة أشهر فماذا كنت
أنتظر منها ؟ .. بادرتنى بأن غرفتى مشغولة ، وكل الغرفات مشغولة ،
وعغشى ها هو فى غرفة السفرجى « عرفان » .. قالت هذا خاسمة
وباترة لأى كلام قد أقوله ، بل استدارت بظهرها تنادى عرفان
ليصرف معى !

صدمتنى وجرحت مشاعرى .. وفكرت أن أغضب وأن أثور

فما هكذا يتعامل البشر المهذبون ؟ .. ولكن لماذا ضياع الوقت ، فماذا عاد بهم بنسيون فيوليت هذا بشكله الراكد ووجوهه القاتمة ، وعيني منذ زمان على « بنسيون كنج فيليب » !.. في أحلى عمارات شارع الفجالة ، عمارة « الخواجة قرصاتي » ، وصاحبته العجوز العرجاء « مدام موريس » ، والغرفة فيه بثلاثة جنيهاً في الشهر وبوسعى أن أستأجر أسبوعاً .

وطرقت الباب على بنسيون مدام موريس .. استقبلتني للوهلة الأولى في تأفف من منظري المشعث المترب وعفشي الغريب الصادئ - ولكنها عندما تذكرتني فتحت لي ورحبت !

« مدام موريس » أرملة حاجب سابق كان لامعا في المحكمة المختلطة .. محكمة الامتيازات الأجنبية والقتل للمصريين مجانا أحيانا !.. وهي قزمية مالطية معوجة الملامح ، وتمشي دائما على عكازين فساقها وذراعها مشلولتان .. وذات مرة كنت أعبر الشارع ورأيت بعض الصبية الأشقياء يخطفون عكازها .. ووقفت مسكينة حائرة ، فتطوعت أن أكون عكازاً لها حتى أوصلها إلى باب البنسيون ، والذي دعتنى يومها إلى دخوله ، فبهرتني غرفاته وأناقة أثاثه وهذا الهدوء الغامر الذي يكسوه .. تذكرتني وعرفتني ، فقد أطلت الكلام معها يومها ، وقرأت لي عن مستقبل في الفنجال .. ولكنها هذه المرة ، وأنا أخرج لها ورقة من فئة خمسة جنيهاً ، صممت أن لا إيجار عندها بالأسبوع بل بالشهر كاملاً !.. دفعت لها الجنيهاً الثلاثة بلا تردد ، واختارت لي حجرة تطل شرفتها على كل شارع الفجالة .

خرجت .. صرفت خمسة عشر جنيهاً كاملة فما المانع .. مشتريات سريعة من ثياب ، وقمصان ، وبدل جاهزة ، وما أشتهى من احتياجات وأناقات ، وحتى الكولونيا وبريتين الشعر . أخذت حماماً طويلاً جيداً ، فهنا الماء الساخن من الحنفيات وليس

بمثل وابور جاز مدام آدمة .. استرخيت على السرير السفنج بعض الوقت أرتب أفكاري ، أحاول أن أرتب أفكاري .. وماذا عن أفكاري وخططي كلها إلا أن أقابل ماري .. أذهب إلى شقة « الخالة زاهية في شرم الفجالة » فهي التي بوسعها أن تحضر ماري ، بل قلبي يتحدثني سوف أجدها عندها الآن ؟!

.....

فوجدت « زاهية » برؤيتي وأخذتها الدهشة برهة من فخارة منظرى .. كانت وحيدة مع القطة والابرة والفلة والملاهيل وعفونة الروائح .. المنظر وكما تركته لم يتغير .. الكنية المتهدلة المرقعة ، والمقاعد المكسورة ، وشظايا من قش وقشر وخشب ومزق ، ثم مرتبة النوم المطوية دائما على البلاط !
أحاول بمجرد دخولي أن أستنشق عبير ماري ، فكم يتحول هذا المكان الحضيضي إلى وهج وعطر ومهرجان عندما تكون ماري في أحضاني !

زاهية على منظرى في دهشة وبلادة ، ثم لم تلبث أن انفجرت ملاحظها ولاكت لسانها ، عندما رأتني أخرج رزمة الخمسات وأخذ منها واحدة أضعها في يدها .. وهيا هيا يا خالة زاهية وجهزي ما تقدرى لنا من مشويات ومشهيات وكل الطازج والحريف من سوق شرم الفجالة !.. تناولت المرأة الورقة منى في وثب وحيوية ، ولكن لم تلبث بعد لحظات أن هبطت وترددت فهل أنا وحدي أم أنتظر واحدة ؟ .. واحدة ؟ .. من غير ماري أيتها الخالة زاهية ؟ .. وعليك من أجل هذا أولا وقبل كل شيء أن تخطفي رجلك إلى شقتها - طبعا مازالت فيها ؟ .. أومأت براسها في وجوم أن نعم .. حسنا .. دفعته حانيا نحو الباب وأنا أوصل تعليماتي .. ثم همست في أذنها عن وجودي الآن عندك ، ولتحضر فوراً فلها عندي هدايا كثيرة وأخبار أكثر .

زاهية نكست رأسها برهة قبل أن تسألنى ، فهى لم أعرف أن مودومازيل مارى خطبت وزفافها بعد شهر ؟ .. يوزباشى فى سلاح الفرسان اسمه « رؤوف » ؟!

تساندت ألتقى الصدمة المدوخة والتي أبدا لم أتوقعها !.. مارى مخطوبة وزفافها بعد شهر ؟ .. رؤوف .. من رؤوف ؟ .. ومتى ظهر ، وكيف ظهر ؟ .. استعدتها مرة أخرى بل استعدتها عدة مرات .. لا فائدة ولا جدوى فالأمر حقيقى وها هى صورة العريس بدأ يوزعها على أفراد الأسرة - وعند زاهية واحدة كارت بوستال - وجه وسيم متألق ، وفيه ما يشبه البله ، و ضيق العينين جدا ، ولكنه يتوهج فى ثيابه العسكرية وندشة الفرسان على كتفيه العريضين .. كيف وجدته ؟ .. كيف وجدها ؟ .. وأنا ؟ .. يا إلهى رحماك - بوابة جحيم جديدة تفتتح أمامى !!

جلست منهاراً أخذ رأسى بين يدى فى وجوم ضاغط ذاهل .. أحملى حولى ولا أتكلم .. والمرأة حائرة تلف ورقة الخمسة على أصابع يدها وتتردد أن تعيدها لى .. بقيت واقفة تنتظر وقد ألجمها منظرى البائس .. أشفقت على منظرى البائس .. صنعت لى قهوة .. شربتها بعد أن بردت !.. المرأة تحاول أن تكلمنى لتسرى عنى وأنا لا أسمعها ، لا أعى ولا أسمعها .. اسم رؤوف يحز فى رقبتي كالسيف .. اسم مارى تلايف ثعبان فى حلقى .. تحكى عن عربة رؤوف الفزدقية ، والقصر الريفى الذى أخذهم إليه ذات نهار فى « الفيوم » .. أنه من « عرب الفيوم » ، وصدقتى ، مارى وهذا هو حظها ، ولكنها لا تحبه .. مارى لا تحب أحدا ولن تحب أحدا ، وإذا راق لها يوما أن تكون قد أحبت فهو أنت .. لقد رأيت هذا بعينى فيها هنا .. وهى تسند رأسها على صدرك وكأنك بيتها المختار !

أحملى فى زاهية ونظرتى باهتة وبلهاء .. قلت وأنا أخرج الكلام

حشرجة من فمى - ما رأيك أن تذهبي رغم هذا وتبلغيني عن وجودي ؟ .. هزت رأسها في إصرار بما يعنى أن لا فائدة .. توسلت إليها أن تحاول .. ألححت واستعطففت أن تحاول .. لها ورقة الخمسة تلك كاملة إذا تمكنت من إحضارها إلى هنا .. قولى لها أننى غير موجود .. افعللى أى حيلة .. تنمرت نظرات المرأة على الورقة .. دستها في صدرها ، ثم خرجت !

.....

بقيت فى الانتظار طويلاً حتى عادت بوجه يحمل الحسرة وخيبة الأمل .. وضعت ورقة الخمسة أمامى ، وفى صوت جامد غامض قالت إنها لم تجدها !.. لم أصدقها فماذا حدث ؟ .. ألححت أن تقول لى حقيقة كل ما حدث ، فانهمرت دموعها فجأة ، وحكت لى عن المهانة التى تعرضت لها بسببى .. لقد ضربتها الست ودبعة - أم مارى - بالشبشب ، وقذفنها بالطبق ، وطردها على السلام أمام كل السكان .. ومارى هى السبب ، فبمجرد أن سمعت اسمك وسيرتك ، وأنا أهس لها عن ظهورك ، جنت وصرخت وانفجرت وقالت كلاماً وسباباً كثيراً !.. صممت أن أسمع .. استعطففتها أن تقول كل شيء !.. تقول أنك جبان وحقير وناقص رجولة وحادار أن تقترب منها وإلا قضى عليك خطيبها الظابط الخطير ، وعيب عليك يا فلاح يا تافه أن تفكر فى بنت ناس أصبحت مخطوبة وزفافها بعد شهر !.. بنت ناس ؟!!

المرأة زاهية - وبعد أن طالت جلستنا الساكنة الكئيبة - أغراها هدوئى البادى فعادت تنظر إلى ورقة الخمسة الطريحة على الكرسي وتساأنى - هل لك رغبة أن أصنع لك أكلاً أو أحضر مشروباً ؟ .. ابتسمت - ضحكت .. قمت واقفاً أتمطع وأفرك يدى وعينى تستعرض المكان .. وكر العشق ومأوى حار الذكريات !.. وخطر على بالى خاطر أهب منى الخيال .. هذا المكان ؟!! وكما قالت - بنت الناس -

لا يخفى فيه سرا ، فلماذا لا أصنع له سرا سريعا يطفئ الغلة
مما أنا فيه !

قلت للخالة زاهية - وقد بدا لها أن معجزة قد أفاقنتى من أزمى -
أن هذه الخمسة لتكون لها إذا عدت بعد ساعة ووجدت هذا المكان
مرتبا ونظيفا ولانقا ، فسوف يكون معى ضيوف !
كانت الساعة الثامنة وميعادى مع « المجندة السكسونية بياتريس »
فى التاسعة !

.....

وجدت بياتريس واقفة أمام سينما ديانا .. خلعت ثيابها العسكرية -
وتلك منها مخالفة خطيرة - وغامرت من أجلى - كما قالت - بهذا
الفسان الأزرق الخلاب !.. « بياتريس » المسكينة لا تدرى أنها
فقدت ثلاثة أرباع إغرائها من خلع الملابس العسكرية .. بدت نحيلة
عجفاء كمود القصب الأبيض الداوى !

« بياتريس » لطخت وجهها أيضا بالبودرة والألوان ، فهل ينقصها
ألوان ؟ .. ويا غرابة حواء - سواء هنا أو هناك - فهى تذكرنى الآن
بخدمات الفجالة وهن يتعثرن فى أردية الغائيات وألوان الصائدات ..
تمسنا .. ذراعها فى ذراعى ، جذلة ومنتعشة وطروب . أنها فى لهفة إلى
غوامض الشرق ومغامرات تلهب الخيال .. تحدثنى مرة أخرى عن
وحدتها الرهيبة فى هذه الحياة .. خريجة الملجأ ، التى لا تعرف لها
أبا أو أما أو خلا .. وماذا بعد أن تنتهى الحرب وتعود ؟ .. إلى من
تعود ، وبماذا سوف تعود ، الا بخفق ذكريات شرقية حارة مثل تلك
التي هى فيها الآن ؟ .. كم تمنى - وليحدث ما يحدث - لو تكبر
بطنها على فرعون صغير له مثل تلك السمرة والعراقة والكبرياء !
بياتريس البائسة يتهور خيالها ، ويجمع ويتجرأ ، فهل تدرى عن
اعصار الصقيع الذى أنا فيه الآن ؟ .. أنا فرعون مسلوب الروح ،

وأشهى معها بجسد محنط خاو من الاحشاء وكل الأعضاء .. كم أصبحت أكره النساء .. كل النساء .. يقولون ضعيفات واهنات ، فمن أين لهن إذن تلك القدرة المخفية المخيفة المدمرة التى تمضغنى الآن تحت أسنان هذه المخلوقة مارى ؟ .. الأنتى الصغيرة الضئيلة مارى .. الستين كيلو من هش اللحم والجلد والعظم مارى !

.....

« بياتريس » متلهلة وموافقة على أى شىء وأى مكان وأنا أدخل بها مستهترا مخبولا وبلا مبالاة ، إلى مستنقع هذا السوق من بركة شرم الفجالة ، ثم إلى الشقة القمامة .. لم تستنكر الفتاة ضعة المكان وحقارة الأثاث ، بل ألهب خيالها وهام بها افتتاناً وحماساً - وكأنها فى لفافة من سراديب ليالى الشرق وألف ليلة .. هللت وانتشت .. خلعت حذاءها وفكت أزرارها ، وطرحت نفسها أرضاً كمن تريد تقول : شبيك لبيك يا فرعونى الصغير عبدتك بياتريس بين يديك !

وبعد وقت لم يطل .. كانت المائدة قد امتدت ، والمرتبعة المفروشة قد سويت ، والأقداح والروؤوس قد تطوحت ، والحالة زاهية قد انصرفت - وتعالى أنت يا هذه الإنجليزية البيضاء الشقراء لأذل فيك كل الشقر والبيض من هذه الدنيا !

تمضى ساعة .. وساعة أخرى .. بياتريس بجوارى خادمة هامة تتنفس رجفة النشوات . منظرى الدميم البذى بجوارها ، ولا شىء إلا أننى بت قمامة من هشيم بشر يحتاج إلى مكسنة !

لا أعرف كم مضى من الوقت حتى سمعت الطرق على الباب .. قمت خاملاً مترنحاً ، فلا بد وأن زاهية قد عادت .. أفتح الباب ومنظرى فاضح مشعث .. ارتد إلى الخلف فوراً فيا للمفاجأة ، يا سريع المفاجأة .. من ؟ .. من ؟ .. انها مارى !!

.....

« مارى » واقفة جاحظة العينين على ما ترى ، فقد انفتح الباب

على المصراعين ونظراتها مسددة كطلقات الرصاص على الطريحة الصريحة بياتريس !

فجأة - هوت على وجهي بصفعة قوية .. رددتها لها فوراً في صفتين أقوى وأشد .. ونشبت بيننا معركة هوجاء ، تمزقت فيها الثياب ، وحفرت بالأظافر على الجلد ، والأصابع المتشنجة تشد الشعر من الجذور - بينما « بياتريس » تجمع ثيابها مهرولة وتمرق من الباب فارة مرتعة مذعورة !

بقينا - أنا ومارى - طريحين لاهثين .. هى منهارة على الأرض وتستند بظهرها على الجدار ، وأنا جالس مشرب ومرتعش بجوار الجدار الآخر .. نتبادل نظرات كراهية نارية محمومة .. ثم رأيتها فجأة تمد يدها نحو حقيبتها الملقاة بجوارها لتخرج منها لفافة « مجلة » ألقتها فى وجهي بكل قواها وهى تصرخ - ولماذا بعد أن تركنتى تتجراً فتستعمل اسمى ؟

رمقت عيني لفافة المجلة التى سقطت بجوارى .. إنها مجلة « آخر ساعة » فماذا تقصد ؟ .. أستعمل اسمها فماذا تقصد ؟ .. ما هذا وماذا بتلك المجلة ؟ .. ارتج صدرى بطريقة زلزال فى الطريق وأنا أفر الصفحات .. أقرأ الصفحات وأتوقف عند الصفحة ٢٤ .. ويا إلهى فما هذا ؟ .. العنوان ، والاسم تحت العنوان ، بالبخط الكبير ، والصفحتان ٢٥ و٢٦ كلها والتوقيع أيضاً فى النهاية .. قصتى !.. أول قصة !.. « يوميات مهاجرة » !.. « قلبى فى يدي » !.. قصة بقلم مى الصغيرة !.. يا له من دوار هائل قد أمسكنى .. الرعدة قد تملكنتى والتيار الساخن يسرى بل يغلى فى عروقى .. يتلاشى كل شىء من أمامى .. لا أرى مارى ، ولا بياتريس ، ولا زاهية ، ولا الفجالة ، ولا جنيفة الانجليز ، ولا أى معالم !.. قصتى منشورة بالكامل !.. مى الصغيرة ولدت !.. أقرؤها .. كيف أقدر أن أقرأ والفقرات ترقص وتقفز من عيني إلى انفجار النشوة الهائل الذى انتشر هادراً فى

وجداني !.. أعود وأفر الصفحات .. كل الأعلام من كتاب مصر
وأستاذة مصر لهم هنا أساء وصور وعناوين وكاريكاتير .. مقال التابعى
وله بنط الاسم بمثل مى الصغيرة ، وريشة صاروخان ترسم مشهدا من
قصتى !.. أراهن بل أكاد أصرخ فى جنون بأن عدد آخر ساعة هذه
المرّة ، وأهم مادة فيه هى تلك القصة لمى الصغيرة .. أتحدى ما سوف
تحدثه تلك القصة من طنين ؟ .. وتساؤل منذ متى وزع هذا العدد ؟ ..
تاريخه ٢٥ مايو ، ويا إلهى فأنا أعيش الآن فى ٢٥ مايو فكيف
نسيت ؟!

مارى تراقب ما اعترانى فى دهشة وتساؤل .. تبرق عينها فتزحف
تقترب منى .. تلمس ذراعى .. تلتصق بى .. تسند ظهرها على
صدرى .. تموء كقطعة جريحة تبحث عن دفء بيتها .. أنا لا أراها
ولا أحسها ، بل أنا ذاهل وهائم ومأخوذ ، وأرفع المجلة بذراعى ..
وكأننى احتضن حبيبى الجديدة ، الرائعة التى تطل على الآن من ثقب
الأسوار الغليظة تنادىنى أن أقوم وأهرع مسرعًا إليها فقد أصبحت
حقيقة ووجودًا !

ولقد وقفت حقا كمن ألبى النداء فورًا .. تركت رأس مارى يقع ..
وأخذت أرتدى ثيابى فى هدوء غامض مسلوب .. لم أتعجل . ولكن لم
أتكلم أيضًا .. قضيت فى ربط خيوط الحذاء عشر دقائق مثلا !..
سرحتى غريبة ومريبة فى أنى قد أكون شفيت من مارى فجأة .. حمى
وادمان مارى ، والاعصار ينحسر فجأة .. يسرى فى بدنى إحساس
الثقة والغبطة - وكأننى أولف رواية من لحم ودم وقد قررت الاستدارة
بأحداثها فجأة .. تجربة مارى الرهبة يا إلهى فقد تكون انتهت ..
يسقط الستار منها أمامى الآن على آخر فصل من أول مسرح أدخله فى
هذه الحياة .. وهذا أنا الآن جاهز فورًا لأقطع تذكرة جديدة فى مسرح
جديد من فصول هذه الحياة !

« ماري » جاحظة العينين على منظري في استغراب وتحد .
لا تتكلم ، ولكنها تشعر أن حدثا غريبا قد شدى بعيدا عنها فجأة .. لم
أهتم .. كنت شاردة جدا بل بعيدا جدا .. أنتهى وأفتح الباب لأنصرف
والمجلة فى يدي ، ولكنها تستوقفنى فى زججرة صيحة تطلب أن أترك
المجلة فهى صاحبها .. المجلة فى يدي ومفتوحة على الصفحة ٢٤ ..
أغلقتها ساكنا ، ووضعتها على المقعد فى أدب وهدهوء ، ثم فتحت الباب
وانصرفت !

.....

أنا عائد فى تاكسى من مصر الجديدة والساعة الآن الواحدة
صباحا .. رأسى ثقيل ومتطوح فقد شربت كثيرا وشبعت زهوا
وسعادة .. كنت عند صديقى « نجيب » .. منذ الضحى عند نجيب ..
فقد استيقظت فى الصباح وأول شىء فعلته هو كتابة قصة جديدة
لآخر ساعة - وتحت العنوان وبالخط الواثق « بقلم مى الصغيرة » ..
ثم قصة أخرى لمجلة جديدة اسمها « كلام الناس » ، وقد أغراني
فيها اسم وبريق محررها البازغ « مأمون الشناوى » ، وقد أرفقتها
بخطاب له شبيه بخطاب التابعى .. وبطريقة طابع القرش صاغ ،
وضعتها فى صندوق البريد ، وركبت المترو إلى مصر الجديدة !
« مى الصغيرة » هى سرى الحافل الجديد ، ولسوف أتكتمه عن
الجميع ، حتى عن صديقى نجيب .. فخيالى مندلع وجامح ومتلاطم ،
ويعوم فى بحر من الأساطير ، ويرسم غرائب الأشكال والتوقعات
لحبيبتى الباهرة المظلة من بصيص الأسوار !

ولقد كانت قصة آخر ساعة المنشورة تلك - وبكل الحرص منى -
فما تحدثنى عنها إلا استدراجات للاختبار ، هى نجمة السهرة عند
نجيب وأصحاب نجيب .. كلهم مثقفون وقراء صحف ومجلات .. من
قرأها استدرجته أن يتحدث عنها ، ومن لم يقرأها اجتذبه لقراءتها -
فقد كان الإغراء لها أن القصة غير تقليدية وصریحة وجريئة ، وكاتبها

المقنعة تحاول أن تمنح الرجال الكثير الوافر من أسرار الأنثى .. ولقد أحسست بالرعب من معركة التنافس والتساؤل بينهم على من يقرأ أولاً ومن يعلق أولاً !! فمن تكون هذه الكاتبة ؟!.. هل نشر لها من قبل ؟!.. هل هي عشيقة جديدة للتابعي ؟!.. وهل هي جميلة وحسنة أم خنفسارية ودميمة ؟!.. أم ترى تكون رجلاً ويخدعنا ؟!.. يا إلهي وهذا كثير على مشاعري ، فهل أفشى لهم سرى ؟ .. لا .. لا .. وساعدني يا رباه !

.....

عجيبة أن أنسى ماري هكذا .. لا أصدق نفسي فلا بد أن نفسي تخدعني - فأنها لم تخطر على بالي طيلة جلوسى ومرحى مع نجيب وأصدقائه .. بل لقد تطرفت في مشاغبة مشاعري وتحديها ، فقضيت بعض الوقت مع التليفون أبحث لعلنى أعثر على المظلومة « بياتريس » لأسترضيها عن أحداث ليلة أمس !

.....

دخلت « بنسيون كنج فيليب » لأجد الردهة مضيئة ، والسفرجى « زيتون » واقف وأمامه تجلس الست وديعة والست زاهية في انتظاري ومنظرها متهيج !.. وقد قفزت نحوى بمجرد أن رأتانى فأين ماري ، وهل كانت معك ؟

وفوجئت بالحكاية العجيبة !.. ماري ومنذ ليلة أمس لم تعد .. اختفت !.. دهشت وانكمش دمي لحظة خاطفة ، ثم تمالك نفسي وأكدت لهما كل خطواتي ومعلوماتي وفي صدق هادئ متزن أحسنا به فوراً !.. وبدأ التساؤل في قلق فأين ذهبت إذن ؟ أدهشها برودي وتعجبا من قلة حماسي ، بل استفز هذا الهدوء والبرود غضب ست وديعة ، فعلا صوتها يحذرنى من أكون قد أخفيت أو سوف أخفى ما قد أعلمه من أمور ماري ، فإن خطيبها رؤوف يقرب الدنيا بحثاً عنها منذ طلعة النهار ومسدسه مفتوح في يده .. وأول الشك له في غريمه السابق

الذى هو أنت ، فخذ الحرص لنفسك منه وأبلغنى بأى شىء تعرفه
أو قد تعرفه .. بل ساعدنا فى سرعة إيجادها ، فهو مجنون وابن أكابر
عرب الفيوم .. صحت فيها زاعقا بأن لا شأن لى ، وأننى لا أخاف
رؤوف هذا ولا أعظم منه .. تراجعنا من أمامى مهرولتين نحو الباب
فقد كانت غضبى عنيفة وضارية .. وعندما أغلق الباب ، تحرك
« زيتون » من خلفهما وأكمل الغلق بالترباس .. ثم نظر نحوى
بحنان ، ورجانى أن آخذ الحرص على حياقى من هذا العاشق
المجنون ، بل أحسن أن أبلغ البوليس فالمسدسات فى اليد تقتل طبعاً !
مسدس ؟ قتل ؟ .. يا إلهى ، هل لم تنته معركة مارى ؟!

« جنون القمر »

استيقظت في الصباح على طرق الباب ، ووجه مدام موريس بعكازها ، ثم اغلاقها الباب بهدوء ، ودعوتى أن أجلس بجوارها على الكنبه الأستديو !.. نهضت سريعا فقد - كان صوتها ودودا طيبا غريبا ! .. فتحت لى كف يدها تبرز الجنيهات الثلاثة التى دفعتها ايجاراً لغرفتي هذه .. وصارحتنى فورا فيحسن أن أبحث عن أى بنسيون ، بل أحسن أن أكون الليلة في مكان آخر غير القاهرة كلها ! « زيتون السفرجى » حكى لها ما حدث ليلة أمس عندما كانت نائمة .. المرأتان المولولتان ، والفتاة الهاربة ، والضابط الفيومى والمسندس المفتوح فى يده ! .. رددت مطلبها ونظراتها نحوى عاطفية ومشفقة كمن تتصورنى قتيلا أمامها .. كان النوم مازال يرفرف فى عيني فلم أعرف ماذا أرد عليها إلا أن أحلق فيها ساكناً مستغربا وقد تملكنى الحياء من عملية الطرد الصريحة تلك .. وفى نبرة عطوفة يا شدة ما تهزمنى فورا فأتهاوى ، فأنا فى حرمان شاسع وهائل من الأمومة والأبوة والأخوة والعائلية منذ توغلت مقتنحا هذه الأدغال الوحشية لتلك القاهرة .. تهاويت أمام الأم موريس .. صارحتها بأننى لم أنم حقا طيلة الليل ، إلا قبل دقائق من دخولها .. هناك أشياء حائرة وعويصة

كثيرة في حياتي يا أم موريس .. تقلقني وتؤرقني وتقض مضجعي حقا ولكن واقه العظيم وأقسم لك ليس منها حكاية هذا الضابط الفيومي بمسدسه المفتوح !.. حكيت لها .. حكيت ما قدرت عن ماري ، وعن أمها ، وخالتها ، وأخوتها ، وبنت عمتها ، وكل هذه القبيلة التي مرقت من أسرها فجأة منذ ليلة واحدة فقط .. صدقيني يا أم موريس . ومنذ ليلة واحدة فقط انتقلت إلى أسر أكبر لا أعرف كيف أصفه وأفسره لك .. صراع أهم وأكبر وأخطر عن المستقبل والمصير والحياة ! قاطعتني فلم تفهم أى شيء مما قلت إلا أن حياتي تلك التي أتكلم عن مستقبلها ومصيرها مهددة بالتوقف الآن في أى لحظة بمسدس مفتوح !.. أنصت إلى نصائحها راضخا ساكتا راضيا ، والواقع أنني وقبل أن أنام - كنت قد حسمت تفكيرى على قرار - هو العودة السريعة إلى قمر جنيفة في ليالى صحراء السويس ! .. قمر جنيفة وعندى له مفاجأة مناجاة .. لهفة نشوة ومناجاة .. هذا الحلم القديم الطويل السارى منذ الصبا والذي قفز فجأة ليفتح بابه على المصراعين !

.....

.....

أنا في « جنيفة السويس » وقد مضت الآن تسعة أسابيع - ومن بعيد ، من عند قمر جنيفة ، هذا أنا أحرك لعبة عرائسى الرائجة النشوانة ، والتي اسمها « القصصية مى الصغيرة » ! .. كبر حجمها وسرى صيتها ، وبأيتنى طينيتها المسترسل على جناح البريد من قاهرتى الطبقيه المتكبرة المحتكرة !.. « آخر ساعة » نشرت ، للكاتبه مى الصغيرة قصتها الثانية والثالثة والرابعة ، وكل ما أرسله لها من هناء .. بل أنها أخذت تتسلل به إلى الصفحات الهامة وتنبه عن عطرها الفواح في أرجاء كل عدد !.. مجلة « كلام الناس » ويا شدة ما تكهربت

نظراتى عندما قرأت برواز المقدمة بتوقيع « رئيس تحريرها مأمون الشناوى » وهو ينشر أول قصة عنده ويقول : « سواء كانت هذه القصة بقلم فتاة أو امرأة أو رجل أو أى سنكوح فهو أسلوب كتابة جديد يستوقف النظر ويستحق النشر ! .. » مجلة الاثنين - كبرى مجلات دار الهلال ، والتي قفز بها « مصطفى وعلى أمين » إلى أكبر توزيع - هاهى فى الصفحة الوسطى ، أهم منطقة فى المجلات .. « قلم مى الصغيرة يقتحم المعركة ضد أعداء المرأة الثلاثة توفيق الحكيم ، وتيمور ، وعلى أمين » .. مقال العدد الهام وأسلوب الأنتى العصرى الشهى يسيل اللعاب على صفحتين ، وكلمة أستاذة - كتقايلد دار الهلال - تسبق اسم « مى الصغيرة » !

هكذا أعيش مع قمر جنيفة فى حالة جنون .. هذيان وجنون .. استلمتنى الرعشة المتواصلة من حمى القمر حتى ولو كان محاقا فى جوف الظلام .. حمى القمر أو جنون القمر - تعبير ريفى من قريتي لا أنساه منذ وأنا صبي حالم نائم على سطح البيت أحلق شرها فى اكتمال البدر .. نهتئى أمدى عن ذلك التحديق وإلا غطست فى بحره الفضى مع جنياته الساحرات فيمسسن عقلك وينفخن فى عينيك هواء الجنون !.. هذا أنا وقمر جنيفة فى حالة جنون .. أهيم معه وأحلق حواليه بل أسبح فى بحاره - ويا ملك الالهام أين تضعنى الآن من تلاميذك ومريدك ؟ .. هذا أنا أحوم فى فلكك ، مغامرا فى فلكك ، مركبتى من ورق نعم . ولكنها من نسيج شعاعاتك التى لا تبلى .. زيوته خدعة بيضاء .. نعم .. شريفة بيضاء نعم ، ولكنها تحاول احتواء المسافات البعيدة من رحلة العمر القصير .. ويوما ما سوف تهبط وتستقر وتهذب وتستغفر !

هكذا أنا وقمر جنيفة فى حملقات الجنون .. أرتب على سطحه قوافل الأساطير ، بل أحدها وأضع لها الأماكن والمواعيد .. وكل يوم لى

البريد الذى أوزعه من هنا - وفى تخطيط لا قاط حريص - على عديد الأجنحة الصحفية ! .. والمثير والملهب أن كل شيء أرسله بات ينشر فور وصوله .. خطئى أن أكبح جماح نفسى وأتأسك فأستمر محتفيا متواريا سنتين بل ثلاث ، حتى ينضج الاسم فى عيون القراء فيطلبون من الطابيح المزيد ! .. ويا خبل خيالى حينما كانت تهيم بى المشاعر فى آفاقها السارحة فأتصور أن تلك الفتاة التى يكبر حجمها الآن ، التى أحس أنها باتت موجودة فعلا ، قد تنكرنى حينما يأتى الوقت الذى يتحتم أن تنسحب لأخذ مكانها !

.....

أشهر جنيقة الصاخبة العجيبة التى أقضيها تلك ، وإحساسى أنها « قلابة حفر » تجرف فى أعماقى وتبحث عن غائر المناجم والينابيع .. هذا المجتمع الذى أنا فى لفافته ؟ .. الانجليز ذوو الصيت وأسياد الحضارة وملاك العالم ؟ .. ها هم معى والسلة واحدة ! ومنذ الصغر كان يقرصنى هذا الشعار الذى أطلقه « الشاعر الأوربى » كييلنج « فأصبح وثيقة كونية . الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .. يقرصنى ويستفزنى ويستحثنى فأرفع رأسى مستفسرا السماء ، بل غاضبا مستغربا فهل نحن غرب وشرق إلا بشر من نقطة أب واحد ؟

ها هم الانجليز عمارة هذا الغرب بل أفذاذه .. فرصة أن أراهم وأتأملهم وأعاشرهم بل أغوص فيهم .. ومنذ الصغر أيضا ، كان من أحلامى البائسة المستطيرة لو كان أبى باشا أو غنيا فيرسلنى لأتعلم فى مدارس بلاد الانجليز .. أجرب الرضاع من طاقاتهم القادرة تلك ، وأتغذى من هواء هذا التفوق الذى يخنلون به على هامات كل البشر .. حرياتهم التى يجدونها ويحتكرون امتيازاتها لأنفسهم ؟ .. ثروات عقولهم التى يتفاخرون بها فى الأدب والروايات والأفلام ؟ ..

يا شدة ما ألهبني هذا الأدب الإنجليزي والشعر الإنجليزي ، وأيضاً هذا الزهو الفرنسي والألماني والروسي والأسباني والإيطالي .. أدب يتعالى ويتعاطى مع نفسه فقط وكأنما العالم من خلف أوروبا مجاهل وأحراش ومستنقعات ! .. أوروبا تلك القارة الجليدية الصغيرة ، كيف هي سكببية الحضارة الآن ؟ . من فعل بها هذا ؟ هل لأنها زرعة الرجل الأبيض فقط ؟ .. ولماذا لم يكونوا هكذا حينما سطعت حضارة الرجل الأسمر هنا عندنا منذ خمسة آلاف عام ؟ .. هذا أنا وجهها لوجه أمام شريحة هامة من لحم وعقل وبيت المتحضرين الإنجليز !.. لندن كلها هنا .. همبشاير ، وبوركشير ، ومانشستر ، والوست آند ، والايست آند ، والبكاديللي ، والهايدبارك ، والباكنجهام ، لا مكياج ولا أقنعة ولا أغلفة .. أولاد لوردات وأولاد صعاليك .. النبلاء والسفلة والشذذ .. الطبيعويون والعقلاء والبلهاء .. وأنا في الشرفة عليهم أتفرج وأتملى وأقتبس وأتأمل وأفكر .. متغطرسون وعنصريون ومتعالون علينا طبعاً - ولكن يا شدة غيرتى من مستواهم الراقى بين أنفسهم .. احترام الإنسان هو بعد الله إيمان وعبادة !

.....

ومنذ أيام كانت لى مباراة غوص أعماق مع صديقى الأستاذ الأكاديمي ابن اللوردات « ميجور كول » وهو جالس فى خيمتى والقمر علينا مطل .. نتبادل الجرجعات من زجاجة خبيثة النشوة طوحتنا فأنستنا الجنس واللون والعقائد .. قلت له أن بلاده مشهورة ومتيمة بتجارب تحضير الأرواح أو تقمص الأرواح وكلها بين أحياء وأموات ، فما رأيك عزيزى الأستاذ كول فى التجربة بين أحياء وأحياء ؟ .. يعنى هل تصدقنى إذا أفشيت لك سرى ، فأنا الآن ، والموجود فى هذا المكان الآن ، متقمص ومربوط بروح ويجسد فتاة حية ! .. حقاً فتاة حية وتتنفس .. هى الآن تحت جلدى وفى جوفى وتتربع على مملكة غرائزى

وأعماقى .. لا .. ليست « مارى الفجالة » لا .. بل مارى أخرى ،
أتلقيها من عصر بدء المساواة عندنا .. بنت العصر المصرى الذى بدأ
يفض أسوار الحرمان والحريم ، واثرة خلخال وبرقع أمها ، فها هى
تلقيها فى البحر .. بنت العصر المصرى الذى آذن أن يستدعى نصف
طاقاته وأهم مخاليقه من سخف الحبس بين المطابخ والمخادع ! .. فتاة
مثيرة جريئة ، متحررة خلافة ، مصرية لحما ودما ووثابة الطموح ..
العفة والكبرياء ، وعراقة المنبت هالة من حول خطاها .. الفتاة فى
الثانية والعشرين عزيزى كول .. جامعية من الجيل المثقف الجديد ..
مندلعة الخيال وسابحة فى أنهر ثقافات العالم ، ولها جاذبية أن تقتحم
مجالس الرجال وتدهش تحفظ الرجال ، سمراء وخلافة وماكرة وخفيفة
الوزن .. وعزيزى كول إذا طرقت الباب الآن على وجدانى فسوف
تجيبك وتلبيك ! .. هذه الفتاة عزيزى كول ، وأنا الآن مغموس فى
تقمصها ، غائص فى تقمصها ، مصمم على تقمصها ، ممنوع الخطأ من
تقمصها ! .. وطبعاً أصارحك فذلك يجمدنى ويهرقنى ويجلد عقلى
وحواسى - فكما تعرف ليست لى إلا تجربة واحدة خاسرة من عالم
الأنتى والاناث هى هذه الفتاة المنحلة « مارى الفجالة » ، فلم أع أى
شئ ولم أر أى شئ ولم أحفظ أى شئ ، أما الآن فى التجربة من
تقمص فتاتى الجديدة ، فرهانى أن أدخل فى فستانها وأكتفى ولا شئ
أكثر ! .. عدنى للتجربة هى أننا - نحن الرجل وهن المرأة - وعاء
واحد من لحم لا يختلف ، وما اختلاف بسيط العضويات إلا زى
المسيرة من مشوار هذه الحياة ! .. تراهننى عزيزى كول عن عينة
النوع من هذا النقص ، فخذ أولاً منه هذا التباهى .. أحاول أن أحكى
لك ، فهذا أنت أول رجل يعرف سرى - عن تقمصى يوميات فتاة
تحلم وتنتبأ أن تكون عضوة برلمان فى بلادها الأفريقية .. يوميات لها ،
وتحديد التاريخ بل تحديه ، بعد عشر سنوات فقط ولن تزيد .. أفكارها
وأحلامها وطموحها عن بلادها .. انظر والمجلة اسمها « الاتنين » ،

وتوزع ١٢٠ ألف نسخة أسبوعية ، والقصة بتوقيع فتاتي ، وعنوانها « يوميات عضوة برلمان » ! .. ثم خذ تلك الجسارة الخطرة من يوميات خاطئه حبلى .. نعم حبلى !.. يريدون اجهاض جنينها الذى بدأ يخفق به جوفها وهى ترفض وتصارع وتفشى دقيق التفاصيل من أسرار مشاعرها وغرائزها وتنفس أفكارها !

« كول » هز رأسه ذاهلا ومستغربا .. ورأيه أن الجلوس تحت قمر جنيفة مع أفريقى مطلسم مثلى ، فعلا يثير الجنون .. صحت فيه مصححا ، بل مصرى يا كول ولا تنس أن المصرى من سلالة قدماء برعاء ذوو حضارة مرعبة - كانت الروح لهفتهم بل لعبة حياتهم .

.....

فوجئت اليوم برسالة من مارى نزلت على رأسى كالصاعقة .. دوخنى ما جاء فيها وتلج له دمى .. مكتوبة بخط ركيك ومتعثر ، وتطالبنى بالحضور فورا فهناك أمور هامة وخطيرة قد حدثت بخصوص « موضوع مى الصغيرة » ، فقد اكتشفوا العنوان وجاءوا إلى شقة حبيب شلبى ، وقد قالت لهم - من أجل خاطرى - أنها هى نعم مى الصغيرة .. ولكن بعد هذا حدثت أمور أخطر تستدعى سرعة تواجدى !

.....

هرولت من جنيفة عائداً إلى الفجالة فورا - وأنا فى رعب القلق - وهأنذا أنزل فى بنسيون كنج فيليب ، وأول ما فعلت ، أصف لزيتون السفرجى شقة مارى وكتابة رسالة قصيرة لها بها رقم تليفون البنسيون ، فأنا فى انتظار مكالمة منها .

وقد عاد « زيتون » سريعا بعد أن أدى المهمة بطريقة مضحكة - فمازال مرتعبا من حكاية المسدس المفتوح .. رمى الرسالة من تحت عقب الباب ، ثم ضغط على الجرس ، وهرول نازلا على السلام قبل أن يراه أحد !

أنا جالس بجوار التليفون - « وينسيون كنتج فيليب » كما هو ..
وقد قابلتني مفاجأة أول ما دخلت .. فتاة سودانية عذبة وجذابة الملامح
جدا ، غارقة برأسها بين صفحات « آخر ساعة » والمجلة مفتوحة على
آخر نشر لى الصغيرة .. التى عنوانها « جامعية وحسنا » .. خفى
قلبي فتوقفت أمامها أطل على عينيها ، أحاول أن أستشف التأثير
منها . وعندما أحست بنظرى عليها أغلقت المجلة وهرعت بها لتختفى
فى حجرتها .. حجرتى سابقا !

« مدام موريس » ، رحبت بنزولى عندها .. فقد جئت لها بهدايا من
علب التومباك الإنجليزية الذى تحبه .. ولكنها اعتذرت عن حجرتى
القديمة ، فإنه ينزل بها الآن الضابط السودانى وابنته الطالبة
الجامعية .. هذه الفتاة الأبنوسية الفارغة إذن !

ولقد تعرفت سريعا على هذا الضابط عندما خرج مع ابنته من
الحجرة يطلبان دفتر التليفون الذى كان قريبا منى ، جلس بجوارى
بينما راحت ابنته تبحث فى الدفتر .. وعرفتني به مدام موريس فهو
« القانمقام سيف » ، وله عادة النزول عندها منذ سنوات ، وهذه هى
ابنته « سامية » .. « القانمقام سيف » مفرط الطول ، وله رأس ضئيل
يشبه القلقاسة ، ولكنه ضحوك ومرح ، وخفيف الظل ، وكل كلمة
يقولها يتبعها بضحكة يعقبها السعال المتواصل ! .. قال لى أنه فى فرقة
ميدانية قد تستغرق عدة أشهر ، وهمس يصارحنى كى لا تسمع ابنته ،
بأن أم البنين أرسلت هذا الخفير من ورائه رقابة وصيانة .. أما الرقابة
فأنت تعرف ، ولكن الصيانة فلأنه مشهور عنه بأنه لا يأتية النوم
إلا والسيجارة مشتعلة فى فمه ، فلا بد له من أحد ينزعها من بين شفتيه
قبل أن ينام وإلا أحرقت الفراش وأحرقت من على الفراش كما حدث
عدة مرات !

أبادله الضحك وذهنى بعيد ، فالفتاة الأبنوسية كانت قد استلمت
التليفون تتكلم مع زميلة طالبة مثلها - وفوجئت بأنها تكلمها عن عدد

آخر ساعة الأخير ، ففيه قصة غريبة عن فارسة من كلية الآداب ،
ومحاضرة عن فلسفة ديكارت - وهذا لا يهم فبوسعها أن تكتب
بأحسن من تلك الكاتبة - المهم أن البطلة اسمها « سامية » ، يعنى
عن اسمها ، فربما هى المقصودة دون أن تدري !
قلبي يخفق بشدة ويحتاج انفعالا ، والفتاة تتوارى بسماعة التليفون
لتواصل الهمس والضحك مع زميلتها عن تلك القصة .. اختلس عليها
النظرات الشغوفة المعجبة فلأول مرة تطالع عيني فتاة سودانية لها نظرة
مثل هذا البهاء والجمال !

.....

دق التليفون بعد نصف ساعة تقريبا وكانت هى « روز » صغرى
البنات تبغنى أن مارى مريضة وتلازم السرير فلن تقدر على الخروج
للقائى ، فبوسعى أن أحضر فى أى وقت لرؤيتها فلا توجد الآن موانع
من تلك الزيارة !
وقد ذهبت مسرعا لأجد الجميع فى انتظارى ، ومارى راقدة فى
السرير فعلا ، وفى وجهها كدمات وجروح وعلى رأسها لفافات
وضمادات .. تتأوه وتتوجع وعيناها تبرقان نحوى بالشوق واللهفة
والشهقة والدموع .. ماذا حدث ؟ .. حادثة أوتومبيل ؟ .. أمس
فقط ؟

ولكنها لم تكن حادثة أوتومبيل ، بل كانت خناقة ضارية جرت هنا
ليلة أمس مع خطيبها الأرعن السابق « رؤوف » ! .. تبكى أمامى
بكاء طفوليا حارقا يسترسل ويعلو صوتها الناتج فيه .. هذا الرؤوف
الغليظ لا تحبه ولا تريده .. فما ذنبها أن يظل يحبها ويطاردها ؟!
لقد فسخت خطوبتها منه بعد ليلة الهرب .. هربت من غيرته
وفجأته وثقل دمه وسخافة طباعه .. وأمس تربص لها هنا على السلام
فى الظلام ، وتسلل من خلفها ، ثم فاجأها بأن انهال عليها ضربا
جنونيا ، حتى خلصوها منه بصعوبة وهو يوشك أن يقتلها !

مارى تحكى وقلبي جليد لا يذوب ولا يتأثر ، بل أستعجل أن
تخلص من هذا السخف إلى الأبد الآخر الهام والمروع .. وتستمر
وتقول أنه بعد أن أفاق على نزيف الدم من جروحها ، ركم متوسلا
مستغفرا معتذرا ، يخط رأسه في بلاط الأرض ويطلب الصفح ..
وأسرع وأحضر الطبيب .. ثم حدث التراضى بأن أقسم أمامهم بغليظ
الوعود والعهود بأنه لن يعود ويرىهم وجهه مرة أخرى .. فقط عليهم
قبلها أن يسامحوه ، ومن أجل أن يسامحوه - وبطريقة عرب الفيوم -
فقد أفرغ جيوبه أمامهم من كل شيء له ثمن .. الساعة الذهبية ،
والسلسلة الماسية ، والخاتم الكتلة ، والمحفظة بجنيهاها الثلاثين !

.....

انصت إلى عذابات ماري بوجه جامد وقلب بارد ، وبأشدة
اشمئزازي بل قبلها بأشدة قشعريرتي الهلوع وأنا أسمع ما أسمع ..
رؤوف المسكين هذا كان يمكن أن أكون أنا ، بل هو أنا فعلا ، ولقد
كنت هكذا فعلا !

مارى بعد أن انتهت من مأساة نفسها تشير بنظراتها نحو أمها
وأخوتها أن يتركونا وحدنا ! .. ولقد تعجبت من سرعة طاعتها لها ،
والظاهر كن على اتفاق ، فواضح أن هذه الفتاة قد أصبحت سيدة
البيت وهى التى باتت تعوله وتقود زمامه .. خرجن ، وطلبت منى أن
أوارب الباب ، ثم دعتى ببريق عينيها أن أجلس على طرف السرير
يجوارها .. أمسكت يدي بيدها المرتعشة الحارة ، ثم شدتني إلى وجهها
الذى تفوح منه صبغة اليود ، وعلى شفثيها شوق العناق ! .. لا ..
لا يا ماري . ليس الآن ، فأنت مريضة وأنا مزكوم ، ثم فى البيت هنا
فهذا لا يليق !

اكفهر وجهها واتقد بالغضب والخرج برهة ، ولكنها عادت تلين

وتبلغنى أحداثها السارة .. نعم سارة .. مى الصغيرة بدأت تكسب
الفلوس .

.....

و ذات يوم منذ عشرة أيام تقريبا ، فوجئت بخالتها مدام آدمة
ترسل لها أن تحضر فوراً فهناك الضيوف الكبار اللذين حضروا
ويستفسرون عنها .. وعندما ذهبت فوجئت بالصحفى الكبير
« الشناوى » ، والكاتب عضو البرلمان « أحمد الألفى عطية » ،
والمشهور الآخر فى الصحافة واسمه « صلاح » - ورغبتهم الالتقاء
بالكاتبة الزميلة مى الصغيرة ، فلديهم لها أولاً شيك صغير لحاملته ، عن
أجور ما نشر فى « آخر ساعة » ، ثم هناك خطابات يريد ودعوات
لها .

وتقول مارى أنها ارتبكت برهة ، ثم انطلقت تودى أمامهم ببراعة
دور مى الصغيرة .. بل أنها لكى تقنعهم أكثر ، رضيت أن تسهر معهم
عندما دعوها إلى الملهى الفاخر الأوبرج .. ولكى تجاريهم وتقنعهم أكثر
وأكثر فقد لبست دعوتهم فيما تلا ذلك من ليال .. بل اشتد اندماجها
وإياهم - وخصوصا بعد أن أقنعوها بأن « التابعى » وبمجرد حضوره
من السفر سوف يصدر قراراً بتعيينها ، ويخلى لها أحلى الغرفات ،
بتليفون أبيض ، وسكرتيرة خاصة لتكون أجمل وأشهى جاسوسة
صحفية فى كل بلاط صاحبة الجلالة ..

قلبى يسقط فى جوفى وأنا أسمع كل تلك النكبات والكوارث ..
أستدرجها مستريدا وأنا أتلقى ألما وعذابا .. غرامياتها المنطلقة مع
الكازانوفا الألفى عطية ، وكل ورقة من محفظته للجرسونات من صنف
ورقة المائة أو ورقة الخمسين .. كرماء ما أروعهم ، وما أخف دمهم ،
وما أبهر مناظرهم .. كلهم كرماء وكبراء وقد تغزلوا فيها شعرا ونثرا ،
وأعقدوا عليها الثناء واطروا المواهب .. أجاهد أن أقاسك لأظل
أسمع .. وحتى جاءت الليلة التى سكرت وأفرطت فيها فاعترفت .. لم

يكن هناك المفر .. لا .. لا تخف فقد تكلمت على اسمك كما أوصيت ،
ولم أعطهم أى شبهة أن الذى يكتب رجل .. قلت لهم أنها ابنة عمى
« انطوانيت » المسافرة فى السويس .. قالوا لى - وحتى تظهر بنت
عمتك انطوانيت فلا مؤاخذه لن ننشر لها حتى تحضر قصصها بنفسها
إلى دار المجلة .. أكدوا أنهم لن ينشروا إلا إذا ظهرت انطوانيت . لم
يكن أمامى غير تلك الحيلة والآن بعد أن عدت ، تعال وارفع هذا
التعب عنى فكل هذا من أجل خاطرك .. وخذ هذا البريد الذى
سلموه لى .. ومطلبى الآن .. وبدأت تلف ذراعها حول عنقى - فلماذا
لا تعلمنى يا حبيبى كى أكون لك دائما مى الصغيرة !

تهللت براسى صامتا لا أتكلم .. أشعر أننى قشر ثلج يتهشم
ويذوب .. حلمى السارى الناصع يتعكر بل يتبدد .. وقفت مستأذنا
بلا كلام .. لم أعلق ولم أتكلم ، فقد كنت مختلفا وفعى يجتر المראה
والكآبة .. قلت لمن يجب أن أذهب إلى مهمة عاجلة وسوف أعود بعد
ساعة . الست وديعة متحمسة لقضاء كل اليوم معهم ، فمن أجل
صنعوا ورقة لحم فى الفرن ، وهات لنا معك وأنت عائد ، الفياسكا
والكوتشينة ولنحتفل بتصافينا وعودة الحياة إلى مجارىنا ..

.....

خرجت ..

بريد مى الصغيرة فى جيبى كأنه جثتها المقتولة .. شارع الفجالة
أمامى - والدنيا ضحى - سواد رهيب كالح .. أترنج ذاهل المخطئ
نحو بنسيون كنج فيليب .. أصعد السلام أفتح الباب ليواجهنى ..
منظرا لم أتوقعه أبدا .. الضابط السودانى سيف ، والفتاة الانبوسية
« سامية » ثم مفاجأة وجود هذا العريض الطويل لابس الفرسان
يوزباشى « رؤوف » .. بقايا مارى .. يقف أمامى فى تحفز متوتر
وغريب !

« نحن بشر » _____

القاهرة ٤٢ - ٤٣

« رؤوف » ضابط الفرسان - وكانت المفاجأة لى أنه استأجر غرفة فى « بنسيون كنج فيليب » ومنذ اليوم أصبح نزىلا فيه !
أول مرة أراه أو يرانى .. وقد عرفته من صورته - ويا غرابة ما تتهشم الملامح الوسيمة الشاحخة تحت ضربات العشق الخاسر المحروم ! .. غريمى فى حب « مارى » ! .. حامل المسدس المفتوح ؟ .. فهل لم تعرف ذلك « مدام موريس » صاحبة البنسيون ؟
فوجئت طبعاً ودارت بى الأفكار ، فهل جاء يطاردنى ؟ .. كان وجهه شاحباً باهتاً وملاحه ممسوحة .. قدمه لى « القائ مقام السودانى سيف » وهو يشد ذراعى لأجالسهم ، فقد كانت أمامهم أكواب بيرة وأطباق حمص وفول سودانى .. والفتاة الأبنوسية « سامية » - ابنة سيف - منزوية عنها ووجهها كالعادة غارق بين دفتى كتاب ضخمة ..
اعتذرت فى ارتباك ، وقلت أننى جئت لآخذ شيئاً من غرفتى ومضطر أن أخرج حالا .. بادلته النظرات ، وأدهشنى أنه يبدو كمن لا يعرفنى
فهل هذا معقول !!

دخلت غرفتى وأغلقت الباب ، ولم يكن هناك شىء لآخذه أو أفعله .. محنتى الآن ودوار رأسى - وأبدا لن تغلب عليها محنة

جديدة - هي هذا القطع الصاعق المنقض فجأة لأقع من شahuq
الأحلام ! .. هذا الفرق المؤثر السريع للبريئة الحلوة المتفتحة واسعة
الآمال - « مى الصغيره » !

.....

أخرجت من جيوبى هذا البريد .. خطابات كثيرة على عنوانها فى
« آخر ساعة » ، ومعظمها تبدأ بالكتابة الكبيرة ، والأستاذة ،
والنايعة ، والجريئة والثائرة .. رسائل غرام ، وغزل ، وإعجاب ،
وافتتان ، ومراهقة ، ومعاكسة ! .. وأيضاً احتجاج وتأنيب على هذا
الأدب السافر الذى لا يليق بتوقيع فتاة أو امرأة .. ثم دعوات لإلقاء
محاضرات ، والاشتراك فى ندوات ، وجميعيات خيرية ونسائية تسأل عن
عنوانها ! .. ورسالة متحمسة طريفة أيضاً بتوقيع « فاطمة عزت
موسى » رئيسة الحزب النسائى ، تدعوها للانضمام فوراً إلى
قافلتهم ! .. يا إلهى ، لمن بات هذا البريد ومن يرد عليه الآن ؟
أنظر زائغ العينين إلى هذه الأوراق الطريجة أمامى فلا أرى فيها
إلا ورقة امتحان تعلوها دائرة حمراء وفيها صفر من عشرة ! .. سقوط
فاحش ، بل سقوط مخجل فى أول حصّة من الامتحان البائس الذى
خططت ودققت له ، ورسمت بل هيأت له أن يستمر سنة بل ثلاثاً !..
أنا مشبع به وليس لى تنفس الآن سواء ، ولست أدرى بدونه كيف
سوف أقدر أن أعيش غداً وبعد غد !

هذا الانكشاف السيئ المباغت ! .. المنظر البشع الجهول
للمستهترّة « مارى » ! .. وهى تسكر ، وتسهر ، وتتبدل ، وتتطوح مع
اللهاء الساخرين ! فحول الجائمين على بلاط صاحبة الجلالة !..
شعورى بالغضب والنفور والاشمئزاز ، بل بالذل والمهانة والندم ،
وكأننى كنت من خلفها قواداً يقدمها لهم ! .. خجل وانكسار وفشل
وسقوط ! .. سقوط وله أذيال ملحق .. ملحق منحة من أكاذيب

مارى .. ابنة عمها المسافرة فى السويس واسمها « انطوانيت » - هى
مى الصغيرة ؟ .. هى التى تكتب ؟ .. لن يعودوا وينشروا الا عندما
تظهر انطوانيت هذه وتحمل لهم كتاباتها بنفسها ؟ . أين انطوانيت
هذه ، وكيف أجدها ، بل كيف أقدر أن أولفها ، وهل يمكن لجبابة
آخر ساعة الأذكىاء المتمرسين أن يعودوا ويصدقوا ادعاءات
جديدة ؟! .. الأفكار والخيالات والمقترحات تطحننى ، فماذا لو قمت
الآن وذهبت أقدم نفسى اليهم ، فهذا أنا هو يا سادة الكاتبة
مى الصغيرة ! .. ريفى جلف يتعثّر فى أذيال منظره الخابئ ! . كم
سوف أصبح بينهم مسخا وأضحوكه .. أنا أعرف ضراوة هؤلاء الناس
فى سخرياتهم !

.....

قمت واقفا فلم أعد أطيق الجلوس .. ويجب أن أخرج كما قلت
لهم ، فإلى أين الخروج ؟ .. « مارى » ولحمة الفرن تنتظرنى ،
والفياسكا والكوتشينية ، فهل أذهب لاستزيد من جرعات العلقم
مما فعلت وفعل هؤلاء الناس ؟ .. هذه الفتاة مازالت تتصور أن
بوسمها أن تتزوجنى ؟ .. بل أن هذا الالتحام الأخير لها مع الأحداث
- وتصورها طبعاً أنها البطلة الحقيقية فى كل الأمور - قد أنعش آمالها
فى أن أرتبط بها مدى الحياة .. حبال مى الصغيرة تمسكها فى يدها
وتربطنى بها .. نعم ، تنبهت وأرعبنى أن أى اقتراح الآن للملحق عاجل
يمكن أن ينقذ مشروع مى الصغيرة لا مفر أن تكون وسيلته مارى ! ..
نعم لا فرار منها إلا اذا ألغيت المشروع كله فكيف أقدر ، فهل ألغى
حياتى ؟

ملحق عاجل مثل ماذا ؟ .. « انطوانيت » هذه التى رمتها أكذوبة
بل عقدة وحى أعود وأحلها ؟ .. أحلها كيف ؟ .. نعم أن لها ابنة عمه
اسمها انطوانيت .. رأيتها عدة مرات .. تقرأ وتكتب ، فقد نالت

شهادة الكفاءة بالعربي .. ولكنها جوفاء وفارغة وبلهاء .. وشامية غليظة وبلا قومية وتكره مصر ، وحلمها أن يتزوجها أى صعلوك انجليزى أو أمريكانى ويأخذها معه إلى بلاده .. لا . مستحيل فلن تنفع طبعا ، ثم ماذا كانت تقصد مارى حينما قالت تعال وعلمنى كيف أكون لك مى الصغيرة ؟!

هل تقصد أن بوسع مواهبها أن تصحح الأكذوبة للأباطرة إذا عدت ولقنتها الدرس بإجادة ؟ .. آخذ من تشيى وأكس فيها مثلا ؟ .. وإذا فعلت كيف أقدر أن أمسح تلك اللطخة البشعة التى وقعت وانتهى الأمر على الثوب الناصع ؟

أنا فى حالة دوار وتخط وتحيى وهذيان ويجب أن أخرج ، فهل أذهب إلى السينما .. أذهب إلى « نجيب » فى مصر الجديدة ؟ .. أذهب ، فىلأ أين ؟ .. ثم هذا الطاووس المنتوف الريش بمنقاره المزعج المخيف « رؤوف » ؟ .. يقلقنى ظهوره المريب هنا طبعا ، ثم هذا الغموض من نظراته - حتى لو لم يكن يعرف أننى هو غريمه فلا بد سوف يعرف .. ثم لماذا جاء ينزل هنا على بعد خطوات من مارى - وله كما أعلم شقة فى « منيل الروضة » يعيش فيها مع أمه وأخيه وأخته ، غير قصر الفيوم ؟ .. هل لديه خطة ؟ .. يقتلنى مثلا ؟ .. لماذا هذا الأهل ، فهل يحل القتل شيئا من أمور الحب ؟

خرجت من الغرفة وجدت المنظر كما هو .. أوقفنى القائمقام سيف مصما قبل أن أخرج أن أسمع منه نكتة سودانية .. رؤوف جالس ونظراته الثملة الزائغة مرفوعة نحو وجهى ! .. ينكش شعره ، وينفخ صدره ، ثم يجرع كوب البيرة الممتلئ فى جرعة واحدة وبطريقة جشعة ، ويهبط به فى عنف على المائدة فيتحطم وتتناثر شظاياه ! .. وبينما يساعد سيف وابنته فى جمع الحطام ، دق التليفون .. يظهر « زيتون السفرجى » ليرفع السماعة ، ثم علا صوته نحوى ينادينى -

مدموازيل مارى تطلبك ! .. اشرب أعنق رؤوف وكأنا مسته كهرباء ،
وفى حركة عصيبة راح يحرك رقبتة ما بين منظرى ومنظر زيتون وهو
يحمل سماعة التليفون ! .. أشرت لزيتون ضجرا أن يقول لها أننى غير
موجود ، أو أحسن أن يقول لها لقد سافر فجأة ! .. قلت هذا ثم
اتجهت مسرعاً إلى باب الخروج !

.....

أدخل البنسيون والوقت بعد نصف الليل ! .. المكان هاجع ، ولبة
زرقاء ذاوية فى ركن الردهة ، ولا توجد إلا غرفة واحدة يظهر منها
الضوء من خلال زجاج الباب المغلق - هى غرفة « رؤوف » ! ..
سرت البرودة فى عروقى فتوقفت برهة أدير نظراتى فى الظلام
وأتصنت ! .. أحسست أو تخيلت أن أكرة باب رؤوف تستدير فى ببطء
على يدهم أن تفتح الباب ! .. تعجلت بخطواتى نحو غرفتى ، ودخلت
وأغلقت الباب .. ثم عدت وأغلقتة بالمفتاح ! .. هل أنا خائف ؟ ..
لا فلست أعرف الخوف حتى ولو فى مجابهة خطر الموت ! .. ولكن ماذا
لو معه مسدس حقا ويأخذنى غيلة ؟ .. بماذا أذافع عن نفسى ؟ ..
أحاول أن أقنع عقلى أن مشاعرى عائمة فى بحور روائية مسرفة -
يا شدة احتياجى الآن أن أغوص فى النوم !

خلعت ثيابى وأطفأت النور وتمددت على السرير طريحا مكدودا !
يا إلهى كيف قضيت نهارا قاحلا لافحا ! .. بدأته بأن اشتريت
زجاجة الكياناتينى مع قراطيس من الفواكهة والهدايا ، ورسالة اعتذار
لمارى وأمها ست وديعة بأننى أواجه مشاغل حمة وسوف أمر عليهم
غدا ! .. مشاغل حمة ؟ .. من سينما إلى سينما ، ومن مقهى إلى مقهى ،
ومن شارع إلى شارع ، أتسكع زانغ العينين ، متعثر الخطوات ! ..
حمت من حول مبنى آخر ساعة ! .. غدا سوف يظهر العدد الجديد ،
فهل أصعد لأسأل متوسلا هل فيه قصة جديدة لى الصغيرة ! .. عيني

غاصة بالدموع .. تمشيت أمام يافطة « كلام الناس » في آخر شارع
المبتديان ! .. توقفت طويلا أمام هذا البناء الرهيب الذى بناه الانجليز
« لدار الهلال » .. هل أطمع يوما في حجرة من عديد طوابقه ؟ ..
توقفت أحلم أمام « المصرى » فى قصر العيني ! .. تسكنت حول
« البلاغ » ، و « كوكب الشرق » و « صوت الأمة » فى المنيرة ! ..
تمشيت وتمهلت أمام « الأهرام » فى باب اللوق .. الأهرام وصالونه
الشهير كل ليلة ! .. ثم « بار اللواء » ونجوم المجالسين ..
« البشرى » و « محبوب ثابت » و « امام العبد » ، و « زهير
صبرى » ! .. « توفيق الحكيم » بالبيرييه والعصاة جالس على الناصية
لمقهى « الريتز » تحت الأيموبيليا .. ها هو ومعه « مدحت
عاصم » ! .. مشيت ومشيت .. ركبت المترو إلى مصر الجديدة فلم أجد
« نجيب » ! .. عدت أتشرد وأضيع فى الوقت حتى يظهر العدد الجديد
من « آخر ساعة » .. إنه يظهر فى محطة باب الحديد قبل يوم من
توزيعه فى السوق .. « نسخ الأقاليم » ! .. لديهم ثلاث قصص
أرسلتها مرة واحدة ! .. أنا يائس بعد الذى حدث أن ينشروا أى
شئ .. ولكن بقية من أمل ، تهافت الأمل يا رباه ! .. اشترت العدد
ويدى ترتعش وبى رهبة أن أفتحه .. « كاريكاتير » صاروخان .
الصاحب الملون على الغلاف ، وزعماء مصر الباشوات وأصحاب المقام
الرفيع يرتدون ثياب الشحاتين ووقفتهم أمام سور السفارة
البريطانية - وادونا وزارة الله يا أسيادنا !! .. وكما توقعت تماما لم تكن
القصة منشورة ! .. مى الصغيرة غير موجودة ، ولا رائحة لها ولا كلام
عنها !

.....

ها أنا مستلق محمق فى الظلام ، تأخذنى القشعريرة من تحيل ديب
خطوات فى الردهة .. إنها ليست خيالا .. فالخطوات مسموعة فعلا ،

فهل هو رؤوف بمسدسه المفتوح ؟ .. أحس أن أكرة الباب عندى تتحرك ، وأن يدا ما تحاول معها ! .. قمت متوترا واجفا ، ولكن لم ألبث أن تراجعت ، فربما كلها تصورات بفعل الأوهام !

أحاول عيئا أن أنام ، كيف أنام ؟ .. اشعلت الضوء وعدت أستعرض عدد آخر ساعة .. عدد التشيع من جنازة مى الصغيرة .. ما أقسى هؤلاء الناس .. ما أغلظ قلوبهم وما أفحش تسلطهم ! .. عيناى زائفتان ولا تصلحان للقراءة .. أحاول أن أنام ، وأكاد أغفو ، ولكننى أعود وأسمع تحركا واضحا فى الردهة هذه المرة .. تحركا يحوم حول بابى ! .. أقوم متمردا نافد الصبر والغضب يأخذنى وأحسن أن أجابه هذا المعتوه .. لن يخيفنى رؤوف هذا وحتى لو كان فى يده مدفع !

فتحت الباب فى ضجة .. فتحت على المصراعين .. لم أجد أحدا .. تحركت أبحث عن « زيتون » حتى وجدته مستغرقا فى النوم ، وعيئا أحاول إيقاظه .. عدت أتمشى فى الردهة ونظراتى على غرفة رؤوف المضأة والباب الموارب المفتوح .. اقتربت منها فقد اجتذبتنى فيها أصوات غريبة تصدر منها .. أصوات تشبه الأنين .. أنين يزوم محتثقا وفيه كركرة تنفس ذبيحة !

فتحت الباب ويا هول ما رأيت .. « رؤوف » منطرحا على السرير بشيابه ، وذراعه متهذلا ، وقناة من الدم جارية من عروقه المقطوعة تنزف على بلاط الغرفة .. يا إلهى إنه ينتحر !؟ .. صحت بعلو صوتى .. أيقظت البنسيون كله .. هرول الجميع فى دعر .. بحثنا عن أربطة توقف النزيف .. الفتاة السودانية « سامية » هى التى بادرت سريعا فأحضرت الشاش وقامت بالربط حول القطع .. بحثنا عن طبيب فى العمارة .. طلبنا الاسعاف وبقيت واقفا بجواره حانيا متأثرا يكوينى الألم .. وعيناه المنطفئتان ترفرفان على منظرى ومنظر سامية فى استسلام طفولى يائس وذليل !

.....

مازلت في « بنسيون كنج فيليب » .. وقد مضت الآن خمسة أشهر منذ انقطع حلم مى الصغيرة وانطفأ بريقه الخاطف ! .. توقفت « آخر ساعة » عن النشر ، و « مجلة الاثنين » أيضاً - وكأنها كانتا على اتفاق لسحق لعبتي البراقة الصغيرة وتبديد لمعتها التي سطعت وبشدة على مدى عدة أسابيع !.. توقف الجميع عن النشر ، فقد ذاعت السخرية وامتدت السيرة في الأروقة الصحفية عن الشريحة الشامية البيضاء الشقراء « مى » والتي تجيد الكتابة بساقيها .. نعم راجت النكت الذنبية الناهشة من الألسنة الماجنة .. وبقيت مجلة واحدة فقط تنشر لها ، بل وضح لى أنها تتشبت بالنشر لها فقد باتت « قصص مى الصغيرة » هى أروج مادة فى إعدادها !.. مجلة واحدة هى « كلام الناس » ، ولكنها فى حالة لفظ انفاس أخيرة ! .. فالمجلات الجديدة والتي يحاوها مصريون وطيون كانت تموت بأسرع مما تولد ، فى الخنق الأريب من السوق المسيطر لصحافة الشوام واليهود .. ماتت كلام الناس سريعا مثل سواها ، وهذا انطفأ آخر بريق من زبالة الأمل !

.....

تلك الأشهر الخمسة وما حدث فيها .. فقد سئمت أن أعود إلى العمل فى « جنيفة » ! .. يئست من جدوى أى عمل ، فأنا لا أصلح إلا للكتابة .. وبالذات الآن تحت توقيع مى الصغيرة .. فقد كان تربصى وتفرغ طاقتى كلها أن أعود وأستعيد المسيرة بأية وسيلة وأية تضحية .. أنا مكسد ومشيع بها بل مربوط بها .. تسرى فى عروقى وتحتل كيافى وتملأ عقلى وحواسى .. وبا للفرع حينما حاولت ذات مرة أن أتمرد على توقيعها وشخصيتها ، كيف تلجم قلمى وانكسر فاشلا وذليلا ، فقد تبينت أننى من دونها معدم الأفكار والأسلوب تماما ، بل فى حالة خواء ! .. معى بعض الأموال التى يمكن أن تعولنى عدة أشهر .. وقد كتبت رسالة اعتذار إلى صديقى « الميجور كول » أبلغه أننى

سئمت جنيفة بل سئمت الحياة ! .. وحكى له عن صدمتي القاسية من
توقف النشر ، ثم رجوته لو يكلف أحدًا أن يحضر لى حاجياتى الباقية
فى خيمة جنيفة ! .. تذكرت المجنونة « بياتريس » خريجة الملجأ
الوحيدة الحائرة ، فكتبت لها أيضا !

.....

علاقتي ببارى كل تلك الأشهر - ومع الحرمان الطارئ من الفقيده
مى الصغيرة - عادت جذوة الحمى التى كانت خادمة تتحرك وتتقد
باللهفة على البقية الحية فيها ! .. توهمت هذا وارتعت على نفسى ،
فلم يعد لى من عمل كل يوم إلا أن أذهب وأقضى معظم الوقت
بجوارها ، ملطوعا بجوارها .. وقت فارغ ردى مضجر ، لم يكن
يكسب نفسى إلا الانحطاط والانحدار !

ورويدا رويدا يئست الفتاة من تشتتى ووجومى ، وبدأت تدرك
بحس أعماقها أن حبيب الأكبر وعشقى المقيم هو مى الكاتبة والخيال ،
لا مى الجسد والتحسس ! .. تحولت جلساى معها إلى مجرد عواء
ذكريات .. نحيب ذكريات .. لفظ أنفاس ذكريات .. أذهب معها إلى
السينما وإلى الباتيناى وإلى المراقص وإلى الحفلات .. أو غشى ونظل
غشى حتى ولو بلا كلام .. وباتت لها خلوات بنفسها لا أعرف
أسرارها ! .. لم يعد يهم أن أعرف أسرارها فقد عجزت عن الصرف
عليها بعد أن تبخرت كل نقودى فى أقل من ثلاثة أسابيع !

وبدأت أذعر من جائحة الاملاق التى أوشكت أن تقترب منى ..
كتبت رسالة « إلى محمود كامل المحامى » أطلب الحاقى بأى وظيفة
فى مجلته الرائجة - « العشر قصص » - والتى من رواجها أصبحت
تصدر فى الأسبوع الواحد ثلاث مرات .. ولكنه لم يرد !
ذهبت وطرقت على باب منزل « سلامة موسى » فى الفجالة ..
أعرفه ولى جولة قديمة معه أيام كنت تلميذا فى « دمنهور » .. كتبت له

رسالة طويلة ذات مرة عن أننى معجب « بالمجلة الجديدة » وكيف تلهب خيالى وتحرك خلايا عقلى .. ودهشت بل ارتج من تحت زلزال النشوة عندما رد على برسالة شخصية ، يقول فيها أنه أحس بصدق مشاعرى وقد أعجبتة أفكارى وجدة أسلوبى ، ويدعونى أن أمر عليه عندما أزور القاهرة فى أى وقت فقد أصبحت صديقه ! .. تلك الرسالة من سلامة موسى يومها يا إلهى وما فعلت بى ! .. وذات يوم بعدها اكتشفت أن « صديقى سلامة موسى » واسمه مكتوب كرئيس تحرير على « جريدة مصر اليومية » ! .. قبطية ووطنية ، وكانت فى ذاك الوقت كاسدة ولا تقرأ إلا من قلة من الأقباط ، وأصحابها « أسرة المنقبادى » ومنذ سنوات كانت شعلة شعبية ووطنية تضىء الطريق مع « الزعيم زغلول » ، حينها كانت شعارا صادقا لالتحام الوحدة الوطنية ! .. أقول ، قرأت وأنا فى دمنهور أن سلامة موسى قد أصبح رئيسا لتحريرها - وفى تلك الفترة كان الزعيم القبطى الوفدى الشهير مكرم عبيد سكرتير حزب الوفد قد أصبح هدفا للمعارضة عندما انشق بعض كبار أقطابه عن الحزب ، وحدث الشرخ الخطير فى الالتحام الوطنى مع حزب الأغلبية ، وانطلق الصراع فترامت على الجماهير سموم التعصب ، واندلع الشعب السياسى الخبيث ينقل حرائقه من الوطنية إلى الأديان .. كتبت مقالا وجدانيا خارجا من أعماق النفس أدعو فيه لعودة الوثام والالتحام بين طائفتى الأمة تحت عنوان « الدين لله والوطن للجميع » .. أرسلته لسلامة موسى ، وفوجئت بعد يومين فقط أنه منشور فى الصفحة الأولى يتصدره اسمى « المسلم » الذى فيه محمود وأحمد بالبنط الكبير ! .. كنت مازلت فى السابعة عشرة .. ألهبنى هذا النشر فاسرعت بمقال آخر ، وآخر ، حتى أكملت « ٤٠ مقالا » كلها وجدانيات وطنية وبالوقائع التاريخية عن تلاحم المسلمين والاقباط على مدى العصور فى الكفاح الوطنى .. مقالات تهاجم التعصب المقيت وتدعو للتسامح ، فكلنا مصريون أولا ، وبعدها كونوا

ما شتتم أقباطا أم مسلمين ! .. بعدها ذاع صيت تلك المقالات في أرجاء الأقباط والمطارنة والجمعيات الدينية القبطية فقط ، أما أرجاء المسلمين فلم يحس بها أحد ، وكان هذا يقهرنى ويحبو بجذوة حماسى ! .. « سلامة موسى » وقد قابلته في حينها عدة مرات ، في البدروم المتصدع لجريدة مصر في شارع الملكة نازلى .. وقد أذهلهم وأدهشهم صغر سنى .. ومن غرفة سلامة موسى بتلك الجريدة تسربت بدفع الأيادى بعض الوقت ، إلى مرحلة غريبة صاخبة ! .. لا أريد أن أحكى عنها الآن فإن لها مجلدا حافلا ومثيرا قد أكتبه ذات يوم ، ويا رباه هل سوف يقدر لى أن أكون كاتباً ؟!

.....

« سلامة موسى » يسكن في شارع الفجالة . وبالذات أمام « عمارة قرصاقى » التى فيها « بنسيون كنج فيليب » ، وله شقة في الدور الأرضى تحوطها حديقة ذابلة ، تقع فيها مطبعتة وإدارة مجلته .. دخلت عليه ، وكان يومها مكفهرًا يائساً ، فأمامه كمبيالات وديون وعقبات طبع ونشر وتوزيع - وإذا شئت أن اشتغل معه فلاأنطوع بجانا بمثل مقالات جريدة مصر التى كانت كلها أيضاً بجانا !

هكذا انطلقت أتصور محروما بانسا من حول أسوار الحديقة لصاحبة الجلالة .. عبنى لا تحيد عنها وأبدا لا أرغب فى سواها .. أتصور حقاً ، فقد بدأت أبيع من كتبى وثيابى ومقتنياتى .. تكومت أجرة عدة أشهر لم تدفع للطبيبة « مدام موريس » . تدهورت أحوالى ولقد استسلمت تماماً لهذا التدهور الذى أوشك أن يصل بى إلى أن أبيت جائعاً أحياناً أو أفطر وأنغدى وأنعشى على الفول المدمس والعدس وأقراص الطعمية !

.....

وفى تلك الأشهر أيضاً .. « رؤوف » ، ويا غرابة ما يفاجأ البشر

بعجيب ما يخطط القدر .. فلقد شفى من حادث الانتحار الذى أوشك أن يفقد فيه حياته .. تمكنوا من إنقاذه بعد جهد هائل - وكما قيل - لولا الفتاة السودانية « سامية » لم يكن يقدر له أن يعيش ! .. شفى من « لعنة مارى » فى إعجاز سريع وغريب يشبه مقاجأة الروايات ، فإنه بعد أن خرج من المستشفى توطدت علاقته بالقائمقام سيف وابنته المنقذة ، وتعارفت الأسرتان وتبادلتا الزيارات فى المنيل وفى الفيوم وفى الفجالة .. المهم قفز هذا العجيب الساحر الذى اسمه « الحب » ليصنع الخوارق . وقع رؤوف وسامية فى وعائه العسلى اللذيذ القناص .. حدثت الخطوبة ، ومنذ أيام ودعتهم على محطة باب الحديد ، هو وصهره وخطيبته ، فى الطريق إلى السودان وعقد القران فى « كسلا » حيث تعيش أسرة القائمقام سيف .. فقد تمكن رؤوف من نقل نفسه إلى فرقة الفرسان المصرية العسكرية فى البلد الشقيق !

.....

وذاث يوم قريب من تلك الأشهر الخمسة .. وكان إملاقى وعسرى قد اشتد وتصاعد - تفتق ذهنى المطحون عن أمل أن أبيع « قصة سينمائية » ! .. كنت قد اتصلت بالمخرج السينمائى « محمد كريم » .. أشهر مخرج مصرى ، وصانع أفلام عبد الوهاب الذائعة الصيت - ويقولون أن القصة السينمائية يشترونها بمائة جنيه وأحياناً بخمسمائة ! .. يعنى هات الملخص لها والفكرة فقط فى حجم تسع صفحات فولسكاب ، وإذا راقت سوف تجد فى يدك فوراً « شيك » لن يقل عن مائة جنيه ! .. كلمته بالتليفون وقلت له أن عندى قصة سينمائية جديدة ، فسألنى عن اسمى .. ارتبكت وقلت له ، أننى أتكلم نيابة عن « الكاتبة المعروفة » مى الصغيرة « والتى نشر لها منذ مدة قريبة عديد القصص فى آخر ساعة ودار الهلال وسواهما ! .. تذكر أنه قرأها وأعجب بأفكارها ، وأعطانى

الميعاد لأحضر بها فى العمارة التى يسكنها بجوار كورنيش النيل فى « جاردن سيتى » ! .. القصة التى أعدتها وكدست آمالى فى انقاذ نفسى بها ، اسمها « عطر الجنة » وهى قصة حب ذات فكرة عصرية جديدة وتصلح - ياليت - لتكون ثالث أفلام العظيم عبد الوهاب ! .. لم يكن قد تبقى فى جيبى يومها إلا ورقة واحدة من ذات العشرة قروش وكان أملى كبيرا فى أننى سوف أخرج من عند كريم وفى يدى شيك المائة جنيه !

وقد قرأ « كريم » القصة .. وهو رجل مشغل النشاط والحياة ، وله شكل خالق كوفى صغير .. أليس يخلق الحياة والشخوص من صنع يديه على شريط فيلم يبهر الناس لمدة ساعة ونصف وساعة ؟ .. أعجبت به بعض القصة ، ولكنها تحتاج لمناقشة طويلة مع المؤلفة وجها لوجه .. اعتذرت له أن المؤلفة مسافرة وغير موجودة وأنها أنابتنى عنها فى كل شىء حتى فى المناقشة والاتفاق .. ومن حماسى ولهفتى كاد الرجل يكشفنى فاضطربت ، فقام يربت عطوفا على كتفى وهو يوصلنى إلى الباب ، فهو مستعد أن يتفاهم مع المؤلفة عندما تعود من هذا السفر وتعال معها !

خرجت من « عند كريم » يائسا حائرا مختنقا .. جلست على أحجار كورنيش النيل بجوار « فندق سميراميس » ، أحلق فى موج النهر شاردا ذاهلا زانغ النظرات .. وفجأة .. وجدت من يصيح باسمى من عربة جيب عسكرية - وكان هو - الميجور كول !

عانقتى فى شوق ولهفة - رغم أن الانجليز يستنكفون عناق الرجال للرجال - وتجمدت نظراته برهة على منظرى البائس .. ثم قال لى أنه استلم خطابى ولكن بعد أشهر من وصوله ، فقد كان مسافرا خارج القاهرة وعاد منذ أسبوع واحد فقط . وأنه حاول أن يعرف مكان إقامتى فلم يوفق .. أنه الآن فى القاهرة نهائيا .. وظيفته ومكتبه الجديد

فى « قشلاق قصر النيل » .. يشرف على النادى والمكتبة ومشتريات الضباط من ملابس وقمصان وأحذية !

كان متعجلا ، وقد عاد ينظر إلى شكلى البائس المنهار فى أسى ، وصارحته بأننى بلا عمل الآن .. طلب منى أن أمر عليه بالقشلاق فسوف يحصل على عمل لى .. ترددت وبمشاعر حقيقية قلت له أننى لم أعد أصلح لاداء أى عمل من هذا النوع .. لم يأبه بترددى ، وكتب ورقة تصريح وعليها توقيعه كى أقابله بها غدا .

.....

وفى الصباح ذهبت . ادخلونى عليه ، وكان متربعا مبتهجا فى صالون فخم يطل على ساحة جناح هائل الاتساع والاناقة ، ومن حوله مكاتب تجلس عليها مجندات مشوقات ثم أكشاك بيع براءة متناثرة ، وأمامها تقف « فتيات البيع » ساطعات المنظر !

بمجرد أن رآنى أمر بإحضار استمارة التحاق بالعمل ووضعها أمامى لأكتبها .. عزيزى الميجور كول ، وقد صارحته مرة أخرى - بعد أن أخذتنى رهبة المكان - بأننى مازلت مترددا ، ولا أعرف فسوف أفشل فى أى عمل ، بل ماذا أصلح هنا لأى عمل ؟ .. لم يكثرث وسألنى عن آخر مرتب لى فى « جنيفة » فقلت « ٢٣ جنيها » .. أرغمنى أن أملا الاستمارة .. سلمتها له . تصفحها ثم جرى عليها بقلمه يملأ خانات أخرى ، وسلمها لسكرتيرته « سيرجنت ميديث » لإنهاء الاجراءات ، ثم قام واقفا وتعال أعرفك بخلية ملكات عش النحل الذى سوف تعيش فيه كل نهارك من الآن .. هذه هى مدموازيل « جودى » .. « بيكى » .. « اثينا » .. « نانا » .. « لويزا » .. « دوللى » .. « سيلفانا » .. « ايلين » .. « فيكتورين » . كلهن موظفات مدنيات من عائلة فقراء الخواجات فى القاهرة .. من الساكىنى ومن غمرة ، ومن الظاهر ، ومن بولاق ، والعباسية ، ومصر الجديدة .. لا توجد

بينهن مصرية واحدة ، فكلهن إما جريك أو شوام أو يهود أو مالطيات
أو قبرصيات .. شابات مزهوات الشباب وذوات جمال جرىء وأنوثة
تتلظى . نشيطات ومندلعات وروائحهن تشمل الأنف !
عرفنى بهن - ثم أوقفنى أمام « الخواجة ماركو » فى كشك الخزينة
والذى سوف أشتغل مساعده ابتداء من اليوم - وأوامر كول له أن
يعفينى من أى جهد - ثم سلمنى استمارة الالتحاق وفيها رقم مرتبى
الجديد . يا إلهى .. انه « ثلاثون جنيها فى الشهر » !

« الأجراس » _____

القاهرة ٤٢ - ٤٣ :

ومنذ شهرين ، وهذا هو منظرى فى عملى الجديد بقشلاق الانجليز فى قصر النيل .. فلاح يطل من ثنايا « الحصى » على خلية غريبة سابعة من أنواع النساء البيض .. خصوصا فى فترة الغلق من - ٢ إلى ٤ ظهرا - حينما يهدأ المكان ، وتتحرر الفتيات من الثياب والأحذية وتوكات الشعر ، وينطرحن مكدودات من الوقفة بالساعات .. يتمددن على الكتب والكراسى والسجاجيد وحتى على البلاط .. يفردن السيقان ، ويفتحن البلوزات ، وتعلو أصواتهن بالأسرار والخبايا وسرف المعلومات والمغامرات عن غريب أمور النساء .. وأنا .. أنا الذكر الوحيد القابع فى كشك الخزانة الزجاجى ، أدعى أننى أكتب وأحسب ، بينما ألعق بنظراقى على هذا السوق الحافل من أنواع النساء .. غريبات النساء ، فكل واحدة منهن تمثل نوعا وجذوة .

« نانا » الأغريقية ، بعودها الفاره وعنقها الرخامى الطويل .. « جابى » اليهودية ، بمنظرها الفجرى المتفجر .. فيكتورين القبرصية ، وجسدها الفواح تهتز به كشجرة تثقلها الثمار . « ويكى » ، ودولى و « سليفانا » . و « لويزا » ، و « ايلين » ثم

« السيرجنت ميديث » بوجهها الأحمر وشعرها الأصفر وياقوتة العين الخضراء .. طلائع سهيل غريب لفتيات عصر الحرب .. تمزيق الستار نهائيا بين الرجل والمرأة .. الحرية تنتشر إلى درجة المساواة في المجون والجنون .. مشاعري بينهن بل سباحتي بينهن ، دهشة واستطلاع وظمأ طبعاً .. ظمأ إلى حصص استطلاع جديدة ورؤيات جديدة في أنواع امرأة الحرب أو فتاة الحرب . ويا إلهي كم سوف تتغير الطباع وتنحسر التقاليد بعد إعصار تلك الحرب ، فهل سوف نغير نحن هنا في مصر .

« الخواجة ماركو » - رئيس الخزينة - وقع مريضاً بضعة أيام - وهكذا كان يجب أن أجلس مكانه ، أواجه هذا الطابور الممتد الطويل كل صباح وعلى الوجوه غبرة الحرب وذهول الحرب . نجوم حرب هتلر وتشيرشل وستالين وروزفلت ، من كل الميادين ، والقاهرة لهم محطة استراحة أو تموين .. جنرالات ، ومارشالات ، وميجورات ، وكباطن ، وصغار ضباط ، وأيادهم تحمل استمارات المشتريات ، وعليهم أن يمشوا واحداً واحداً أمام الجالس على شباك الخزينة .. طابور طويل يعلن عن ديمقراطية الانجليز حتى في سعة الحرب ، فهذا هو « الجنرال أو كنتك » أمامي والمارشال سمطس أيضاً ، و « الجنرال ديجول » الفرنسي بقامته الطويلة في آخر الصف ! .. أشكال غريبة وأنواع صاخبة فمعظمهم مخمور ومترنح ، وبعضهم سخي ومتعجرف ، وغيرهم ضحوك ولا مبال ! .. العالم كله أمامي .. طابور أمامي .. منظري وياشدة الاضطراب خوف الخطأ أو التعثر .. ثم لهفتي وحرصى أن أعطيهم نموذج المصري الجديد المتحضر . تمرست .. تمرنت ، فإنهم كانوا يخطئون كثيراً في أنواع ورق الجنيهات المصرية ، حتى جرت يدى بينهم في سهولة ، وأصبحت أليفاً للمترددين ، يتلکأون من حولي ويسألونني المشورة في غير المبيعات ! .

وذات مرة - وكان « ماركو » قد طالت غيبته - شاغلتنى مخالب

تلك الخزينة فى حادث مرعب وعجيب ! .. يومها كنت مزدحما أمام
فوج هائل من ضباط الطيران ، وكان أحدهم - وهو ضابط صغير -
يحاول أن يستأذن ليسبق دوره فهو متعجل لموعد سفر .. رفض الذين
أمامه أن يسمحوا له بل زجروه وأمره أن ينتظم فى مكانه ، فسكت
وهو يزوم محتجا ، وعلى ملاحظه شكل طفل يوشك أن يبكى .. ولكن
جنرا لا مهيبا ضخما نظر إليه عطوفا ودفعه بيده لياخذ مكانه .. هرول
الضابط نحوى وهو يعتذر عن سوء سلوكه بأنه سوف يكون طائرا فى
الهاء بعد نصف ساعة - هذا إذا لم تقابله « طائرات جورنج » فى أول
الطريق .. كان قد جهز فلوسه وطواها على ورقى الفاتورة ، فأسرعت
أختتمها له وسلمته نسخة الأصل ، بينما تركت النسخة الكربونية
المطوية على الأوراق المالية تنزلق فى الدرج دون أن أفحصها .. والذى
حدث بعد أن أنهت ردية العمل فى المساء وأغلقت أبواب المكاتب
والأكشاك ، والعادة دائما أن أكون آخر المنصرفين ، حتى أتمكن فأرتب
الحسابات وأجمع الفواتير وأفحص الأموال ، ثم أغلق الخزينة لتكون
جاهزة التسديد فى الصباح ! .. فوجئت بفاتورة هذا الضابط مطوية
على سبع ورقات من ذات المائة جنيه وورقة واحدة من فئة
الخمسين ! .. فحصت الفاتورة فوجدتها سبعة جنيهات ونصف جنيه -
إنه دفع على كل جنيه مائة جنيه ! .. قفزت من مكانى مسرعا كمن
أريد أن ألحق به .. كيف وقد مضت الساعات ؟! .. ثم « ميجور
كول » قد انصرف ! .. وسكرتيرته « ميديث » أيضا . بل والجميع قد
انصرفوا ، ولم يبق سواى أنا و « عم مدبولى » الفراش ، الذى كان
واقفا متأفقا فى انتظار أن أنتهى حتى يغلق البوابة ! .

حكيت لمدبولى وأنا منصرف عن حيرتى مع هذا الخطأ الفادح ..
الـ ٧٥٠ جنيهها تلك ، وصاحبها المسكين الطائر الآن فى علو
السماء ! .. أنصت لمدبولى وحملته فى وجهى تعلن الدهشة لأننى أحكى

له عن هذا الأمر بسهولة ! .. مثل تلك الأخطاء كالعادة لا تحكى بل تخفى فورا فى جوف الجيب ! .. استعاذ بالله من الشيطان عما فكر فيه وصارحنى بأن « ماركو » يبنى الآن فيلا فى المعادى « من عديد أخطاء تلك الخزينة ! .. نظرت إليه فى عتب ، فهل نحن مثل ماركو يا عم مدبولى ؟ .. عاد الرجل ينكش شعر رأسه ويتمتم ولكن المبلغ كبير . إنه ثروة لك ، وكأنك لم تقل لى ! .. وبخته ، نهرته ، فلست لصا ولن أكون ! .

وفى الصباح عندما حضرت مبكرا تبينت أن أحدا لم يسأل عن هذا المبلغ .. أسرع فقممت بتسديده - وعندما جاءت الفتيات وشاعت حكاية الـ ٧٥٠ جنيهها التى دفعها الطيار الاسترالى الغلبان فى قميصين وكرافتة وبنطلون ، جحظت عيونهن النهمة فى عدم تصديق ، فأنت أنت الغلبان أيها الفلاح الساذج الابله ! .. ورحن يتندرن ساخرات ويطلقن نحوى تعليقات الدهشة والاستخفاف ، بطريقة أحرجتنى بل أخرجلتنى ! .. يا إلهى - طباع فى الغريزة لم يعرفنها ! .

أقشعر دائما من النظرة على درج الخزينة ، وأمامى الأكوام والرزم من مئات وآلاف الجنيهات .. أرتعب من شكل الفلوس الكثيرة وأتساءل فى دهشة عن تقسيمة هذه الحياة ؟ .. فإن ورقة واحدة من نوع تلك المائة التى أقلبها فى يدى ، أو أقل منها بكثير ، كانت قادرة ذات يوم على تغيير مصيرى وإكمال تعليمى فى المدارس والجامعة ! .. ومن أجل هذا بت أحتقر المنظر من تلك التى أذلتنى ! .. أحتقر وأكره شكل هذا المال الذى لا أدرى هل يوزعه قدر مقصود أم صدفة ضريبة ترميه أنصبة وحظوظا ! .. لا لست أحسد أو أحقد على نصيب جعلنى ابن فلاح كادح ومكافح وطموح ، تطاول فى جراءة أن يعلم أولاده فى المدارس ذات المصاريف ! .. فشل مع الابن الأكبر ، فلم ييأس مع الثانى ، وثابر وهت مع الثالث الذى هو أنا - حتى لفظ أنفاسه شهيدا

قبل أن يكمل مشوار المعركة ! .. معركة حقا ، جيل الكفاح لهؤلاء
الآباء الفلاحين الذين تسللوا من سراديب الطين بفلذات أكبادهم
ليتلقنوا المعرفة وكرامة الحياة ، كى يأقى اليوم الذى قد يتأقى فيه أن
يتمردوا على هذا الذل والضميم والقهر الذى هم فيه ! .

طردت من المدرسة طبعاً ، فمن يدفع تلك الـ ٢٠ جنيه
« المصاريف .. بل طردت من المدينة كلها ، فمن أين إيجار المسكن
والطعام وكل الحياة ؟ .. لذت بعض الوقت ببيت شقيقى الكبرى
وزوجها فى « شبرا » وهما - فى جهاد أن يحصلألى على مجانية الفقراء
كى أستمر فى الدراسة - وهما كم مائة شهادة فقر حقيقية ، ياذل نفسى
وانتكاس رأسى وأنا أقدمها - ولكن المجانية كانت بالواسطة وكان
فرسانها دائما ياعجبى من أولاد الأغنياء ! .. يا له من قهر شحن
النفس بالاستنكار والتحدى ! .. يا له من ذل أجد فى الجوف نيران
الغضب والتمرد ! .. عشت أتلطم فى القاهرة عدة أشهر ، ثم طويت
نفسى أعود إلى قريتى ذليلاً مندھشاً ، أجلس على جسر التربة
وأحملق ! .. أحملق فى عزبة هذا الباشا البرنس التركى الذى يملك
٩٥ ٪ من حيازة أملاك القرية .. الـ ١٤ ألف نسمة لهم تنازل الخمسة
فى المائة فقط ، وليأكلوا الطين وليبلعوا الزلط ويسفوا التراب ، فهذا
قدر الله أن يكون غنى وفقير .. أطل غاضباً ومستنكراً على عزبة هذا
الباشا وقصر هذا الباشا ومراتع هذا الباشا من ثنايا شجر السرو
وأسوار الحديد ، وتأملى المعذب وتساؤلى الحارق هو عن تلك التفرقة
الظالمة وبشاعة شيوعها .. حملة ساعات أستدير بها نحو أهل قريتى
الحفاة العراة .. هلاهيل اللحم والعظم والثياب .. الأوعية الهشة
المريضة الذابلة .. مستسلمون ساكنون ، ورؤوسهم منكسة بدعاء
القناعة والرضاء بمشيئة الله ! .

ولقد فكرت وقدحت ذهنى فلا يمكن أن تكون تلك مشيئة الله . فالله

خلق الكون لنا فائق التكوين والبهاء والنماء ، وأطلق مخلوقاته من
بنى البشر - وبعد أن دس فيها أجهزة العقل والمشاعر كى أن تنظم
نفسها بنفسها ! .. إذن فتلك التفرقة الفظة وهذا الظلم البشع ليس إلا
أمورا بشرية مصنوعة .. صناعها طغاة ، أنانيون ، محترون ينتقلون
بنا من حقبة ظالمة إلى حقبة أظلم ! صناع أشرار ولا بد من
مكافحتهم .. هذا التاريخ الذى قرأته ، ودائما لا تحل الأمور إلا
ثورات يشعلها السخط ويؤججها الغضب .. وعيدان الكبريت لتلك
الثورات دائما قلم يكتب ، أو فم يخطب ، أو يد تمتد بالسلاح ! . وبدفع
الروح والغريزة فقد كانت لهفتى دائما أن أمتشق قلمنى وأخوض به
الميادين .. ومن أجل هذا وضعت نفسى فى تفرغ أن أشحذه وأستعد به
لذات يوم يلوح فيه التحدى .. ومنذ الصبا المبكر ، بل منذ الطفولة ،
أشعر بأننى أمتلك فى أجنحة نفسى فصولا تدق الأجراس إلى عديد
حصص التأمل والمعرفة ! .. هكذا انطلق التحدى معى من ذل قطع
التعليم ، فماذا تجدى تلك المدرسيات والبيكالوريوسات وورق
الشهادات ، وأمامى أكاديمية مفتوحة من أرفف مؤلفات العالم .. فكر
العالم .. غصت فى بحر القراءة وتمرست على قفز الأعماق ، ورتبت
لنفسى طريقة حصص قراءة ومراحل تأمل تمتص الرحيق من أى شىء
أقرأ فيه أو أتأمل ! .. بات مسجدى الذى أتهجد وأتعبد فيه فى القاهرة
هو « دار الكتب بباب الخلق » .. أصبح أصدقائى وأعزائى فى نواصى
المدينة هم « باعة كتب الرصيف وعربات روبايكا » الورق ! .. هذا
أنا فى بعض رحلة القطار أحمل تذكرة التمرد والتحدى ... طرقتى
الأخيرة المصممة على بوابات القاهرة الغليظة ... توغلى فى هذا الدغل
المدهش من غابة التجارب .. أولئك النسوة ، وهؤلاء الانجليز
والأمريكان وكل هذا الطابور الواقف أمامى كل صباح ، يتوهج
بحضارة الطباع وكرامة الإنسان ، يبهرنى ويستفزنى ويحرك لهفتى
ويا إلهى فقد شحنت وتكدست فمتى متى محطة الوصول . ؟

.....

وفى « ميس الضباط » دعاى « الميجور كول » إلى - سهرة بارقى - يقيمها بمناسبة رحيل صديقه العزيز « بيرجر » إلى الجزر البريطانية ! .. ووجه الدعوة أيضا إلى فتيات البيع وأى صديقات لهن حتى من خارج العمل .. ثم سألتى فلماذا لا أحضر فتاتى أنا أيضا معى ؟ - يقصد مارى - وقد ضحكت ، ونبهته للمرة المائة بأنها لم تعد فتاتى ، ومهما رأتى معها فلم تعد فتاتى ! .

« مارى » ومازلت أراها يوميا بالطبع ! .. وتيرة انتظار أقطعها فى ملل وحيرة ، وما استمرارى معها إلا التحديق المتطائر ، أبحث به عن طرف الدوبارة الذى انقطع منى ومنها ، عن بالونة « مى الصغيرة » التى تطوحها توهه الهواء الآن ! .. ولقد جئت إلى تلك السهرة مع مارى .. كانت نشيطة وسعيدة ومنتعشة ، وكنت خجولا من منظرها المسرف فى التبرج والألوان .. يا آلهى فكم أصبحت غانية ! .. سهرة صاخبة متلاطمة ، تبادلنا فيها أنا وكول جلسة الموائد ، فقد لاحظت اهتمامه الشديد منذ رأى مارى ورقص معها ! .. انتقلت إلى مائدة « ميديت » ، فمند أساييع أحاول أن أعلمها العربية ، وهى تحاول أن تستزيدنى من الانجليزية - ومسحة من تعلق جعلتها تشغف فى بعد أن حكيت لها بعض ما أحلم وبعض ما أكتب من أفكار قصص ! .. أخرج بها إلى المدينة أحيانا ، أو إلى السينما ، أو الباتيناج ، ولقد جعلتها تتعرف على بنسيون كنج فيليب ، وأحببتها بل عشقتها مدام موريس ! .. تسهر معنا وتطيل البقاء ، حتى بعد أن تمام مدام موريس ! .. وهكذا عندما لاحظت من بعيد رواج مارى بين الأيادى وخصوصا « كول » ، فما رأيك يا « ميدى » أن نترك هذا الصخب والهواء الخائى ، لنجلس فى شرفة الهواء الطلق مع مدام موريس ونقرأ لنا نبوءات الفنجان ! .

.....

وكان اليوم التالى لتلك السهرة أجازة قضيته مع « صديقى نجيب »
فى مصر الجديدة ..
وعندما عدت إلى البنسيون فى آخر الليل ، وجدت قائمة تليفونات
تكرر فيها اسم مارى واسم الميجور كول ، ثم مع آخر مكالمة رسالة
عاجلة مرحة تركها « كول » بأنه يقضى الآن سهرة سعيدة جدا فى
بيت « حارة حبيب شلى » مع الطانط ودیة أم مارى - ويستحثنى أن
أسرع بمجرد حضورى ! .. ابتسمت مندهشا ، وضحكت
مستغربا فعزيزى كول أيضا له اندلاعات الفنان ! .. و .. وأسرعت
إلى النوم ! .

وفى الصباح عندما دخلت فى مبنى العمل دهشت وحملت متعجبا ،
فقد رأيت « مارى » واقفة بكشك المبيعات ، تتلف لروئى وابلاغى
بأنها عينت منذ اليوم بمرتب « ٢٠ جنيها » ! .. قالت هذا وهى تضغط
على يدى فى نشوة وحرارة ، وكأنها منحتنى صحبة كل النهار بعد صحبة
ليل ضنين ! .. ولست أدرى لماذا تضايقت ونفرت بل تشاءمت ، فما
تلك المطاردة القدرية الشقية من الحاح ما يحدث بينى وبين هذه
الفتاة ! .

.....

.....

هذا هو الشهر السادس منذ قطع الدوبارة عن « بالونة مى
الصغيرة » التى مازالت تتطوح وتتقلب وتحوم فوق أسقف البلاط
لصاحبة الجلالة الصحافة .. كل يوم يمر ، بل كل لحظة ينهشنى الفزع
على مصرى ، ويرعبنى أن تقلع المركب كل يوم وتتركنى نائحا على
أرصفة الضياع .. وكل يوم يمر له حجم سنة تسقط من عمرى .. ولقد
أمسكنى العذاب من قلة حيلتى وانعدام إمكانياتى .. تخبطى اليأس وراء
وسيلة الظهور .. هل أظل حبيسا فى زنزانة مشروعى الفاشل هذا ،

فلماذا وبعد أن أعيتنى الحيل لا أجرب أن أتمرد وأخرج سافرا وليحدث ما يحدث ! .

نعم . كان آخر قرار لى وبعد أن طحنتنى الحيرة أن أطرق على باب الضمير المهني ! .. كتبت خطابا شخصيا مطولا للأستاذ التابعى ، أصارحه فيه بكل قصة مى الصغيرة من الألف إلى الياء .. أسجل عليه كل القصص التى نشرتها آخر ساعة وسواها ، وكيف وضح أنها لاقت الاستحسان والرواج من القراء ، فلماذا أحرم من فرصة أن أنشر ، وهل يجب أن يسخطنى الله لأتحول إلى فتاة تعجبكم وتروق لكم ، وما هذا الظلم المتعسف فى إهمال الأخذ بيد الناشئين ؟ .. خطاب طويل ، ويحمل التحدى لضميره وقلمه الذى تعلمنا منه ، وكما قلت له شجاعة الرأى ! .

انتهيت من كتابة الخطاب وأرقت به « قصة قصيرة » جعلت عنوانها نفس العنوان الذى يكتب به هو « بعض من عرفت » - العنوان الذى يملأ به القاهرة أحلاما وسحرا وتحليقا ، فهو يروى فيه لقطات جذابة عن مغامراته العاطفية والمملتهية مع بنات السين ونساء التميز وعذارى الدانوب ! .. الكونتس ، والدوقة ، والليدى ، والبرنسيس .. أوانى العسل ، وأشهى الرحيق يسكبها كل أسبوع فى الصفحة الثانية من آخر ساعة .. والناس تعلق بكل نهم اللذة والاعجاب .. قصتى هنا ووقائعها فى القاهرة .. وموضوعها « مجندة بريطانية حسناء » تشتهى لنفسها طفلا من عصر أمراء الفراغة ، وعندما تقع على أميرها المنشود فهذه هى قصتها الغريبة معه ! .

غلقت الرسالة مع القصة ، وتوقيعى عليها باسمى الصريح لأول مرة .. وخرجت أبحث عن صندوق البريد ! .

.....

أحسست بالرعب عند أول صندوق بريد أقف أمامه ! .. أن ألقى هذا الخطاب فهذا يعني إعلان الفشل النهائي لمشروع مى الصغيرة ؟! .. جيتت .. لم ألق بالخطاب بل استمرت أمشى وأسمع بانسا حائرا ، وكلما هممت أن أتوقف أمام صناديق البريد الكثيرة التى تقابلنى احتجت إلى شجاعة أكثر ، فأؤجل إلقاءه إلى صندوق آخر ! .. أمشى وأمشى وكلما فكرت أن أتوقف أمام أحدهما ، أعود وألوى عتقى إلى صندوق آخر ! .. العتبة الخضراء ، ثم شارع الأمير فاروق ، ثم ميدان إبراهيم باشا . ثم شارع فؤاد الأول ، ثم شارع عدلى باشا ، ثم شارع سليمان باشا ، ثم ميدان باب اللوق ، ثم .. ثم أتوقف أمام صندوق البريد المعلق على حائط عمارة فارهة من ناطحات القاهرة الحديثة ! .. مازالت يافطة « مجلتى » التى كان يصدرها « أحمد الصاوى محمد » موجودة ، وكانت شهرتها - « الباخرة التى تسير » - توقفت عن الصدور بعد أن استهلكتنا لهاثا وانبهارا من خلفها ! .. « مجلتى » هذه كانت باخرة براقة ، ظهرت فجأة لتمخر العباب فى أرجاء الأحلام المصرية .. أول صحافة مزهوة بطباعها الحديثة وفخارة ورقها المصقول وزهو الصور والألوان والرسوم .. وكل عدد فيه باقة من صور تتوهج لأحلى وأشهى بنات الصالون المصرى .. بنات الذوات والهايلاف بشعورهن المعقوصة ، وأكتافهن العارية ، ونهودهن البارزة ، وطراوة الابتسامة ، وسحر العيون والجفون .. يكتب فيها فرسان القلم : « توفيق الحكيم ، وطه حسين ، والعقاد » ، ونجوم جدد تتنازل من أعلى مقامات المناصب .. ومحفة عطر مطهمة وذات رياش يخفق لها القلب ويندلع معها الحلم والخيال .. تحولت « مجلتى » بالصاوى إلى نجم الأحلام فى السماء المصرية ! .. عاشق فرنسا والسوريون وليالى باريس ! .. كازانوف العصر ودون جوان الجليل وروميو أمير العشاق ! .. مترجماته وكتبه الجواهر عن أفذاذ فرسان الغرام ! .. تدفق بنفسجى فى عيون وأفئدة الناس ، والصاوى

يسك له عصاة الحاوى الماهر الأريب ! .. ولقد تعطف على الناشئين بالاعلان عن مسابقة لهم فى القصة والمقال والبحث والنقد - وكنت مازلت تلميذاً وبتيا جديداً ، فاجتذبنى مغناطيسه القوى أن أطرق الباب على « مجلتي » تلك ذات ضحى ! .. أول مرة أخذ الشهيقي فى أجنحة البيوت من بلاط صاحبة الجلالة .. فى يدي كشكول بائس المنظر ومنظرى معه أشد يؤسا .. حذائى المرتوق ، وبدلتى الكالحة ، وقميصى البالى ، وواضح أن الفقر الغليظ قد وشم بالختم الكاوى على كل مساحة من وجهى ومنظرى ! .. دخلت متردداً مرتجفاً وانحنيت أمام شاب أبيض صغير - من سنى تقريباً - يشغل سكرتيراً له ، فمن أوصله هذا المحفوظ إلى تلك الخطوة .. اسمه « سامى » - وكان مؤدباً ودوداً خفف من حيائى بحماسة لكتاب كان يقرأ فيه - من خطب وطنيات « الزعيم الشاب مصطفى كامل » ، وقد أنصت له طويلاً ومعجباً .. ولكن عندما جاءت الفرصة أن ينصت هو لى ، بادرنى بأنه غير مقتنع بجذوى اللقاء مع أستاذه الكبير ! .. تركت له الكشكول ، ورجوته أن يحاول ويختار منه أى قصة لدخول مسابقة الناشئين ! .. تلتطف ووافق ، وبينما هو بهم بتوديعى ، فتح الباب عن جناح « الصاوى العظيم » ، لتخرج منه لفحة من عطر فواح ، عرفتُها من صورها فهى الشهيرة ذات الجمال وبنت الذوات « أمينة البارودى » ، والصاوى يودعها بكل أتيكيت وأناقة الباريسيين .. التصقت بالحائط أحاول أن أخفى منظرى الزرى ، حتى عاد من توديعها فتوقف أمامى وأمام سامى ونظر إلى شكلى ، ولست أدري ماذا أضحكه ! .. قدم له سامى الكشكول وهو يهمهم مبتسماً مشيراً نحوى بأننى أريد أن أدخل فى مسابقة القصة ! .. وبينما هو يقلب فى الكشكول لاحتقته أقول له صادقا ومن القلب بأننى معجب بأسلوبه ولألى تعابيره ! .. ابتسم مغتبطاً ، وربت على كتفى كأنه يسمح على ظهر جرو مشرد ، وتلطف يسألنى أسئلة كثيرة وسريعة ومتلاحقة ، فأجبتُه فى

فأفأة وتأنأة وتأنأة ، عن مدرستى وقريتى وهفتى أن أكون كاتباً .. فعاد يربت على ظهرى فى رقة وهو يدفعنى نحو الباب ، بعد أن أمر سامى أن يقرأ فى الكشكول ويبدى رأيه ! .

خرجت يومها وأنا أكاد أتطير فرحاً وأملاً .. وبعد يومين أو ثلاثة - وكان العظيم الصاوى - يكتب أيضاً عاموده اليومى فى الجبارة « الأهرام » وفى الصفحة الأولى .. أشهر باب صحفى على الإطلاق ، فوجئت منه بهراوة ثقيلة ظالمة تنزل فوق رأسى ، فقد روى عن لقطة لقائه بناشئ خيالى حالم من أولاد الفلاحين - وإن لم يذكر اسمى - وأشفق عطوفاً على جيل الناشئين الزاحفين من غيطان الريف وخيالهم أن يقودوا الوجدان والعقول ، فلمن يتركون الحقول ورعى الجاموس ؟ ! .

يا شدة التأثير يومها ، بل يا شدة القهر واليأس والغضب والجنون ، .. يأس أوشكت معه أن أعود إلى مذلة الفأس والمقطف والركوبة ، بعد حلم القلم والورق والمكتب ! .

.....

صندوق البريد ، فى عمارة « مجلتى » .. ومرة أخرى أتشاءم منه بل أشيح وأستعيز أعود وأمشى لأتوقف عند « آخر ساعة » فى عمارة بحرى ، فهل أصعد وأسلم الخطاب يدا بيد ؟ .. لا . وأحسن أن يكون فى البريد ! .

عدت أمشى فى اتجاه شارع قصر العينى .. الشارع الذى يجذبني إليه بأقوى المغناطيس هنا مملكة النشر والصحافة ودور الأحزاب .. هنا بلاط صاحبة الجلالة الصحافة .

« ٣٠ » مجلة وجريدة متناثرة فى شقق وبيوت وقصور وفيلات .. تعبت من المشى .. كان يجب أن أحسم ترددى المذهب ، فتوقفت أمام صندوق بريد الجمعية الجغرافية الملكية ، وأخرجت الخطاب من جيبى ، ورفعت يدى لأسقطه فى الشق .. وفجأة .. فجأة ..

وجدت شابا يحملق في وجهي ويمسكنى من ذراعى .. باسم ،
وطويل ، ووسيم ، وأخضر العينين وممشوق القوام .. من ؟ من ؟ .
« حازم فودة » ؟ .. زميل النيل الثانوية ؟ ! .. ويا لها من مفاجأة ! ..
أنه يدير « مجلة سياسية وفدية » اسمها « الساعة ١٢ » .. يا إلهى ،
لقد قرأت اسمه عليها فلم أصدق أن يكون هو ! .. تبادلنا العناق في
حمية وحرارة ، فكم تنافسنا ولعا في الكتابة وحصص الأدب والشعر
والانشاء ! .. تمشيت معه وذراعه في ذراعى المرتعش .. يخفق قلبى بقوة
وهو يقول أنه يعد عددا خاصا لمجلته عن « القصة القصيرة » ، ثم
يسألنى فجأة سؤالا مباغتاً غريبا ، وكأنما السماء تنشق لى فجأة عن
سحر معجزة .. يسألنى فهل أعرف عنوان الكاتبة « مى الصغيرة » ،
فإنه يبحث عنها له أسابيع لينال منها قصة لعددته الخاص المنتظر ! .

« الحطة »

عندما سألتني « حازم فودة » فجأة - إذا كنت أعرف عنوان « الكاتبة مي الصغيرة » ، فهو يريد منها قصة للعدد الخاص الممتاز الذي سوف يصدره قريبا من مجلته الساعة ١٢ .. توقفت بل ارتعدت وشحب وجهي فلماذا يسألني أنا بالذات ؟ .. هل يعرف ؟ .. كيف ؟ .. ومن قال له ؟ .. نظرت إليه مستطلعا فوجدت وجهه لا ينيئ عن شيء ، فسألته مترددا وأنا أخفض رأسي لأخفي انفعالات وجهي - ولماذا تظن أنني أعرفه ؟ .. قال - لا أدري فهو مجرد خاطر ، فأنا ، أعرف عنك منذ زمان أن لك الأنف الحاد في تشمم الكتابة ومن يكتبونها ! .

أوشكت في لحظة ضعف يائسة أن أقدم له نفسي فأنا هو « مي الصغيرة » .. ولكنني تراجعته سريعا ، فكم سوف تعلقو سخرية ضحكاته ! .. ضغطت انفعالي وأجبتني في هدوء - نعم أعرف ! .. تهلل وجهه متعجبا غير مصدق ، وأدهشه أن الخاطر الذي ألقاه عفوا قد أجاد التصوير ، فقال متحمسا - إذن هيا نذهب إليها فوراً ونتفق معها ، وباليتمنا نحصل منها على صورة ننشرها مع القصة ! .. عدت أنفوس في وجهه .. برىء تماما ولا ينم عن أى شك أو هزار ! .. أنها

إذن رمية قدر تلقى طوق النجاة في آخر لحظة .. إنقاذ مى الصغيرة في آخر لحظة .. استرددت نفسى .. ابتسمت .. ضحكت .. أخذته من ذراعه في حماس - وعزيزى حازم ، ما رأيك أولاً في تناول فنجان قهوة في محل « إيسافيتش » القريب هنا ، وتعال احك لى أنت أولاً عن مفاجأة أنك الآن صاحب مجلة ؟!

.....

الليلة عيد ميلاد صديقى « الميجور كول » - وقد أعد له السهرة مجموعة من أصدقائه وزملائه في أبهاء « عوامه » أنيقة راسية على شاطئ النيل « بجوار كوبرى الزمالك » - وكان قد دعانى بل أشركنى في الاستعداد لها بطريقة ، نريدها ليلة شرقية فنانة مثل ليلالى « جنيقة السويس » ، وملعونة تلك الحرب ومن شنوها ! .. كما دعا أيضاً كل فتيات البيع - وأولهن « مارى » وكل أسرتها بالطبع ! .. علاقته بمارى تبادت واستشرت ، ويخيل إلى أنها أصبحت منه إيفالا وتعلقا محموما .. أبدا لا شأن لى بهما ، فشتونى مع نفسى أهم وأكبر ! . لقد رغبت أن تكون مفاجأتى لسهرة عيد ميلاد « كول » أكلة فته شعبية - بكل التحايش والتحاويج ، من صنع صديقى الكبابجى الشهير « أحمد العجاقى » بشارع فاروق ، يصحبها « أنجر » محشود بلحوم الكباب والنيفة المشواة ، وأطباق متنوعة من سلطة الطحينة والطرشى البلدى الحريف - حددت لمواكبها توقيت الوصول إلى سهرة العوامه ، وكانت التكاليف باهظة وقاصمة - ٢٣٠ قرشا معلش - .. ثم أيضاً مفاجأة الليلة الشرقية الفنانة ، فقد دعوت معى مجموعة من أصدقائى وأصدقاء « نجيب » منهم الموسيقار الشيق العجوز « سامى الشوا » غازف الكمان الذائع الصيت ، ثم هذا المطرب الجديد « الكحلوى » وكان قد بدأ يروج فى القاهرة بمواويله البدوية ، ثم راقصة البسفور الجميلة « عزيزة سامى » ! .. وهكذا مع

امتداد السهرة تحولت هديتى فى عيد الميلاد - طبق الأكل وطبق
الفن - إلى كل السهرة .. الفتة والنيفة والكوارع التهمها الانجليز
وبنات الانجليز ولعقوا الأصابع ! .. ثم كمان « سامى الشوا » - وله
الله عندما عزف عليه لحن « يا عزيز يا عزيز كبة تاخذ الانجليز ! »
وعندما فسرتها لهم ضحكوا وصخبوا وتساحوا ثم مواويل الكحلاوى ،
ورقص عزيزة سامى وكيف أبهجهم وأثملهم إلى درجة التطوح والتمرغ
والصياح ! .

.....

يمتد الوقت ومازالت السهرة مندلعة وصاخبة .. أتسلل إلى شرفة
العوامة ، وكان القمر بدرا والنيل يتلأأ .. نسيم أبريل الرخى ..
وأحاول أن أزن رأسى مما يوج فيه من أفكار بل من هائل الأفكار ..
وما نشاطى فى تلك السهرة وزجى بنفسى فيها لأكون صانع معالمها ،
إلا الاحتفال الخاص بنفسى .. انتهاء فترة الاستجمام المرهقة البائسة
التي كنت ضائعا فيها أحلق فى هذا الحبل الذى أنقطع من بالونة « مى
الصغيرة » .. ها هو الحبل يعود يا إلهى متقطعا متهافتا ضعيفا ، ولكنه
بات ممسوكا فى يدى .. هذا اللقاء الخرافى منذ ثلاثة أيام مع « حازم
فودة » واتفاقي معه أن أبدأ النشر ! .

« مى الصغيرة » أصبحت محجرة « فى مجلة الساعة ١٢ » ! ..
تكتب كل أسبوعين قصة قصيرة ، ثم كل أسبوع « باب » للنقد
والتعليقات - ولها كل الحرية أن تكتب ما تشاء ، فكل ما تكتبه سوف
ينشر إلا ما سوف يشطبه الرقيب الانجليزى والرقيب المصرى ..
والمرتب « أربعة جنيهات » فى الشهر - وهو مرتب يعلو عن تسعيرة
المرتبات فى كل الشوارع الصحفى ، والذى لا يزيد أبدا الآن عن ثلاثة
جنيهات .. مع اشتراط أن يظهر الاعلان عنها فى « الأهرام » مرة ،
وفى « المصرى مرة » يوم صدور كل عدد ، ويكفى أن يقال فيه « مى

الصغيرة « تظهر في الساعة ١٢ .. هذا هو اتفاقى مع « عزيزى حازم » في جلسة « ايسافيتش » التاريخية ، والتي أحسست معها أن مرحلة طارئة وهامة تطرق الباب على حياى لتوقظ ما هجع وخذ من أحلامى البائسة ! .. اتفقت معه على البدء من هذا الأسبوع بالباب الجديد والقصة القصيرة ! .. مواصلة أكاذيب بيضاء منى ، أرجلها وأختطفها وليغفر لى الله كل تلك الحيل المؤثرة البريئة ، وأنا أناضل غلظة هذا السور من حول بلاط حبيبى المشتهاة صاحبة الجلالة !

.....

لى ثلاثة أيام الآن منذ قابلت « حازم » ، وكان آخر كلام بيننا أن ، دعنى بضعة أيام حتى أتمكن فأقنع « مى الصغيرة » وأبلغها بالاتفاق ! .. مهلة تردد وتفكير ، أعطيتها لنفسى كى أقرر وأتأهب ، فالساعة ١٢ فى قطار الصحافة ليست إلا « عربة سبنسة » ، فها أدراى لو تعجلت الالتجاء بها الآن أن أظل بقية حياى قعيد المؤخرة الصحفية ؟ .. حلمى وتشبثى هو « آخر ساعة » مثلاً أو « المصرى » مثلاً أو « الأهرام » ، ياليت ، أو هذا الهرم الجديد الذى يبنون أنهم يشقون له الآن جوف الأرض ليظهر فجأة ويصبح معالم ! .. « مشروع أخبار اليوم » ، وما يقال عن قرب ظهورها ! ... ترددى واهن ودلوعة وضعيف الإرادة ، بل تدليل خطر لأحلامى المتلهفة والمتلاطمة منذ زمان فى متاهة السرابات ، بحثا واكتشافا عن أية محطة يمكن أن أركب منها الاكسبريس الصحفى .. ولقد أبلغت « حازم » اليوم تليفونيا بيشرى موافقة « مى الصغيرة » على التحرير فى الساعة ١٢ ابتداء من هذا الأسبوع .. هكذا حسمت التردد .. وهذا أنا بسهرة تلك الليلة أنهى استجمامى وأفرك يدى - فمئذ الصباح المبكر سوف أستلم « مائدة كازينو البسفور الرخامية الناعمة » ، فى الركن الشاعرى الهادئ ، وأمامى فنجان القهوة الدسم ، وكوب الماء الثلج - وتعال ياقلمى المحروم خذ فرصتك وحظك ! .

.....

مازلت سارحا مع النيل والقمر على سور شرفة العوامة .. نحن في
أبريل وربيع مصر الفواح يعبق ويسرى في شعاعات القمر .. النيل
والبدر في اكتماله .. وآه يا بلادى الجميلة العريقة ، يا كنانة الله وفتنة
الزمان ، متى تجمعين شعث نفسك وتراثك وتأنهين لمستقبلك
وطموحك؟! .. من خلفى « الزمالك » وثم « بولاق » ، ثم
« شبرا » ، ثم « روض الفرج » ، ثم « القناطر » .. ومن أمامى
« أمبابه » ، وبعدها « بشتيل » ثم « أوسيم » ثم « المناشى » ثم
برقاش ثم « القطا » ، ثم أبو غالب « ثم قريتى الراكدة في تابوت القهر
والحرمان والمهانة . أهلى الغائصين كالدود فى الطين .. جسر الفقر
الطويل الذليل قبلى وبحرى ومن ثناياه تطل فسيح المراتع والعزب
والقصور والأملأك للنبشات والخواجات والاقطاعين .. قريتى البائسة
المحرومة ، وقد طالت غيبتى عنها .. بعدت نظراتى عنها .. وسوف
يكسرنى الخزى إذا رمقنى بعض أهلها فى منظرى المزيّف البادى هذا
كأبناء الأغنياء اللاهين أو أبناء الخواجات الصاخبين فما أدراهم بأن كل
هذا أكاذيب وأقنعة بمثل أكذوبة وأقنعة البريئة « مى الصغيرة » ! ..
ردائى هذا ومنظرى هذا ووقفى تلك ، مجرد مطروف يطوى رسالة
مندوب من الفلاحين فى الوحل والظلام إلى أهل القاهرة فى الابهاء
والأنوار .

.....

القمر والنيل من سور الشرفة .. هيمان الاحلام بل سحر
الاحلام .. نقرة الربيع على القلوب والمشاعر ! .. وأشعر أن جسماً
دافئاً بضاً يتسلل ويلتصق بى .. إنها « السيرجنت ميديث » ،
السكسونية فاخرة الانوثة ، يجذبها منظرى السارح مع النيل والقمر ..
كانت ثملة ونشوانة فاشتد التصاقها بى ، بل لفت ذراعها من حولى فى
ضمة شغف أن تأخذ كل الجرعة من سحر المنظر وإغرائه .. كان

جسدى بارداً ، ورغبتي خامدة ، وأتني لو لم تتمادى بفمها الذى أخذ يتكور مستدعيًا ومتلمظًا للقبلة .. ولست أدري كيف شاء القدر أن تظهر « مارى » فى تلك اللحظة بالذات لترانا هكذا .. وتبدأ معنا مأساة السهرة ..

« مارى » وقد شربت كثيراً بحيث فقدت الصواب والاتزان - وهكذا ما كادت ترى منظرى الملتصق بميديث حتى اندفعت فى رعونة وهمجية نحو الفتاة وقد أخذتها الغيرة تشدها وتبعدها وهى تطلق هلوسة وهذيانا تريد أن تقول به أن هذا الرجل رجلى .. غضبت وثرث واستنكرت ، وزجرتها أن تفيق من خمرتها الثقيلة فلست رجلها ولست رجل أى امرأة ، ولاداعى لفضائحها فى كل مكان .. ولكنها صغبت واشتد هياجها ، وتماذت فرفعت يدها بالحقيقية تهم أن تضرب بها ميديث ، فلحققتها أمسك ذراعها وأنا أدفعها بعيداً ، فانزلقت قدمها ووقعت بجوار سور الشرفة .. قامت تيكى وتترنج وتصرخ ، وعادت تتجه إلينا لتكمل المعركة وهى تتساند على السور .. ثم فجأة - ياللهول - تدرجت كالخشية من فوق سطح العوامة لتسقط فى النهر !

وقامت ضجة الفزع والصياح .. هبت العوامة كلها لرعب الحادث .. وأسرعت أقفز لأنزل حيث سقطت فوجدتها محشورة فى الماء بين الشاطئ وجانب العوامة ، وهى تضرب بذراعيها فى صرخات هستيرية هلعة مستنجدة !.. قفزت فى الماء حتى تمكنت فأمسكت بها ويدى تحاولان تخليص ثيابها من أسلاك قد انغrust فيها ... وبينما أحاول ذلك وقعت بكلتا يداى على منطقة من قاع الماء الغائض ممتلئة بشظايا الزجاج وأسياخ لها حدة المنشار ، فرحت أجرف الشظايا وأخلص الأسلاك بيدي حتى تمكنت ورفعتها لتتناولها منى الأيادى !.. ووقفت برهة لاهثاً مروعاً أتأمل هذا الدم الغزير الذى انبثق من جروح الشظايا والأسلاك فى يدي وذراعى !.

ودهبنا إلى « المستشفى العسكرى الكبير » بالعجوزة .. مارى فى حالة اغماء ، وأنا بالدم النازف الذى حاولت عبثاً أن أوقفه بربط المنديل !.. وتبين أن مارى لم يحدث لها إصابات ذات خطر إلا من خرايبش ورضوض خفيفة .. أما أنا فقد خرجت من المستشفى تلك الليلة ويدائى تعلوها رباطات لفائف كثيرة ولن تفك حتى تلثم الجروح بعد أسبوع أو أسبوعين !.

.....

هذه الفتاة المدمرة « مارى » وماحدث بسببها .. قدر صارم أن تعود بى إلى حصة التردد مرة أخرى .. أصابعى باتت سجيئة فى تلك الأربطة فكيف أنفذ الوعد بالكتابة ؟.. وفى التليفون ، عزيزى حازم معلش ، فمى الصغيرة تخلف وعدها فللأسف قد فاجأها المرض وليس بوسعها أن تنفذ الاتفاق إلا بعد أسبوعين .. صدم حازم وظن هذا انسحاباً أو تراجعاً ، وراح يعتب بأنه أستعد باخلاء الصفحات ، وجهاز الاعلان للأهرام ، وتساءل فى شك إذا كنت أضحك عليه أم ماذا ؟ ولكنى أكدت له أنها سوف تفى بوعدها بمجرد انتهاء محنة هذا المرض الطارئى معها ! لى أيام وأنا حبيس حجرى فى « بنسيون كنج فيليب » بيدائى المربوطتين ، وأنا معها عاجز عن فعل أى شىء !

« مارى » وقد شاع عنها منذ ليلة العوامة - بأنه كان منها محاولة انتحار لأنها مازالت تحببى ! .. وتضخمت الإشاعة التى نفيناها بشدة طبعاً ، سواء جاء النفى منى أو من مارى .. مارى تنتحر فهل هذا معقول ؟ .. الرجال فقط هم الذين ينتحرون حين يلقون بأنفسهم فى حمم بركانها .. ولكن عزيزى العاشق « كول » ماأشد إشفاقى عليه - بدأت نظراته المعاتبة الغريبة يوجهها نحوى ، وهمس بنات البيع من حولى ، ولفئاتهن المزعجة بحيث بت أحس بالحرج والسأم من العودة إلى قشلاق قصر النيل هذا !

يعاودنى القلق والتردد مرة أخرى ، من حول عودة الظهور لى الصغيرة فى مجلة صغيرة حزبية مثل الساعة ١٢ ..! إنها واحدة من عشرات المجلات الصغيرة التى تتغازل فى السوق تحت أجنحة الاغداق من « حزب الوفد » الحاكم .. تتعيش من الوفدية .. لا بأس ولا مذلة أن تتعيش من الوفدية فكل البلد وفدية !.

« الوفد » فى قمة رواج الحكم وثباته .. « النحاس باشا » هو الزعيم الأوحد وقطب الجماهير بل هو ملك الجماهير ، « وسراج الدين باشا » هو ولى العهد اللامع ، والوفديون فى كل مكان هم الغطاء الوطنى والسياسى ..! والمعارضة مضغوطة بئسة فهى خلايا متأججة تنصايح فى شوارع مهجورة .

مجلة الساعة ١٢ خفيفة الوزن جدا .. لا ثقل لها البتة ولا لمعان فى هذا السوق الضاوى هادر الأنوار بل هى شاحبة وتوشك أن تضمر وتنصرف مثل سواها .. لقد ظهرت ساطعة ولامعة وجامعة ، ولها قافلة كتاب جذابون لمدة أشهر قليلة فقط ، ولكن السوق الجامح ماأسرع مالكمها لتتكسر وتتهاوى فى انكماشة الرصيف .. ولقد استأجرها « عزيزى حازم ؟ الوفدى جداً عن إخلاص وعقيدة أعرفها فيه منذ الصبا - من صاحبها « الشامى » حائز الرخصة « وديع شبلى ».. ولعله فكر فيها أولاً كمشروع تجارى يمكن أن يبدأ به مستقبله ، فالصحافة إذا أخلصت ونجحت وضرب معها الحظ فهى رواج واغداق ثم ثانيا كمشروع سياسى يرضى به عقيدته الوفدية المقتنعة - فقد كان حزيباً متحمساً ويريثا !.

وعندما قابلته ، كانت أحلامه التجارية البريئة والشريفة قد خبت وتواضعت وسط طاحونة هذا السوق ، ولكنه استبقى لعزيمته وإرادته ،

حماسه الوفدى ليرفع به رأسه فى وجه هذا السوق المتغطرس المحتكر !.

لم يكن هناك ما يغرى باختلاف تلك المجلة عن بقية الكتاكيت الصحفية الصغيرة الموصوة ، والتى تلتهمها دائما أفواه الصقور من صحافة الشوام واليهود والمخابرات البريطانية .. صف مجلات بانس يتصور ، مثل « التلغراف » ، و « المصرى أفندى » ، و « الشعلة » و « العزيمة » ، و « الصرخة » ، و « الصاعقة » و « الرأى العام » ، و « رابطة الشباب » ، و « الحوادث » ... الخ ... الخ ... لا جديد لديهم فى السياسة إلا أن النحاس هو الزعيم الأوحى ، وسراج الدين هو الوطنى الأسطع ، وملعون آباء وجدود « صدقى » و « محمد محمود » و « حلمى عيسى » و « مكرم » ، وبقية الأوعية من المطبخ السياحى المحشود ! .. لا جديد للقراء إلا القفش والتنكيت وغريب الأنباء من صالة « بديعة » و « بيا » وراقصات الحانات وأيضاً أولئك الغانيات من طبقة بنات الهايلايف ونساء الصالونات ، وعن أسرار درية هانم ونعمات هانم وسوسن هانم ، وغراميات ومغامرات عائشة فهمى ، وتاتا زكى ! .. ثم القصص والمترجمات الراكدة ودائماً لها مكان الهامشيات فى صفحات الاعلانات ! .. ولهذا خطر على بال « حازم » أن يقدم هذا الاختلاف من جذوة « مى الصغيرة » التى توهجت فجأة كما اختفت فجأة !

كانت القصة القصيرة فى ذاك الحين أو فى تلك الأشهر بالذات - وأقولها بلا ادعاء - قد دقت خاطف الأجراس لنفسها فى الساحة الخاملة الراكدة منذ لاحت تلك القصص البراقة ، أو تلك الشهب اللامعة .. الاثنى عشرة قصة التى نشرت تباعاً من دار آخر ساعة ودار الهلال تحمل اسم مى الصغيرة .. كانت مفاجأة تقليب وجراً تجديد فى تقليدية القصة القصيرة وتحفظها الفاتر وقشرها المتهافت .. هيجت شهية القراءة فى الناس للقصة القصيرة ! .. نعم منذ مرقت

« مى الصغيرة » على السطح الراكد اهتز نهر القصة القصيرة وبدأ يأخذ الحركة والمجرى ، فهذا هو « حازم فوده » وسواه يتأهبون لإصدار أعداد خاصة عنها .. هناك قصصيون كبار وأساتذة رائعون يملأون الساحة طبعاً . « محمود كامل » و « سعيد عبده » و « يوسف حلمى » و « تيمور » و « صلاح ذهنى » و « فجر » و « أدى » و « طاهر لاشين » - ولكنهم باتوا فى أوعية الهواية والتسلل بمثل الطعم الواحد .. نفس الطبخة التقليدية من مجتمع يتدارى بعورات نفسه ، ويتلفح بكثيف الثياب ليخفى الأورام والعورات من جراحات أعماقه ونزيف حرمانه ! .

هكذا مجلة الساعة ١٢ خفيفة فى الوزن جدا ، وتوزيعها هابط وتنافسها كاسد ، ولا أمل يرتجى فى أن تماشى العمالقة الكبار ، فهى بالنسبة لمجلة مثل آخر ساعة أو الاثنين ، مجرد واحد يركب البسكليت وعلى طريق المنافسة مع واحد يركب البايكار ! .. المجلة السنيسة والواقفة على المحطة « اهلّت » ، وليس هناك من معالم إلا الرصيف ، بقايا الرصيف ، ولسوف أتوقف عنده فى انتظار أن يلمحنى أصحاب الجلالة عظماء المحترفين ، فهم خلية التأثير الكبرى .. هم أزرار الإضاءة لاشارات المرور .. نعم سوف أتراسل بذبالات ضوء تلك السنيسة مع أنوار « التابعى » و « أبو الفتح » و « مصطفى أمين » و « أولاد زيدان » و « أولاد تكللا » و « أولاد صروف » وبقية وجهاء البلاط الملكى الحافل - ولهفة ذات يوم أن يطلوا من الشباك على راكب السنيسة اللاهث فيلحقوه بقطارهم الفاخر ! .

وفى « كازينو البسفور » دعوت « حازم » أن يقابلنى ، وأعطيته أول قصة وعنوانها - « وداعا يا عشش الترجمان » ، و « أول باب » - وعنوانه « لو » .. جلست بجواره ، وتركته يقرأها وقلبى يخفق برعشات الامتحان .. أغلقت عينى وحواسى كى لا أتبع

ملاحظه ، بل استدرت وأعطيته ظهري كي أخفى اندلاع قلقي ولهفتي
فرجا يصدمني بأنها ليست هي ! .. وأخيرا ، أخيرا - وجدته يهزنى من
كتفى وعيناه تسطعان بفرحة نهمة ، ثم مدلى يده فى حماس لم يقدر على
إخفائه ، يشكرنى ، يشكرنى ، ويا إلهى يالها من فتاة ، فأين
كانت ؟ .. ولكن أين صورتها ؟ .. بل أين هي بنفسها ؟ ! .

أغمضت عيني مرة أخرى .. وتتواصل معى الأكاذيب والتمثيل
الأبيض معلنهش .. وعزيزى حازم يجب أن أصرحك فتعرف حقيقة
المأساة عن هذه الفتاة .. أنها مشلولة منذ حادث تصادم وقع لها فهي لا
تقدر الفراش أبدا ، ثم يفزعها أن يراها أى رجل غريب وهي بهذا
الحال ، ثم ما جدوى أن تراها أو تقابلها وهذا أنت ترائى أمامك أودى
المهمة ؟ .

ابتسم حازم وهو يفرس عينيه فى وجهى مستسلما ، وغمز بعينه
يسألنى - حتى ولا صورة ، فقد سمعت أنها جميلة وشقراء ؟ .. قلت فى
إصرار وأنا أهز رأسى ، حتى ولا صورة يا عزيزى حازم ! .. بقى
يتفرس فى وجهى مفكرا وسارحا ، وأخذت تتسرب إلى وجهه الوسيم
ابتسامه مربية أخذت تتسع رويدا رويدا ، ويوشك بعدها أن يصارحنى
بالحقيقة التى يحس بها - ولكنه سحب ابتسامته سريعا ، وطوى المقال
والقصة فى عناية ، ووضعها فى حقيبته ثم حيانى قائلا : وإلى اللقاء فى
الأسبوع القادم ! .

« البوابة » _____

خطواتى تنهذى وتتردد فى شارع قصر العبنى .
الساعة الآن الرابعة بعد الظهر - وعندى ميعاد فى السادسة فى مقر
« مجلة الساعة ١٢ بشارع محمد باشا سعيد » ! .. لأول مرة سوف
أدخل دار تلك المجلة ، فاليوم عيد ميلادها الثانى - وقد أعدت حفلة
صغيرة لأسرتها مع الأصدقاء والزلاء يقيمها صاحبها « حازم
فودة » .. ولأن لامعة الأسرة « مى الصغيرة » غير قادرة على
الحضور ، فيتحتّم - كما شدد حازم - أن أكون مندوبها الحاضر حتى
ولو جلست بينهم صامتا بلا كلام ! .

.....

نحن فى سبتمبر .. و « مى الصغيرة » تتربع الآن على شهرها
الخامس فى حاشية من هذا البلاط الصحفى الصغير « الساعة ١٢ » .
تتربع فيه بل تتألق .. « القصص واليوميات » ، ثم هذا الباب المثير
الجديد « برج بابل » - و « رخا الرسام » كل أسبوع يتفنن فى رسم
العنوان - البرج الشاهق ، وفتاة عصرية فاتنة تتسلق السلام إليه ،
وفى يدها « قلم » له شكل السونكى المسدد ! .
قلم له شكل السونكى المسدد طبعا - فالأعداء أمامها ولا

سواها - هما « الفقر » و « الحرمان » ! .. نعم ، فماذا يكون أعداء بلادها في جيل تمشيظ الحرب هذا ، إلا الفقر الغليظ يغطيها ويطنح فيها من الاسكندرية إلى أسوان ، والطحاحون البشعون هم الاستعمار والفساد والاقطاع ! .. ثم هذا الحرمان الباهظ المكس المرهق ، الرافض لأى تفتح أو تنفس ، والمزاليج على بابه وعليها سلاسل من قهر وكبت وعقد وغليظ تقاليد ..

فتأتى الفتاة البازغة أصبحت ضجة صحفية ! .. باتت انتشارا وفضولا وإثارة ! .. طنينها يسرى يوما بعد يوم ، وعطرها المثلث يعبق ويفوح رويدا رويدا ، ويريدها المنهال يكبر ويتضخم أسبوعا بعد أسبوع ! .. بريدها ينهال ، وأنا شديد التوارى ، مصمم على التوارى ، وحازم يضعه بين يدي في اللقاء الأسبوعى على المائدة الرخامية بكازينو البسفور مبسوطا ومنتشيا وحائرا .. توزيع المجلة آخذ في التصاعد ، ولولا غلو الورق في السوق السوداء لطبعت منها عشرات الألوف ! .. ولكن الحيرة معه كيف يرد على السؤال الصعب الذى بات ضغطا والحاحا بل مطاردة له في كل مكان .. سؤال ، من هى « مى الصغيرة » ؟ .. أين هى مى الصغيرة ؟ ! .

عدة مرات يفتحنى في هذا الأمر ، ونهرب سويا منه وفى سرعة إلى أمور أخرى ! .. كلانا أنا وهو لا نريد أن نصل إلى حسم المصارحة فيه .. أنا أشدد وأغالى على أن مى الصغيرة موجودة وعندما تشفى سوف تظهر له وللجميع .. وهو يستقبل منى هذا التأكيد فى دهشة وحيرة بل يعتبره استخفافا بعقله ، فإنه يعرف ميولى وأسلوبى وطموحى للكتابة وهواية أقنعة التخفى منذ تحتة المدرسة ، ولكنه يجاربنى ويتراجع سريعا مع النجاح والانتشار الذى أصبحت تلاقيه مجلته منذ بدأت تنشر لى الصغيرة فى أبريل الماضى ، وأبدا لا يريد أن يجمع نفسه أو قراءه بأية لطفة من صدمة أو مفاجأة قد تطيح بهذا

النجاح والانتشار .. ولكنه فقط يتعلق بشعرة هذا التأكيد الغريب
منى ، فلا بد إذن أن لى الصغيرة هذه وجودا ما فى حياىى .. حب ، أو
زواج ، أو قرابة ، أو أى علاقة جعلتها تتجسم بيننا وبين الناس ،
فلماذا لا أصارحه ليفكر ويدبر معى ؟ .

والواقع - وكنت قد اتخذت لتلك المرحلة قرارا ملزما ولا تراجع أو
تردد فيه - أن يظل طنين هذا التوقيع يحمل الهمس والتساؤل فى
الساحة الصحفية لمدة ثلاث سنوات إن لم تكن أكثر ، فمادمت أنا
الذى يكتب فماذا عاد يقلق أو يضير ! .. هكذا لن يغربى أى
استدراج .. لن تضعف إرادتى أمام أية لهفة .. أبدا لن أسكب جرعتى
الغالية والباقية فى لظى هذا الجفاف ! .. نعم فالساحة الصحفية لأمثالى
بلا قلب - طبقية ، وذنبية ، وغادرة . وهى أيضا بلا ضمير - فمن
الممكن جدا - وفى لحظة خاطفة أن يتهشم هذا التمثال الجميل الذى
مازال طريا وهشا فى يدى ، تحت سحق ضحكة ماجنة تقع قهقهتها فى
أبهاء السخريات من بلاط العتاة فى صاحبة الجلالة ؟ .. بل ماذا يملك
الرفىء الخافى الذى يتعثر فى أذيال حيائه والمتشبت بل المستميت فى
صون كرامته وكبريائه ، أن يفعل - إذا لفظه المجون الصحفى واللذع
الصحفى بالطرد القاتل ، إلا أن يدير ظهره وينصرف تماما وإلى
الأبد - مستسلما لهذا القهر الذى تطاول يوما أن يقهره ! .

وهكذا اتجه اقتناعى أن أدير أنا ظهرى لهم ، فمهمتى الآن أن أفتح
رعيتهم الأعظم التى هى زبائن القراء أن يقتنعوا هم .. أو سس قاعدتى
فى أسواق زبائنهم .. أتقن تمثالى الجميل فى إحياء زبائنهم .. آخذ
اللجوء لنفسى بل أطلب الحماية من شوارع وحوارى زبائنهم ! .. نعم
اقتنعت أن لا حماية لى إلا من قارئى الصحيفة أو المجلة .. وبقدر ما
أقنعه عن نفسى سوف يستيقنى بل سوف يستمسك بى .. أبدا لا
رشوة ولا تسلى ، ولا تزلف ، ولا وصولية ، إلا أن أجتاز الامتحان مع

القارئ .. تلك هى وثيقة الأمان التى وضعتها حجابا تحت إبطى
ولسوف أظل أعيش به ما بقيت لى حياة ! .

.....

خطواتى مازالت تنهذى وتتردد فى شارع قصر العيني ..
ثلاث سنوات وهذا هو القرار ، أن أظل تحت قناع « مى
الصغيرة » - ولكن لابد من حيلة لاجتياز تلك السنوات ! .
ولقد كانت لى محاولات لاهثة وهاذية لايجاد الموديل الذى أتقن عليه
صياغة تمثالى ! .. محاولات فكهة أحيانا ومأساوية أحيانا ، تلاطمت
معها حين أشركت معى فى البحث صديقى طيب القلب « الموسيقىار
سامى الشوا » ، وأشركت أيضا صديقى المحبوب « نجيب حلمى » -
فهما الآن أعز من تبقى لى من أصدقاء ، بل هما باتا حياى الخاصة ..
« نجيب » - وكان نهرا صاخبا من التجارب - يرانى نصفه الشريف
البرىء والمفقود .. و « سامى » - وهو بلا زوجة ولا أبناء - يرانى
ابنا من زوجة يحلم بها دائما واسمها « مريم » ! .. صارحتها عن مأزق
« مى الصغيرة » .. الفترينة التى حصلت عليها فى المعرض الصحفى
ومطلوب لها « المانيكان » .. تمثال الشمع الذى سوف أكسوه بياهر
الثياب ! .. فتاة ولو تؤجرها بخمسة جنيهات فى الشهر لتؤدى دور مى
الصغيرة ؟! .. ورغم خرافية الفكرة وفجاعتها ، إلا أن تخطى من
حماسى المؤثر أمامهما ، جعلهما يندججان وينشطان معى لتنفيذ تلك
الفكرة ! .

وذات يوم دق التليفون وكان « نجيب » يلى على عنواننا هو موجود
فيه الآن ، ويطلب سرعة حضورى لمفاجأة قد لا تخطر لى على بال ! .
وأسرعت إلى العنوان ، وكان فى « شارع الزقازيق بمصر
الجديدة » .. فيلا صغيرة من بيوت الشركة البلجيكية ، ومن حولها
حديقة يمرح فيها كلب مخيف .. ويستقبلنى نجيب على الباب ليهمس فى
أذنى ألا أفتح سيرة أى كلام عن الموضوع ، فمهمت فقط أن أعين

المفاجأة ثم بعدها نتكلم ! .. وتقدم منى صاحب الفيلا وهو عجوز كاريكاتيرى الشكل ، أبيض الشعر ، حاد الملامح ، وله شارب تركى مفروش على مساحة ضخمة من وجهه ، صدره مفتوح ، واليايب ينفخ فيه من فمه .. قدمه لى باسم « العم القائمقام شكور بك » رياضى سابق وملاك سابق ، ومصارع سابق ، وفارس سابق ، - فأسرع الرجل يقاطعه مقهقهها ولاحقا أيضا ! .

وعندما جلست فى صالون ممتلئ برؤوس الثيران والماعز وعجيب المحنطات دخلت علينا فتاة ، يا إلهى ما أغربها من فتاة ، وكأنها فراشة ترفرف بلا صوت . وجهها نادر التكوين - ليس جميلا جدا ، ولكنه عذب التعبير .. وعينها أيضا يا عجيب ما يختلط بها من حدة ووداعة ! .

اسمها « بشرى » أو « بشر » كما يناديها الأب - قد سلمت على بطريقة قصم الظهر للملكات ، وقال نجيب أنها خريجة « الدلفراند » ولكن خطها فى العربى إذا أردت أن تجرب فهو أجمل وأحسن من خطك ! .. ابتسمت بشرى وطوت رأسها فى حياء ، ثم بتشجيع من أبيها طلب منها أن تطلعنى على أجندتها لأقرأ بعض ما تكتبه من الخواطر والشعر المنشور .. وقامت فى حياء وسلمتنى الأجندة بعد أن فتحتها على صفحة عنوانها « عندما يغرد البلبل فى الفجر » ! .. أقرأ فالحظ جميل حقا وأسلوب الكتابة لا بأس ، ولكن يالها من فتاة غامضة فلماذا لا تقول شيئا ؟ .

واندفع الأب يتكلم فى أمور عديدة وبعيدة ، عن معارك العسكر والترك والمغاربة ، وعن « عزيز المصرى » الذى هو صديقه ويأتى لزيارته أحيانا ، ثم عن حرب هتلر وموسولبنى تلك ، وكيف أن الحروب لم تعد شجاعات وفروسيات وبسالات بل أضرار يتلهى بها أطفال أشرار عابثون ! .

الفتاة تنظر إلى أبيها شغوفة ومعجبة ، وألاحظ نسخة من مجلة الساعة ١٢ موضوعة على مقعد قريب ولا بد أن نجيب أحضرها معه ، أم ترى هي التي اشتريتها ؟ .. واشتد تحرقى أن أسألها عن ذلك ، فقاطعت ثرثرة العجوز وأنا أستدير نحوها فهل تقرأ قصص مى الصغيرة فى هذه المجلة ؟ .. وأشار نجيب فى خفية ينبهنى إلى اتفاقنا .. ولكن الفتاة أسرع تبتسم وتجيب على سؤالى بإيماءة من رأسها أن نعم . وتمايت أسألها رغم الحرج الذى قاطعنى به نجيب مرة أخرى ، فهل هى تكتب القصة القصيرة بمثل الشعر والخواطر ؟ .. ترددت الفتاة برهة ثم هزت رأسها فى وداعة بما يعنى أن لا ! .. ووقف نجيب فجأة ينهى الزيارة فى مرح فلديه الميعاد الهام فى البلد ويجب أن يصحبني إليه فوراً ! .. ووقفنا أنا وهى تتبادل الابتسام بلا كلام ، بينما انتحى الأب ونجيب يتهامسان سوياً ! .. وعندما طال همسها حاولت أن أتبادل معها الكلام ، فقلت لها أنتى سوف أرسل لها مجموعة من قصص مى الصغيرة ، فهل تمانع ؟ .. وقبل أن ترد أخذنى نجيب من ذراعى يدفعنى نحو الباب ! .

وفى الطريق سألتى نجيب فى حماس - ما رأيك - ؟ .. قلت - رأى فى ماذا ، فإنها لم تتكلم كلمة واحدة ؟ .. قال : وماذا يهمك من أن تتكلم فيكفى أنها تكتب ! .. استغربت قوله فقد أطلق بعدها ضحكة ظفر غامرة وعاد يقول : ميزاتها بل أهم ميزتها أنها لا تتكلم ! .. وعرفت أخيراً .. عرفت ويا شدة ما تأثرت واقشعر جسمى - بمفاجأة نجيب - أن تكون المانيكان لمى الصغيرة فتاة بكاء .. نعم فهذه الفتاة اليايسة ومنذ ولدت فهمى بكاء ! .

.....

وذات مرة أيضاً - فى هزليات البحث عن موديل أو مانيكان - أخذنى « سامى الشوا » فى حماس إلى اكتشافه الجديد المذهل ..

والصدفة العجيبة أن اسمها « ماري » أيضا - شامية طبعا - ليس هذا فقط ، بل هي ابنة أديب ومن شجرة أسرة كلها شعراء وفلاسفة وأدباء ! .

وفي آخر شارع شبرا - بعد مخزن الترمواي - وأمام عمارة صغيرة ، أوقف سامي العربية ، ثم دخلنا من باب الدور الأول على شقة عصرية متوسطة الحال ، تعيش فيها أم وابنتها - التي هي الاكتشاف المذهل ! .

الفتاة جميلة وشعراء وفصيحة الملامح - ولها شكل « جوان بنيت » نجمة السينما - وذات عينين واسعتين وفم إذا ابتسمم فالغمزة تنقر الجبينين ! .. أنها ابنة أديب راحل ولم يترك أدبه لأسرته إلا الفقر والعوز ، وكانت له شهرة في ترجمة الروايات .. الفتاة رصينة ومترنة ولا تبدو عليها شبهة من شقاوة أو دلح أو انحلال ولكن لست أدري أى إحساس قد تملكني في أنها ليست خفيفة الروح ... ولكن هذا الإحساس انصرف عني بعد أن تجاوزت معي في الحوار عن أبيها ومؤلفاته ! .. واندمجت معها بل فرحت وفركت يدي ، فمادامت ابنة كاتب وأديب ولها هذا الطلاء العصري الواضح ، فإذن هي المنشودة ! .

هذه الفتاة لها لقطة خاطفة مع الشهرة .. قصة حدثت لها منذ أعوام وكان يمكن أن يتغير معها اتجاه حياتها .. قصة عرفناها وتذكرناها - فقد كان مقدرا لها أن تقوم بدور البطولة في أول فيلم سينمائي يظهر فيه « المطرب محمد عبد الوهاب » واسمه « الوردة البيضاء » من إخراج : « محمد كريم » . وقد اكتشفوها في بحثهم المنقب عن وجه جديد ، وانفقوا معها فعلا ووقعوا العقد ، وبدأوا في ترويج الدعاية ونشر الصور لها .. ولكن في آخر لحظة ولست تدري خفي ما حدث - فقد انصرفوا عنها إلى وجه جديد آخر ! .. هكذا لاح لها المظ ذات

مرة ، ولكنها لم تتأسف على فقدته فالتمثيل يجعلها تضرب ! .

وعندما بدأنا نشرح لها المهمة - فنحن نحتاج لها هذه المرة لتؤدي الدور في شوارع الحياة لا على شاشة السينما - ونظير مرتب خمسة جنيهات دائمة ، فوق المشاركة في أى أرباح سوف تأتى على يدها . ولن يكلفها الأمر إلا أن تظهر أحيانا ، وفي مناسبات أو مقابلات قليلة جدا وغير مجعدة البتة ! .. وقد أنصت الفتاة محمقة وساکتة بينما شردت الأم .. ولأنها أرملة كاتب ، فقد أخذتنا إلى انهماك وتدقيق التفاصيل بما حيرنا في الردود والاقناع ! .. وانتهينا بعد حديث طويل إلى أن الأم والابنة لن يتمكننا من إعطاء الرد بالموافقة - إلا بعد أن يحصلنا عليه من العم « سليم » كبير الأسرة والمقيم في « حلب » ، وميعاده أن يزورها في خلال شهر ! .. وعلى مضض اتفقنا أن يكون هذا الشهر بروفة على أداء الدور .. يعنى لا مانع أن أزورها وأتردد عليها حتى ولو يوميا ، فهما دائما في حالة وحدة وانزواء .

وبدأت أطرق الباب على شقة مارى شبرا .. أحمل الفاكهة أحيانا ، أو الأكل أحيانا ، وقد بدا لى أن حالتها معسرة .. ولسا بساطتى وعدم أطماعى وبراءة نيتى فاختلطنا واندمجنا وسمحت لنا الأم بالخروج والتنزه والذهاب إلى السينما ! .. وذات يوم وقبل أن ينقضى الشهر ، طلبت الأم أن تحتلى بى ، ووجهت لى قرارها الحاسم .. وبعد تفكير طويل .. فلماذا لا تأخذ مارى يا ولدى شريكا - ليس في هذا الدور الصغير فقط ، بل في دور الحياة كلها ؟ .. تقصد أن أتزوجها ؟ ! .. يا إلهى أتزوج ؟ .. لا .. لا . ليس في نيتى أن أتزوج أبدا .. تجربة مارى الفجالة جعلتني أقرر أن لا زواج أبدا أبدا ! .. وهكذا برد حماسى .. تراجعت عن مهمتى ، انصرفت يومها بلا عودة .. بل انصرفت نهائيا عن هزليات البحث عن موديل أو مانيكان ، ولأترك الأمور للحظ وللصدفة والقدر ! .

ما زالت خطواتي تتهادى وتتردد في شارع قصر العيني ..
تلك الأشهر الخمسة العجيبة من رحلة الحياة ، وصديقي الفنان
القلق المحموم ، ميجور كول في قشلاق الانجليز بقصر النيل .

وفي يونيو الماضي ضقت ذرعا من غيرته وشكوكه ، فطلبت منه أن
أستقيل وأترك العمل ، أو ينقلني إلى عمل آخر في مكتب آخر غير هذا
المكان الذي فيه « ماري الفجالة » .. لم أعد أطيق لعبة الغيرة الخطرة
بينى وبينه ، توججها همسات فتيات البيع من حول علاقتى بمارى منذ
حادث وقوعها أو انتحارها المزعوم في ليلة العوامة تلك ! .

« ماري » أصبحت غراما صريحا لعزيزى كول يتندر به الجميع في
كل قشلاق قصر النيل .. وقد صارحته يوم أن فاتحته في النقل بل
وأقسمت له أن هذه الفتاة لم تعد تمثل فى حياتى أى تأثير إلا حرج
وجودها الآن فى العلاقة الحميمة بينى وبينه .. وحتى كذكريات ،
فصدقتى عزيزى الميجور هاريسون كول ، فقد تبددت تماما ولم يبق منها
إلا الاستغراب والدهشة ! .. وقد أنصت ساكنا إلى محاولة إقناعى له
بذلك وملاحمه تضطرب وتضطرب . وبقي صامتا فترة طويلة ، ثم قال ،
حسنا ، فلماذا لا تقنعنى نهائيا فيكون لك « جيرل فرند » صريحة
نعرفها ونستريح ! .. دهشت بل ضحكت لأفكاره ، وعدت أقسم له
أن فتاتى الحقيقية الآن لا سواها ، والتى أحلم وأنام وأمشى بها هى
« مى الصغيرة » ! .. دق الأرض بحذائه عصيبا وهو يقول - ولكن
مى الحقيقية وكما تعرف أنا وأنت هى ماري ! . أزعجتني عصبية
فتماسكت ساكنا ، وظل هو صامتا ورأسه منكس ثم سألتني فجأة ،
وكأنه يتوسل - أبظنك تحبني بمثل ما أحبها ؟ .. ولقد أردت أن أكون
أميناً فى الإجابة فرددت عليه السؤال بسؤال وقلت : هل أنت تحبها إلى
درجة أن تتزوجها مثلا عزيزى ابن اللوردات وقريب الملكات ؟ ! ..

أعاد له سؤالي عصبيته الغريبة فاقشعرت جبهته وقال بطريقة التحدى - لم لا ، فهل تمنع إذا قلت لك أنني أفكر في هذا الأمر فعلا وأتخذ له الآن كل الإجراءات ! .. ابتسمت مشققا على هذا الشاب الراقي المتحضر المثقف ، وفي أعماقي خواطر تسخر وتتعجب ، فما نحن أمام هذا الحب إلا بشر من نسيج واحد . لا فرق بين حمى عاشق من بريطانيا العظمى وآخر من آسيا الصغرى ! .

لاحظ ابتسامتي فظنني أسخر ، فقال قد اشتد تشنجه - هل تراني أمامك غيبا أو أحمق لأنني وقعت في حب فتاة تمرغت في أحضانك واحضان سواك ، ولكن أنت تعرف أنها طيبة وسيئة الحظ ، فما الذى يجعلك تسخر هكذا وتستخف بأمر إنسانى تراني جادا فيه ؟ .

دهشت .. ارتبكت . فقد أعطاني ظهره غاضبا بل حائقا ، وتركتني في حيرة من أمرى ، فهل يعنى هذا الانصراف منه بدء خصومة أو قطيعة ؟ .

.. ما أشد غباء الرجال حين يعشقون .. قطيعة !؟ .. ولكنه رئيسى وبوسعه أن يتماذى فيفضلنى ، وكرامتى أبدا لن تسمح فلماذا لا أبادره بفصل نفسى ؟ .. ولكن يا شدة الرزء من هذا الأمر فماذا يحدث بعدها ؟ .. الثلاثون جنيها تلك - وهى مرتب مدير عام فى مصالح الحكومة ، من أين أجدها ؟ .. بل إنها باتت لا تكفينى فى معمرة سخاء الصرف والاغداق والتكلفة على الفاخرة الباهرة « مى الصغيرة » ؟ . وقبل أن أنصرف يومها .. فوجئت بالسير جنت ميديت « تضع أمامى قرارا وقعه كول ، بأن أستلم عملى الجديد ابتداء من غد فى وظيفة « أمين المخزن رقم ٣ » فى آخر الطرف من الضيعة الشاسعة المترامية ثكنات قصر النيل ! .

وعندما سألت « عم مدبولى » عن المخزن رقم ٣ هذا ووظيفة أمين تلك ؟ .. توقف جاحظ العينين مندهشا فإنها وظيفة هامة ومرغوبة دائما

تعنى أننى أصبحت أamina على مخزن فيه محتويات بـ مليون جنيه ! .. أنه أهم المخازن وأشدّها إغراء فى كل قصر النيل ، ودائما له ضحايا من أمناء وقعوا فى مطب السرقة منه ، وآخرهم « لازارديس اليونانى » - وهو فى السجن الآن - بعد واقعة ضبطه بلورى محمل بحريير البراشوت الغالى جدا ، ويدل أن يتجه إلى قشلاق الانجليز فى العباسية ، اتجه به إلى حوارى « السبتية » ! .. لورى حولته عشرة آلاف جنيه ، وما أدراك بمائة لورى لم يقدر لأحد أن يضبطها قبل ذلك ! .

وقد ذهبت واستلمت هذا المخزن فى الصباح بحضور « سير جنيت ميديث » وقعت على إقرار المسئولية وانصرفت .. لم يكن هذا المخزن كبيرا وهائلا كما تصورت ، فإنه فى حجم الجراجات المتوسطة ومبنى بالصاج ، ومن حوله أكشاك وحبال حراسة ، وفى طرفه ثلاثة أكشاك أنيقة خصصت لمكاتب الأمين وجلس الموظفين .

الموظفون خمسة فقط - وفيهم فتاتان - فوجئت أن احداهما مصرية .. وكان مكتبها يلاصق مكتبى - وعملها المباشر معى - وبأغرابة ما حدث منى ومنها عندما تبادلنا أول مرة حلقة النظرات ، بل دهشة النظرات .. سريان ساحر وسريع استوقف ذاكرتى يسألها ، فلا بد أننى قابلت هذه الفتاة من قبل عدة مرات ؟ .. ولقد حكى لى بعدها ، أن هذا السريان ونفس التساؤل قد هز مشاعرها أيضا وفى نفس اللحظة ! .

اسمها « عزيزة » .. وأبدا لا يزيد سنّها عن « ١٩ » عاما ! .. وجهها دقيق الملامح وكأنه منحوت من معدن سماوى نادر ، وفيه طفولة جذابة وجريئة تغريك لو تقدر فتفرك جبينها المتوهج المستدير ، ليخرج لك ابتسامة أحلى من ابتسامة الموناليزا الشهيرة .. اسمها عزيزة .. ومفاجأة إنها ابنة فنان مسرحى عملاق كانت له

صولة وفحولة .. أبهجنى هذا بل أسعدنى جدا ، وهز قلبى بعد غربة كنت فيها .. كان العمل فى هذا المخزن سهلا وميسورا - خصوصا وأن عزيزة تعرف كل شىء فيه ، وتقرنت على كل محتوياته ، ولها نشاط يتفجر بالوثب والحيوية فى كل أرجائه .. نعم ، العمل سهل ومريح فى هذا المكان الحافل الشديد الثراء . إنه محشود بأعلى الأنسجة ، وأعلى الأدوات الكهربائية ، وثمان اللقائف والصناديق ، ومادمت لا تدبر أن تسرق فأنت فيه آمن وهادئ ومستريح ! .

وبدأت نهاراتى الرائعة والمحبة بصحبة عزيزة .. إنها فنانة وتجيد الرسم ، بل إنها درستة وتعمقت فيه وأصبح طموحها أن تكون ذات يوم رسامة مشهورة ، فما المانع وهى من نطفة أب عبقري وأم خصبة المواهب والشخصية ! .. وطول النهار أقرأ لها وتقرأ لى .. أرسمها وترسمنى .. أسامرها وتسامرنى .. أصارحها وتصارحنى .. ونخرج سويا ، نتبادل الغداء أو العشاء .. عند « الشيمى » الكبابجى أو فى « رستواران الريجنت » ومعه الأكواب البنفسجية من عصر عناقيد النبيذ - وهى مصممة معى بمثل خصال الانجليز ، فمرة أنا الذى أدفع الحساب ، ومرة أخرى هى التى تدفع .. وقد قهرنى منها ذلك إلى درجة الزعل والخناق فنحن فى مصر يا عزيزة .. ولسنا فى بلاد الانجليز الباردة ! .

« العتبية » _____

خطواتى مازالت تتهاذى وتتردد فى شارع قصر العينى ..
 أتمهل وأتوقف عند ناصية « قصر الأميرة شويكار » المبهر
 الرهيب .. أنه يأخذ التربع على رأس شارعين هما « شارع مجلس
 النواب وشارع محمد باشا سعيد » .. نظراتى تسرح على طوابقه
 ونوافذه وأبراجه . جدرانہ المكسوة ببلاط الفيسفساء البنفسجى
 الفاخر ، وقوائم أعمدته المطلية بماء الذهب ، بل أتصور أنها مصبوغة
 من الذهب الخالص ! .. والشجر السامق من حوله يهتز تحت شعاعات
 من شمس الأصيل ، فتبرق عيدانه وكأنها تحمل ثمارا من فصوص
 اللآلىء والجواهر .. ويا إلهى ما هذا الثراء الطافح الذى يعلن نفسه من
 قصر هذه الأميرة العجوز الشمطاء - وكل لياليها فيه سيولة من
 حفلات تسميها « خيرية » - من أجل الفقراء والمرضى والجوعى
 والمعوزين .. مياها خمر ، وأكلها رقص ، ومرحها مجون .. سرب
 أميرات ونبيلات البيت العالى .. طوابير بنات الذوات والطبقة الراقية
 والهايلاف .. بارقات لامعات عاريات الظهور والصدور ، والرؤوس
 عليها تيجان وفصوص وأكاليل ... ثم الأمراء والنبلاء والبشوات
 والبيكاوات والخواجات .. الاشتاب المبرومة ، والكروش المتدلية ،

والرؤوس الصلحاء .. ومطهمون بنياشين البطولة وميداليات الفروسية
وكأنهم خيول زاهية فى حلبات سباق الدرې الانجليزى .. ثم الشبان
الفاتنون الجذابون يتشنون ويتبخرون بأعوادهم الرخصة الطرية ،
والموضة شارب رامون نوفارو ، والبنطلون شرلستون ، والرقصة
كاريوكا ، وفوق الرؤوس طراطير تطير ، وبدار ننثر ، وأنغام تهيم ،
وضحكات تفقع ، وخلاعات وشخلعات ، ولوتاريا ومزاد ، فكم تدفع فى
القبلة الشهية التى تبرعت بها بنت الأكابر وسليمة المجد والعراقة آنسة
ميمى وآنسة ريرى وآنسة زيزى .. وفى سبيل الفقراء والتعساء يهون
البذل والعطاء ، ألا أونا ، ألا ديو ، ألا تريو ! .

.....

أستدير بموجع نظراتى ، فقد أضاءت من خلفى فجأة على الضفة
الأخرى من الشارع ، يافطة نيون خضراء عليها رسم العلم والنجوم
وكلمة « المصرى » شامخة ومختالة فوق هذا المبنى القصير ، مبنى
« جريدة المصرى » .. يخفق قلبى ويرتج كيانى ، فكأنها أضاءت نورا
فى ظلمة نفسى ، بل تنتشى مشاعرى فأتصورها ذات يقوم قريب
سوف تقفز فجأة وتثب فجأة ، لتعتلى قمة قصر شويكار هذا وغيره من
قصور ! .

الساعة الآن السادسة - ونظراتى ترتفع نحو يافطة الشارع الذى
وقفت عند أوله - وقد حان أن أحسم التردد فأخذ خطواتى فيه إلى
حفلة عيد ميلاد « مجلة الساعة ١٢ » ! .

أتأهب وأستدير لأخذ خطواتى ، فهذا هو أول دخول وأول ظهور
لى على العتبة من بلاط صاحبة الجلالة .. هذا هو شارع محمد باشا
سعيد ، يا شدة ما أخذت الشهيق على البعد لأتنفس هواءه ، ففيه
عديد المواقع الصحفية ! .

فيه عديد المواقع الصحفية ، فبعد خمسة بيوت فقط من بدايته ،
توجد يافطة معلقة على بيت « مجلة روز اليوسف » ! .. بيت قديم

فسيح من دورين ، هالك المنظر ، ومستهلك المعالم ، وبأغرابة ما يتحول منظره في أحلامى إلى دندشة قصر أبهى وأحلى بكثير من قصر شويكار ! .. صاحبة المجلة امرأة غريبة ، قصيرة القامة مستديرة الوجه ، مقوسة الأنف ، منحوتة الملامح ، ومنذ زمان تقتحم خيالى بجرأتها واندفاعها - ولعلها قبل « مى زيادة » هى إلهامى واقتباسى من حلم مى الصغيرة الصحفية والكاتبة ! هذه المرأة المثيرة - وعجيبى كيف فى هذا العصر المجلود بالتزمت والجمود وفضت التقاليد ، تشق طريقها بل تخوض الميادين ويكون لها روح المغامرة فتعلو هامتها هكذا على هامات جبابرة « الرجال » ! .. من منصة المسرح ، وكواليس الأزيكية وعماد الدين ، وغانية غادة الكاميليا ، إلى قمم السياسة ، ومنصات الأحزاب ، وشرفات السراي ، وجان دارك الصحافة ! .. كانت آخر جراحة لها تأسيس « روز اليوسف اليومية » ورئيس تحريرها هو « العقاد العملاق » .. ولكنها لم تلبث أن ارتطمت بالخلاف مع « الوفد » - وكان الوفد وقتها جبلا - فانها لعلها وبعتها شظايا .. مازالت تلم شعث نفسها ، فلم تفق من الصدمة بعد ! .

« بيت روز اليوسف » ، ولصق الحائط تماما ، هذا البيت الأشد قدما وتصدعا وعليه يافطة « مجلة الساعة ١٢ » الوفدية .. ناشئة وصغيرة مثل عشرات سواها يغمرها الأمان من عطايا الفتات الحزبى ! .. وإذا تمشيت من بعدها خطوات فى نفس الشارع ، فسوف تقابلنى يافطة هائلة براقة تحمل اسم « مجلة الصباح » كبرى مجلات الفن فى مصر ! .. والفن فى مصر وأهم معالمه الصحفية كبارها بديعة ، وبيا ، وفتحية محمود ، ورتيبة وانصاف رشدى ، ثم كواليس شارع عماد الدين وصلات روض الفرج ، ثم زعيق الأصوات من يوسف وهبى ، وجورج أبيض ، وكشكش بك ، ثم تنافس الألقاب بين على الكسار وفوزى منيب - على من هو بربرى مصر الوحيد ، وصالة

عز الدين وزوجته ماري ! .. ثم الأزيكية ، ومطربة القطرين ،
وأم كلثوم ! .. ولا مانع فالمجلة سميئة من مائة صفحة ولها تذيير ملحق
بجانا من حكاية ورواية. والثلث فقط « قرش أبيض » ! .. ولأنها فنية
أيضا لا مانع أن تستدير بأنفها المستنشق على شارع كلوت بك وحى
الدعارة فى « وش البركة » فكله من ذوى القربى وصلة الرحم -
أخبار الموسسات ، والخليلات ، والبلطجية ، ومغامرات القوادين بين
العمد والأفندية ! .. لا مانع . لا مانع وخذ منها ما لا يأنف منه أنف
« الشيخ أبو العيون » وأمثاله ، من كرايبج الحراسة على نواصى
الأخلاق ! .. « مصطفى القشاشى » صاحب الصباح - كان
مطبعجيا - وهذا هو الآن ثرى وصاحب عزبة وله عوامة وعمارة ! ..
والعمارة تقع فى شارع محمد باشا سعيد ، ضخمة وفخمة والزجاج فيها
بلور ، والرخام منها مبشور ، وفى الدور الأول منها فترينة مكشوفة
تربض فيها آلات المطابع وتبين منها طرايبش المحررين ! .
ثم إذا تحركت خطوات أخرى من نفس الشارع حيث خط سكك
حديد حلوان ، فسوف أتوقف مبهورا عند يافطة ضخمة بطول
الواجهة وعليها اسم « جريدة البلاغ » ! .. يومية مسائية وصاحبها
هو « عبد القادر حمزة باشا » .. باشا لأنه قطب وفدى وله جسم
وشكل الباشوات ! .. وكانت للصحافة الوفدية تقاليد أن تستقل
بنفسها وحرية رأيا أحيانا مادام الالتزام والشعار هو الوفدية وأن تهب
لنجدة حزبا حين مباغته الأزمات .. وفى الأيام الأخيرة انسحب حمزة
باشا بالبلاغ رويدا رويدا إلى استقلال يوشك أن يعلن انسلاخه عن
الوفد - وكانت تلك جرأة وبسالة منه ، بعد المقتل الذى مازال ساخنا
من روز اليوسف اليومية ! .. وبدأت مقالاته واتجاهاته تجاهه وتتحدى
بعض افراط الوفد من ثقته المطلقة فى شعبيته ، وتلفت النظر من بزوغ
الكرامة الصحفية فى الساحة ! .. نعم مقالات عبد القادر حمزة ولها
صرامة المعلم الصحفى - ودرسه للناشئين إذا شاءوا - الصحافة هى

الصدق والمنطق والاقناع .. وليست التشهير والتهريج والخداع ! ..
وكم تمنيت .. كم تمنيت لو هذه البلاغ تصدر صباحية لتملأ كفة الميزان
مع « المصرى » ، فى ساحة الربا الباهظ من صحافة الشوام واليهود ،
فقراء المساء خاملون أما قراء الصباح ففيهم كل الصحة والحيوية
والانتشار ! .

.....

شارع محمد باشا سعيد هذا ، وكم أرقنتى لىالى الغيرة البلهاء ،
ومرسالى له منذ خمسة أشهر هو حبيبى مى الصغيرة تتطوح بين الأذرع
بعطرياتها القصصية وسهامها الراشقة ، وأنا فى الانزواء والانتظار يفتك
بى القلق والخوف أن تذوب فى هذا الخضم الهائج ! .
قصص مى الصغيرة كل أسبوع ، - عطرية وجاذبة - نعم ..
ولكنها مشارط تمزق الأستر عن هذا المجتمع الطبقي المنحل بكل
بذاءاته وتهتكه وصفاقته وفجوره .. ترفع الأغطية عن فجاجته
وتفاهته ، تزيل الأقنعة عن غطرسته وهيبته .. تفض عنه تقاليد
المجاملة والاحترام والاعتبار ! .

باب « برج بابل » أيضا .. خواطر الأسبوع .. التعليق على
أحداث الأسبوع .. ونوافذه الجريئة تتفتح على المصراعين بنداات
السخط والنفور ! .. رمى الألغام والبارود فى هش هذا الفقر ، والذل ،
والجهل ، والمرضى ، والاستعمار ، والطبقية ، والمهانة ! .. زجيرة
أغليبات نفذ صبرها وحان أن يعلو صوتها ! .. دق الأجراس فى أجنحة
الخامدين والمقهورين والمستسلمين ! .. برج بابل هذا - وكان يمكن أن
يهشمه المتسلطون والحراس منذ أول دبيب له وأول خفق - ولكن
فرجة المنظر . حيلة المنظر .. حمته وساعدته بل أفسحت الطريق -
فالكاتبة فتاة حلوة شهية وفواحة ، تلين فتغمر باغراء أصابعها

أحيانا - وشومة الفلاح المنهالة منها تنزل على رؤوس المفتنين في طراوة
غصن الورد ! .

.....

أمشى في شارع محمد باشا سعيد ..

أقرب من مجلة الساعة ١٢ .. خطواتى بدأت تتعثر ويلفها حيائى
الرفى التمس ، فإذا كنت قد تمكنت من اتقان الخدعة على الورق ،
فكيف أقدر أن أخفيها من ملامحى الحقيقية التى أبدا لا تقدر أن
تكذب ! .. قلبى فى حالة خفقان شديد .. تأخذنى قشعريرة التهيب ..
ألح أمام باب المجلة بعض الداخلين وبعض الواقفين ، وبوكيات ورد
مسنودة على الحائط .

تقدمت فى خطوات بطيئة نحو الباب ، وتوقفت برهة أمام بوكيات
الورد لأقرأ الكروت ، فقد أرسلت واحدا باسم « مى الصغيرة » ..
أقرأ اسمها المكتوب فترتعش أطرافى ويهتز وجدانى ، ثم أقرأ كرتا
يحمل اسم « الفنانة زوزو ماضى » ثم آخر من « الشهيرة تحية
كاريوكا » ! .. أمرق من الباب إلى الردهة وأتوقف أمام لوحة
كاريكاتيرية عريضة كبيرة ألصقت بالدبابيس على الحائط .. الرسم
للفنان « رخا » ، وفيه تحية لعيد ميلاد المجلة التى يرسم لها - وهو فيه
قد رسم وجه « قرفان أفندى » الذى ابتكره شعارا للساعة ١٢ بمثل
شعار المصرى أفندى فى آخر ساعة ، وقد اقتبس له الملامح من
الصحفى العبوس دائئا « محمد على غريب » ! .. والرسم يقدم
« قرفان أفندى » لأول مرة ضاحكا بواسع شذقيه وهو ينحنى بالتحية
لأسرة تحرير الساعة ١٢ ! - ويخفق قلبى بشدة ، ففى المقدمة من
رسم وجوه الأسرة يلوح وجه « مى الصغيرة » بعودها الفاره ويقلمها
المتشقق وكما يرسمه رخا دائئا فى صفحة برج بابل ! .

أنقدم وأدخل وعينائى تطلان على الغرفة المحشودة بالجالسين

والواقفين ، وقد غمرهم الصخب والضحك والضجيج ، وأمامهم « تورتة جاتوه » ، وأطباق سندويتش ، وبقى فور ، وفناجين شاي ! .

« حازم » صاحب المجلة يلحظنى فيترك الحلقة التى كان يتوسطها ويشب ليغانقتى مهتما ومغتبطا .. عانقته واستوقفته فى توسل متلثم أن يتركنى أجلس فى أى مكان .. وألا يقدمنى لأحد ! .. ضحك حازم مستهينا ودفعنى من ظهرى إلى الداخل ، لأجد نفسى فجأة وسط وجوه عديدة ومشهورة أعرف أسماء بعضها من صورهم ! .

قدمنى حازم لهم بأننى زميل دراسة هام وصديق عزيز ، وأغراهم عنى بالدعابة عن أننى « هارون الرشيد » فى مخيم الانجليز بقصر النيل . فكل النهار وعن يمينى عشر جوارى من أحلى حريم مالطة وقبرص والشام واليونان ، وعن يسارى عشر أخرى من فتيات بلاد الانجليز والفرنسيس والأمريكان ! .. تضرع وجهى احمرارا وحاولت أن أدفع عن نفسى عورة المنظر ، فيا شدة ما اضطرب واربتك وتأخذنى اللخمة - رغم عتو ما جرى لى من تجارب - كلما جاءت سيقى مقرونة بالنساء ! .. حلقوا وتصايحوا وانطلقوا بالقفش واللذع والتتكيت ، فلماذا لم أحضر معى ولو سربا خفيفا يلفظ الجلسة من خشونة حفل الخناشير هذا ! .

وبدأ حازم يقدمهم لى - وخذ أسرة المجلة أولا : - « الدكتور طبيب سعيد عبده » رئيس التحرير - القصصى الشهير وصاحب الموايل ، التى تسقط الحكومات ! .. عرفنى به « حازم » ، فقلت له أننى معجب بقصصه ، مفتتن بأسلوبه وأنه بصراحة أشهى الكتاب إلى نفسى .. وابتهج الدكتور سعيد وشد على يدى ، وأحسست أننى رشقت قلبه بما قلت ، فقد أطلق ضحكة ناحلة وهو يضع يده متوددا على كتفى ! .. ثم « محمد عبد المنعم » أو « رخا الرسام » جسمه المكتنز ووجهه الطفولى وعينه الباسمتان .. أنه أول رسام كاريكاتير مصرى

بعد « رفقى » و « صاروخان » .. ريشته السيالة تتدفق في الجداول الصحفية ، فهو يرسم ثلاثة أرباع مجلات مصر الأسبوعية .. المؤيدون أو المعارضون لا يهم .. فرأيه السياسى الخاص بات يحتفظ به لنفسه فقد حاول ذات يوم أن يدس رأيه فى ثنايا رسم أورد فيه تعبيرا يمس شرف الذات من الملكية المصونة ، وكان نصيبه السجن عاما ونصف عام ، خرج منه أشد مرحا وأكثر دهاء ، ويكفى اختيار الرمز من « قرفان أفندى » ليكون شعار المصريين فى ذاك الزمان ! .. قلت له هذا فضمنى إليه فى حضن رحب ! .

العضو الثالث فى أسرة الساعة ١٢ - واسمه « فتحى الرملى » .. وجيوبه كما قال رخا سوف تجدها مكدسة بالمقالات من كل نوع ومن أى نوع ، معارض ومؤيد ومحيد وما شاء الاسترزاق أن يفرد قلوعه - ولكنه فى حقيقة نفسه ممسوس بالشيوعية فهو ماركسى لينينى . وله طموح أن يصبح زعيم البروليتاريا المصرية ، وقريبا كما قال سوف يشرح نفسه فى البرلمان عن العمال ! .. توقفت أمامه مبهورا أهز يده ، بل أعطيته نظرات القربى من ذات يوم فى الاسماعيلية الثانوية - حين دهنت أفكار الشيوعية ، وخصوصا بعد أن قرأتها عن « سلامة موسى » فجمعت عنها كتابا أحاول أن أوُسس فيه « يوتوبيا » جديدة لهذا الشرق المصرى الخامد ! .

عم « أحمد حسن » المندوب الأخبارى العجوز ، وله مصطبة حافلة فى كل مصلحة ووزارة ، ثم « صالح عراقى » ، محرر الشئون العربية وأى شئون أخرى تريدها المطبعة .. ثم « ميكى ماوس » - عبد الله أحمد عبد الله - فأر السراييب دائما فى كواليس الفن . يفطر عند « زينب صدقى » ، ويتغدى عند « زوزو ماضى » ، ويتعشى مع « الفاتنة كاريوكا » ، وكل ساطعات الصالات والشاشات والكباريات يجربن من خلفه بمخالب القطط فىا شدة ما يضربنه بكعب الشبشب أحيانا إذا لم ترقهن لوامع أخباره ! .

هؤلاء هم أسرة الساعة ١٢ - الضيوف والجيران ، ومعظمهم من الجارة لصق الحائط بيت « روز اليوسف » .. فهذا هو العم « محمد على غريب » « قرفان أفندى » جالس أشد اتقاناً مما يرسم رخا من بوزه المخطوط وتجاعيد السأم والنفور - من كل شيء حوله ! .. « إبراهيم خليل » - حنون الكواليس في عماد الدين ومخيف الإدارة في روز اليوسف ، فهو الذى يصرف ويحاسب ويعطى السلفة للمحررين ! .. ثم « على بليغ » الديك الصحفى الناحل العريان والمشرئب .. دائماً بعرفه الملون وراء الأسرار والأخبار ! .

ثم هذا الشاب « إحسان عبد القدوس » ابن السيدة روز - وكم هو وسيم وحالم وخجول ! .. ثم سليلط اللسان قبيح التحايا « صلاح عبد الجيد » ، وقد بادرنى يطلب سيجارة ! .. ثم أخيراً هذا الشاب الساكت المنطوى والذى جاءت جلستى لصق كتفه ، لم يهتم أن يقدمه لى أحد . فقدم لى نفسه فى تودد فاسمه - « محمد حسنين هيكل » ، وهو سكرتير التحرير فى روز اليوسف ..

.....

جلست مأخوذاً ملخوما ترفرف عيناي على الوجوه والمناظر ! .
اختلس اللقطات لنفسى وأطبعها فوراً لتنتشر فى رعية مشاعرى ..
أحاول أن أكون هادئاً متزناً رصيناً - ولكن عندما جاءت السيرة -
عن مى الصغيرة - وبدأ القفش والفقس والرمى والتنكيث - يا إلهى
كم التوى عنقى من ذبح الألم عن هذا اللذع الماجن الذى أنطلق ..
طويت رأسى متماسكاً ، وبرودة الخوف والحجل تسرى فى جسدى ،
فقد بدأت الأنياب تنهش سيرة حبيبى ، ويميل على « هيكل » وقد
اكتشف انكماشى مثله - ويسر لى فى ضحكة هامسة وجريئة ، أنه يقرأ
قصص هذه المدعوة « مى الصغيرة » عدة مرات ليعيش معها فى متع
الأحلام قبل أن يستلقى وينام ! .

أخفضت رأسى .. ولم أتمالك نفسى فضحكت .. أخذنا نتبادل

الكلام ، ثم اندمجنا في التعارف ، وعندما سألته عن عمره ، تبين أن الفرق بيننا بضعة أيام فقط .. ثم عن اسمه ، فلماذا أوقع نفسه في مأزق الاسم من سياسى شهير وكبير وصحفى وأديب مثل محمد حسين هيكل باشا ؟ .. فتمتم ضاحكا - بأنه ربما يركب اسمه يوما فيصبح أشهر منه ! .. فضحك صلاح مقهقهقا وهو يعلق عليه بوصف لاذع ! . لم يزل هيكل بل بادل الضحك ، وكان واضحا أن صلاح له سلطة ونفوذ عليه فبمجرد أن استدار ليقول له همسا : - دعنا نخرج من هذا المكان فقد سئمت بوز « عمك غريب » و« غلاسة » إبراهيم خليل ، حتى قام وأطاعه فوراً - بعد أن سألتى إذا كنت أرغب فى تسلل الانصراف مثلهم وصحبهم ؟ .. فوافقت فوراً - وأنا أحس بالميل إلى هيكل هذا بالذات ! .

.....

تسللنا من الباب ، ثم بمجرد أن وصلنا إلى الشارع هرولنا نجرى قبل أن يلحظنا أحد ، ونحن نطلق ضحكات شبابية صاخبة مرحة ! .. وتوقفنا عند ناصية الشارع ، وكانت الساعة قد أصبحت الثامنة والنصف مساء ، فقال صلاح سوف أعزّمكم الليلة على سهرة فى « الكيت كات » ، ولن نتكلف إلا مصاريف المواصلات وبقشيش الجرسونات ، فهيا كل واحد ينفض جيبه بما معه من رصيد ! . اضطرم وجه هيكل بالحجل وهو ينظر نحوى - واعترف أنه ليس معه إلا قرش واحد قد استبقاه لتذكرة العودة ! .. أما صلاح فقد أفرغ جيب بنطلونه بطريقة البوهيميين وأبرز « ريبالا » فهو مستعد للاستغناء عن نصفه ! .. وفى حرج شديد أخرجت لهم جنيها ، فجحظت عيونها عليه فى دهشة ، وأسرع صلاح يختطفه مني مهللا - فيه يمكن أن تلف على كل صالات المدينة ! . استوقفتها عن مشروعها هذا فعندى عزومة رائعة مفتوحة ،

ولا مانع أن يصحباني إليها إذا اتفقنا .. دعوة من « بيكى » فتاة البيع
عندنا في قصر النيل ، والليلة حفلة خطوبتها للملازم الأمريكى
« نورمان » - فقط يا بعد المشوار - فهو في « ضاحية الزيتون » ! .
عانقنى صلاح في حرارة وهو يدس الجنيه والريال في جيبه - فتلك
ميزانية المواصلات ذهابا وإيابا .. بيننا تألق وجه هيكى في بشر وراحة ،
وهو يضع ذراعه في ذراعى ، وعلت صيحة صلاح في الشارع تستوقف
التاكسى ، وإلى الزيتون يا أسطى ! .

« السلام »

القاهرة ٤٤ و ٤٥

وتمضى الأيام والأشهر والسنوات ..
حرب هتلر لاهثة في أنفاسها الأخيرة .. الغلاء يزداد .. أثرياء
الحرب يتكاثرون .. الفقر والبطالة .. الطبقة والمهانة .. السخط
والتمرد .. عيون الناس فيها تحد ولمعان .. جيل جديد يتحفز ..
والقاهرة في جوفها قلابة .. !

استأجرت غرفة بنسيون أخرى في « باب اللوق » ! .. لا لم أترك
بنسيون « كنج فيليب » بالفجالة - فقط هذا البنسيون الجديد للراحة
والخلو ، وأنا معه لا أحتاج إلى مواصلات وما أتفه أجره .. فحياتي
الآن في دائرة لا تخرج عن منطقة الانتيكخانة حيث مكان عملي في
قشلاق قصر النيل .. ثم هذا الشارع الحبيب محمد باشا سعيد حيث
مجلة الساعة ١٢ ، والتي أصبحت أتردد عليها يوميا وتأسست لي فيها
قاعدة من أصدقاء جدد ، ومعارف جدد .. وعائلتي الجديدة وكلهم
كتاب وصحفيون وفنانون !

.....
ومنذ تلك السهرة في ضاحية الزيتون - أصبحت لي عائلة صحفية
حارة الأواصر - تجتمع أولى خلاياها من « صلاح عبد الجيد »
و « محمد حسنين هيكل » ..

ففى تلك السهرة - ومن شدة البهجة والشبع والاستمتاع -
سرت فىنا دفقة من حب وصداقة ، فأعمارنا متقاربة ، ومستوانا
واحد ، وأحلامنا شبيهة ..

سعدنا يومها بأنفسنا جدا ، فالسهرة خواجاقى . ونحن « أولاد
البلد » ضحكنا على كل شىء وعلى لا شىء .. « وهيكىل » يتضرج
وجهه احمرارا كلما طلبته فتاة للرقص .. و « صلاح » انطلق مهرجا
خفيف الروح .. و « أنا » - أبدو مزهوا وملخوما كالديك الأعمى
بينما صديقات « بيبكى » التالقات المتحررات يكرمن جلستنا المنزوية
فى الحديقة بعديد الأطباق والأكواب والزجاجات والمجالسات .. نعم ،
تصاحبنا واندمجنا إلى درجة الولع - وكل يوم لنا لفة أن نلتقى
سويا - حتى لو تسكعنا فى الشوارع والمقاهى وعلى ضفاف النيل ..

« صلاح » لسانه ذئبى وتعاييره فاسقة ، واقتحاماته جريئة
وماجنة - وقد اكتشفت بعد تعلقى به أنه ليس من نوعى أبدا ، ولن
أكون من نوعه أبدا ، بل باتت الصلبة معه - بينى وبين نفسى -
مخجلة ومحرجة .. ولكنه كان منتشرا صاحبنا ، ودائما يبهرنى بحفريات
الكنوز فى سراديب القاهرة الفنية .. سهرات زكريا أحمد . وجلسات
بيرم التونسي .. وحلقات الضحى والليل من شرفة « كازينو
بديعة » .. وجلسات الريحانى ومقاهى عماد الدين .. اليوديجا ،
والركس ، وبيت المهدي ، ونقابة العوالم ، وليالى « الزار » فى شقة
« فتحية محمود » ! .

صلاح منتشر ويزهو أنه صاحب مدرسة فى الصحافة اسمها
« مدرسة الصفاقة » .. مدرسة لا تخجل أن تسأل أرملة الزعيم المتوفى
أمس عن خيانات زوجها الراحل ؟ .. أو تسأل « زيور باشا » البدين
جدا فما رأيه فى منظره عاريا أمام المرأة فى الحمام أحيانا ؟ ..
أو تستقصى من زينب صدقى « فىقال - أنها تستحم باللبن

والقشدة !! .. ثم أن له الدروس الخصوصية أيضا عن مدرسة اتسع انتشارها في تلك الأيام اسمها « الفبركة الصحفية » .. وعلى أى مقهى وعلى أى رصيف يمكن أن تجلس وتحرر مثير الأخبار وتؤلف بارع الأحاديث دون أن تتعب نفسك فالفبركة أسهل ! .. مدرسة تعسة توزع الهش والقش في ساحات اللامبالاة . وربما رضع عزيزى هيكمل منها جرعات كثيرة قبل أن أراه وأعرفه ، فذات يوم وقعت في يده مجلة أجنبية وفيها « حديث للكونت شيانو » عن موسولينى وإيطاليا والحرب ، فاخلى بها وكتب صفحتين عن مندوب المجلة من القاهرة وكيف سافر وقابل الكونت شيانو ، وشرب معه النبيذ ، وتبادلا سيجار الهافانا ومزة الكافيار ، وأدلى له بهذا الحديث المدوى الخاص والذي تنفرد مجلتنا القاهرية بنشره !! .. هيكمل منطو دائما وله انكماش النمى تحت أى مطر أو خطر .. متربص لوثبات الفرص ، فطموحه حارق للوصول - مع تلك الصحافة - إلى أعلى القمم وبأى الطرق ، وكثيرا ما أرهقنى بوقفة الساعات أمام فترينة الانجلو والماشيست ، ويقلب في المجلات والصحف الأفرنجية وأنفاسه تلهث لو يقدر فيشتريها كلها ، أو لو يسافر وينضم لبلادها .. أما أنا ، فمازلت قاطع تذكرة في ظلام قاعة سينما أنخبط بحثا عن مقعدى ، ولا بصيص أمامى إلا هذان الصاحبان ! .

.....

ومع عزيزة أو « موناليزا » كما كنت أغازل ابتسامتها الشفافة الدائمة ، فعلاقتى بها سارية وجارية .. علاقة هادئة وعاقلة وبلا اندفاع - فكلانا يطل على مستقبله - وآخر ما قررنا أن نفكر فيه هو هذا المخيف المرعب الذى اسمه « الزواج » .

فعزيزة - وثقافتها الانجلش كوليج - تراه احتكارا وملا يقتل أى حب ، وصفقة خاسرة للمرأة يتحول فيها الرجل - وخصوصا الشرقى - إلى مستعمر ومبتز وطاغية ! .

أما أنا المتمرد على التقاليد .. الباحث عن كل جديد - فأراه حلا واحدا من مائة حل مفقود وتائه في غياهب هذا الغموض .. علاقة عاقلة رصينة عفيفة ، غير تلك التي ألهيتني وأذلتني وأوشكت أن تصل بي إلى التلف مع النارية السادية الهوجاء « ماري » ! .. أبدا لم يخطر الجنس على بالنا .. اندمجنا في باقة روح أريجها الفن والالهام .. هي تنشد أن تحترف الرسم ، وأنا في الطريق لأكون عضوا في بلاط صاحبة الجلالة ، وطموحها ذات يوم أن تنضم معي إليه كي ترسم قصصى ورواياتى في أشهر وأكبر الدور والمجلات ! .

عزيزتى الموناليزا المصرية والعلاقة سارية ومستمرة ، - رغم أنها تركت العمل في قشلاق قصر النيل منذ بضعة أشهر ، والتحققت بمبنى استعلامات الجيش المجاور ..

تركت العمل بعد واقعة مؤسفة عنيفة - سببها هذه الرعناء ماري ! .. فذات يوم في فترة راحة الظهيرة ونحن في المكتب سويا .. أنا وهى .. نتسامر ، وأحكى لها عن أخبارى ونشوة تنفلاتى في شارع محمد باشا سعيد - وهى جالسة تنصت في شغف وقد انهمكت تتسلى برسمى على شكل « مسحراتى » يدق بالطبلة في الليل على بيوت شارع محمد باشا سعيد ! .. ونحن هكذا ظهر « الميجور كول » وفي ذراعه ماري ، يرحان ويضجان ويفشيان غرامها الصريح على مرأى من الجميع .. منظر ممض طبعاً ، فهو حركات شغب واستفزاز من ماري حين يحلو لها أو تصور أن تلهب ما خد من غيرتى .. أنها تراقب علاقتى بعزيزة بعين القطة الغضوب التي اختطفت منها مواليدها .. ويا إلهى فمتى يهدأ الاعصار من هذه الفتاة ؟ .. نزوات جموحها تلك فماذا تقصد بى أو ماذا تريد أو ماذا عادت تطمع منى الآن - أنا خاوى الوفاض حائر المستقبل - وفي يدها صفقة ابن لوردات ممتلئ وغنى وبراق ! .. لقد توقفت هذه الجارحة وراء ظهر عزيزة برهة تتملئ

من الرسم ، ثم أطلقت ضحكة رنانة مستخفة عن يواخ المعنى من هذا الرسم .. وردت عزيزة عليها في حدة بأنها أمور لن تفهمها ، ويجب أن تحترمها ! .. وانفعلت ماري في غيظ وأكدت على أخطاء في الرسم ، بل تجرأت في حركة مياغته سخيفة وأمسكت بالقلم تصحح أو تشوه فيه ! .

وهنا - حدث المنظر المرعب الغريب - من عزيزة .. تحولت فجأة إلى شكل لبؤة هائجة تفتتح منها الأنياب وتخرج المخالب .. خطفت ورقة الرسم من يد ماري ثم في صيحة تشبه الزئير أمرتها أن تنصرف من أمامها فوراً ، وإلا ألقى بها في تلك المحبرة على وجهها وثيابها ! ..

تراجعت ماري مذعورة فقد بدا منظر عزيزة المربد المنفعل على استعداد لتنفيذ هذا الأمر فعلاً .. أدهشني منظر عزيزة وسرت البرودة في جسمي ، يا غرابية الخفي من أمور النساء حين تتحول نعوتهن فجأة إلى ضراوة وشراسة .. وقبل أن أعمل على تهدئة الموقف ، تحرك صديقي الأحق « ميجور كول » ووجهه متقد بمثل قرص النار الأحمر نحو عزيزة وقد ضايقته تلك الالهانة منها لخطيبته ، وألقى الأمر على ماري بأن تظل في مكانها فلا تخرج فهو الرئيس الذي يأمر هنا ! ..

وبسرعة تحول المشهد إلى بارود وقتيل قد بدأ فاشتعل فعلاً - فقد ظهر على كول أنه مصر على رد الالهانة لعزيزة ، وخيل لي أنه سوف يخرج عن تحضره فيصفعها ! .. قفزت أقف أمامه وجهها لوجه ونظراتي حادة ، ومنظري يقول له سوف أضربه طبعاً لو فعلها ! .. ولكن عزيزة رفعت رأسها واختطففت حقيبتها وزعقت فيه بكيرياء - إذن فسوف أخرج أنا ! .. ولم تتمهل .. اندفعت خارجة ، بل اختفت فجأة بحيث لم أتمكن من اللحاق بها ! .

سئمت بعدها قشلاق قصر النيل هذا .. ضقت ذرعاً بحماقات ماري .. يئست من تخبطات كول ، فكم جعله هذا الحب الشاذ سخيلاً بل منفراً .

وغابت عزيزة عن عيني بضعة أيام - يا لهفة قلبي وحيرة عقلي
وقلق نفسي من غيبتها تلك - .. اختفت عن أى مكان اعتدت أن
أجدها فيه .. منظرها الغريب الذى فاجأنى فى طباعها ؟ .. هل هى
غاضبة منى ؟ .. فماذا كان بوسعى أن أفعل ؟ .

و ذات يوم وأنا خارج من بوابة قصر النيل ، وجدت ها واقفة تنتظرنى
مع فتاة زميلة لها فى العمل اسمها « تماضر » اندفعت نحوها متلهفا
ومتسائلا ومعاتبها ، فأعطتني الراحة فورا من صفاء نظراتها وعودة
الابتسامة الشفافة إلى وجهها الموناليزا المصرى الخلاب ! .. وأخذتها
من زميلتها وعلى فمى مائة سؤال وسؤال من حول ما حدث وبعد ما
حدث ، ولكنها وضعت كف يدها على فمى فى رقة فلا داعى .. أنها
الآن تشتغل فى الاستعلامات ومرتبها أكبر ، وعملها أسهل ومهذب
ومريح ولهفتها الآن أن ترى « فيلم استر وليامز الجديد فى سينما
مترو » . - وهذه هى قد قطعت التذاكر وتعال حتى يحين الموعد
نتمشى ، واحك فى أنت عن أخبارك وآخر قصة كتبها ؟ .

آخر قصة كتبها اسمها « لعبة المجد » .. صراع المناظر أو تمرد
المناظر فى غابة الاقطاع والطبقية ! .. وآخر برج بابل كتبته عن
العدالة الاجتماعية التى تحدث عنها فى جريدة الأهرام « دولة اسماعيل
صدقى باشا » .. عدالة اجتماعية ؟ ! .. وتعالوا نطل على نوعها فى
قصور جاردن سيقى والزمالك والشوارع مغسولة بالعطر والصابون ، ثم
نأخذ النظرة على الأكواخ والعشش والوحد والبيوت الصفيح فى
عشش الترجمان والدراسة والكحكيين !! .. تعالوا نمسك الميزان من
« فاترينة عكاوى » وفيها - غويشة بالفصوص - وثمنها يشترى حى
الشرايية برجاله وحريمه وأطفاله !! .. قفوا نأخذ اللقطات من رشاقة
العدالة الاجتماعية ، بين العابرين والشوارع والأزقة والحوارى وثلاثة
أرباعهن « حفاة » بلا حذاء أو شيشب أو حتى قبقاب ، أما الربع

الباقى فله تنحنى العدالة ويستريح منها الضمير وهم يختالون فى الحذاء اللميع وعليه غطاء من الجوخ والقטיפه !! .

« مى الصغيرة أصبحت يافطة كبيرة مرموقة فى الشارع الصحفى الصغير .. وأنا رسولها أو مندوبها أو فلأكن من أكون ، فقد خفت التساؤل رويدا رويدا بعد الاصرار المغالى منى بين خاصة الأصدقاء والزملاء على أننى لست هى .. حدث الاستسلام الباسم منهم فقد تخرجوا أن أغضب وأتركهم فيفقدوا الجذوة منى ، فقد أصبحت بينهم محبوبا ومرغوبا ومطلوبا .. خفت التساؤل بين الخاصة والقربى ، ولكنه لم يخف أبدا بل استشرى وتضخم بين القراء وغرباء الشارع ! . يالها من حكايات .. يالها من نواذر ..

وذات مرة أعلنت الزعيمة - فاطمة نعمت راشد - عن تأليف حزب سياسى عن نساء مصر اسمه « الحزب النسائى الوطنى » سخريه طبعاً ، وقد هرول الكاريكاتير الصحفى من ورائها بالذع والهزء ، فقد كانت للست فاطمة هذه تقاليع بمثل تقاليع الشيخ أبو العيون - الذى يطارد النساء العاريات على البلاجات ! .. وعن هذا الحزب وصلت الدعوة بالانضمام إلى الكاتبة « مى الصغيرة » ولأنها لا تقدر أن تنضم أو تظهر أو حتى تقتنع ، فقد ظهر لها مقال تسفه به ظهور هذا الحزب ، فهل ينقصنا فشل أحزاب الرجال ليمتطى الفشل أيضاً ، أحزاب النساء ؟! .. ولقد انطلقت المعركة بعد هذا المقال ، فقد ردت الست فاطمة ردا قاسيا ، فردت مى أشد قسوة واندلاعا .. وتطايرت برقيات وخطابات التأييد ، بل مقالات منفعة لى الصغيرة تحمل اسم « أسما حليم » « وكوثر منصور » ونازلى فؤاد » و « حكمت أبو زيد » و « سعاد الرملى » ! .

.....

مى الصغيرة - وجلستى دائما فى الساعة ١٢ - مجرد زائر مستديم

لصديقه الحميم « حازم فوده » أبدا لا أمسك القلم والورق لأكتب أثناء وجودى فيها .. أحاذر أن يراى أحد أكتب حتى ولو كان من أقرب الخاصة .. ورويدا رويدا تساهلت أمام « حازم » فأصبحت أختطف كتابة ما يطلب منى أمامه - فقط عليه أن يغلق الباب بالمفتاح والترباس ! .

سريت بعض القصص إلى الجارة « روز اليوسف » ولعت فيها رمية قصة عنوانها « امرأة » .. بطلتها ولأول مرة من جرؤات القلم القصصى المصرى - « برنسيه » من البيت المالك « أميرة شاذة لاهية ومنحلة ، تسلل خادمتها فى الليل لاصطياد فحول الرجال ، ولذتها بعد أن تبهرهم وتضاجعهم أن تسرق محافظهم وأسرارهم وتضعهم فى مأزق الفضيحة والابتزاز ! .. ثم قصة أخرى « لروز اليوسف » أيضا كان عنوانها : « أعاصير العزوبة » ، والاهداء فى برواز المقدمة من الكاتبة العذراء مى الصغيرة إلى عازب مصر الأشهر عباس محمود العقاد « .. ويومها ، يومها سأل « العقاد » واستقصى بشدة فلماذا لا تخرج « مى » هذه من محاربتها فربما ينزلق هو عن صهوة عزوبيته فيتزوجها ! .

.....

انتشرت « مى الصغيرة » وأصبحت فقرة دائمة فى صغير الصحف والمجلات ، من استفتاءات وأحاديث وأخذ آراء - فمثلا هل « عجزت القصة المصرية عن تموين السينما المصرية ؟ » .. وآراء مشاهير وأقطاب القصة مثل « محمود تيمور بك » ، و « إبراهيم رمزى بك » ، و « الدكتور سعيد عبده » ، و « المازنى » ، ووسطهم يتألق اسم القصصية الأدبية « مى الصغيرة » ! .. أو فى مجلة أخرى - « وهؤلاء القصاصون حينما يصفون منظرا واحدا » ! .. أو - « البطل الذى حققت عليه أثناء كتابة قصتى » .. أو « هؤلاء الكبار يكملون قصة

ناقصة عنوانها « ليلة في الجنة » .. أو « ربع ساعة مع مى الصغيرة » والسؤال لها في « مجلة رابطة الشباب » عن « ماذا تفعلين لو أصبحت عضو برلمان ؟ » .. ومى الصغيرة أيضا في « مجلة التلغراف » ، والسؤال لها مع « فاطمة اليوسف » ، و « منيرة ثابت » و « فاطمة راشد » وهل نجحت المرأة المصرية في الاشتغال بالمحاماة ؟ .. ثم هذا المقال من صفحتين في « مجلة الشعلة » وصاحبها « محمد على حماد » والعنوان : « هؤلاء القصاصون ورأى مى الصغيرة فيهم » .. « تيمور » ، و « سعيد عبده » و « يوسف جوهر » و « يوسف حلمى » و « صلاح ذهني » و « محمود كامل » ، و « طاهر لاشين » ! .

وذات مرة أصدرت الساعة ١٢ عددا خاصا عن « السينما » وكان طبعيا أن تشارك فيه ، فكتبت مقالا كان له الدوى والرعب والدهشة في البيت الصحفى كله من وقع جراته تحت عنوان « نجوم غير سينمائية » .. تضع فيه الزعماء ونجوم السياسة والأحزاب بلا ماكياج ، وبلا باشوية ، وبلا بيكوية ، وبلا صاحب دولة وسعادة وعزة .. - وتعال نشاغبهم بالقلم ، فما الفرق ، وبمثل ما نفعل مع الكسار وشرفنطح والقصرى ؟! .

« أحمد ماهر » ، وعبد الحميد عبد الحق ، و « فكرى أباطة » و « عبد الواحد الوكيل » و « مصطفى النحاس » و « اسماعيل صدقى » و « أمين عثمان » و « مكرم عبيد » و « الصوفانى » و « الرافعى » و « هيكल » و « حلمى عيسى » و « عبد الرحمن عزام » و « محمد محمود خليل » و « محمد صلاح الدين » و « توفيق دوس » و « عبد المجيد صالح » و « سنى اللقانى » و « فؤاد سراج الدين » و « حسن نشأت » و « عبد الفتاح يحيى » و « أحمد حسنين » .. و « أحمد زيور » و « البدرأوى عاشور » و « رشوان

محفوظ « و » النقراشى « .. و » صليب سامى « و » فريد زعلوك « و » سيد سليم « ! .

هذا المقال .. ولو كان كاتبه رجلا لسحبته المباحث والمحاكم إلى السجون فورا ، أما وكاتبته فتاة ، فالغمزة والابتسامة والاستهانة تكفى ، ومهما سرح بعيدان الكبريت فى هش الحياة السياسية .. وتماسكت بشدة عن انفجارات الغرور حين ظهر مقال فى مطلع العام وفيه يتنبأ الكاتب الذى هو « فتحى الرملى » ، بأن المستقبل لهؤلاء الخمسة .. أولا : « حافظ محمود » ، ثانيا : « إحسان عبد القدوس » ، ثالثا : « عبد المنعم حسن » ، رابعا : « مى الصغيرة » - والنبوءة عنها أنها سوف تصبح قريبا جدا من كواكب الأدب الإنسانى فى مصر - والخامس : « رمسيس يونان » فهذا هو خليفة سلامة موسى ! .

هكذا رسخت القاعدة من عائلتى الصحفية ، بل انتشرت وترعرعت .. وفى - البداية كما قلت - كانت أول البذرة منها هما : « هيكى وصلاح عبد الجيد » .. ثم أغرى منظرنا « سعيد عبده » فانضم إلينا ثم تبعه هذا المتألق بين السفارات والدبلوماسية صديقى الجديد والحميم « رمسيس نصيف » ! .. ثم أسقطنا « صلاح عبد الجيد » فلم نعد نطبق ضجيجيه وتبذله ونزواته ، واشتد تأزرى وتحالفى مع « هيكى » ، فهو معى يتغدى ويتعشى وأحيانا يفطر ! .. ثم « رخا » ، و « بيرم التونسي » ، ثم « محمد على غريب » ، ثم « زهدى الرسام » وهو دائما يحتال فى الشوارع متشنجا وعصبيا برسومه الوطنية ، ولا يهمه البنطلون المرقع والحذاء الهالك وهلاهيل ما يرتدى من خرق أو ثياب ، وزجرته فى وجه من ينقده أنه يمثل الأربعة عشر مليوناً حافى وممزق ومملق ! .

ثم تقلصنا من هذا الصخب فأصبحت مجموعتى الخاصة - التى بت لها الوقود والجذوة - هى كهلنا الطيب الفنان الدكتور سعيد ، والنمس

المنكش محمد هيكل ، والمانشيت الدبلوماسى الرشيق رمسيس
نصيف .

عائلى الجديدة الخلافة ، خيلتى التى آوى إليها .. وكان تصنتى معها
بل خفق قلبى ، على هذا الديب الذى بدأ يعلن عن قرب أن يرج
الأرض الصحفية .. التوأمان اللامعان « مصطفى وعلى أمين » يعدان
لظهور « أخبار اليوم » قريبا قريبا ! .

« الزلزال » _____

القاهرة ٤٤ - ٤٥

طرحت نفسى على السرير فى « بنسيون كنج فيليب » .. محمقا
ياخذنى الأرق فالساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل ، ومن النافذة
فالظلام بهيم .. الفجالة هاجعة تماما .. المدينة كلها ساكنة إلا من دقائق
الساعات .. عيى على النتيجة الكرتونية المعلقة على الحائط .. نظراقى
نحوها ضريبة فقناع مى الصغيرة يكبس وجهى .. تشتد لفائفه من
حول وجهى .. مازال أمامه سنتان قبل أن يرفع .. منذ خططت لهذا
أصبح الأمر وثيقة واتفاقا .. ولكن يا دعر ما توشك أن تضعف ارادتى
منذ أيام ويدى المرتجفة تتحفز أن تفك الأربطة ! .

.....

ديب زلزال زاحف يرج الأجنحة فى بلاط صاحبة الجلالة
الصحافة - من قرب ظهور « جريدة أخبار اليوم بقيادة التوأمين
مصطفى وعلى أمين » ! .

« التوءمان مصطفى وعلى أمين » - ولها خلقه عملاقين ، وشكل
مصارعين ، ووهج جماهيرى ينتشر ويروج ويملأ الآفاق .. تركا
« دار الهلال » فى مظاهرة تشبه الانقلاب - فقد هرول من خلفهما
ولاء رعية كبرى من الكتاب والصحفيين والرسميين فى تلك الدار ،

ولحق بها رعية أكبر من الكتاب والصحفيين والرسامين في كل البلد ، واختاروا أطول عمارة في شارع قصر النيل واحتلوا الأسطح العالية منها - وارفعى قامتك يا كل مصر لتطول القامات الطويلة من جدد أولادك ! .

« مصطفى وعلى » شابان ارستقراطيان يلهبان الخيال ، فأبوهما سفير ، وأمهها صاحبة عصمة وسبطهما من « باشا مصر الأعظم سعد زغلول » ، ومهدهما بيت الزعامة الشريف المنيف .. نشأتهما أخذت نواصى الحضارة جنوبا وشمالا فهذا نال الشهادة وعاد من أمريكا ، وذاك نالها وعاد من بريطانيا العظمى ، ولهما سنوات صحفية خفيفة منذ التحقا بـ « مدرسة التابعى » ، ليتخرجا فيها سريعا ألفوات وأوائل ويعلن الساحة والمرح والنشوة والحرارة ، وأيضا التدليع الجماهيرى والتعشيك الشعبى ! .

مصطفى وعلى - إثارة ، وشطارة ونجومية تأخذ بالألباب . سرعة الوثب لها - فى عيون الجيل - مذهلة بل ساحرة . والجماهير الحائرة تفرك الأعين عليهما فى دهشة واستغراب ، فهما يهاجمان الفقر والذل أحيانا وكأنهما تربيًا على طبق المش بالدود فى « قرية وردان » ! .. ويهاجمان الطبقيّة والمهانة أحيانا وكأنهما من مواليد حوش بردق وعزب الصفيح ! .. ويلهبان الحزبية والزعامات أحيانا وكأنهما يمسان عصاة النبى موسى تشق لها ولقرائها البحر والصخر ! .

مدرسة التابعى الكهلة ، تلد مدرسة جديدة شابة وثابة ومشاغبة .. لا تخاف ولا تأبه بجبايرة البلاط الراسخين من ملوك صحافة الشوام واليهود ، فهل هم إلا أصنام من جاهلية مصرية حان لها أن تتهشم وتكنس .. نعم مع بدء ظهور أخبار اليوم ، بدأ دعر السوق الشاميهودى خوف انتقاله من صحافة الأغراب إلى صحافة الأبناء .. ودائما كانت لهم القدرة السهلة أن يطيحوا أو يذيبوا أى اقتحام على احتكار دولتهم .. لديهم أسلحة القتل دائما من توزيع أو إعلانات أو

مؤامرات فى خفى الكواليس .. أما هذه المرة ، فقد بدأت شواربهم المبرومة تهتز فى ارتعاشة العجز والحيرة - فهؤلاء الجدد - تساندتهم عاطفة قومية عارمة .. حفاوة شعبية تهلل لهم بل وتحميمهم ! .

.....

الشارع الصحفى وأنا أمشى فيه خافق القلب لاهت الأنفاس ، يأخذنى هذا الدبيب تحت أقدامى وهنا الزلزال فى وجدانى ! .. القلق والحيرة وتطاير الأفكار مع ابن الفلاحين بالغ الحياء ، وهو يتلهف على فرصة أن يجد المقعد معهم .. الفرصة مع هؤلاء الجدد المتألقين اللامعين .. الكل يهرول نحو أرض الذهب الصحفى .. ناشئون وقدامى ، فالمستقبل لها .. وأنا أتماسك بنفسى والاغراء يلوى عنقى على ضجيج الانتشار ورواج الالتحاق بالدار الجديدة .. أتعثر بأفكارى فهل هى الفرصة أن أصارح « رخا » أو « مأمون الشناوى » - وقد أصبحا لى من أعز الأصدقاء - فأرجوهما أن يتوسطا لى عند التوأمين .. يتوسطان ؟ .. لا .. لا .. لقد ألغيت الوساطة من مشوار حياتى ، ولن أبعد عقائدى سهلا فلا بد أن هناك وسائل أحسن ! .. ترى هل أقدر أن أتجراً مثلا ، فأستأذن من حيائى الريفى البائس هذا ، وأخذ نفسى إلى التوأمين ، وهاكم غمرة إثارة يا ملوك الإثارة .. مى الصغيرة ولها الآن ضجة كبيرة .. محبوسة فى حى النشأة نعم - ولكن ها هى على استعداد للانطلاق على أيديكم ما شئتم أن تبقى أو ترفع القناع ! .

لا . لن أقدر أن أفعل هذا أو ذاك ! .

تنقلات وتأهبات سريعة وغريبة تغمر الشارع الصحفى ! .. « دار الهلال » تعلن عن استيراد مطابع جديدة بأفخر الألوان ! .. « الأهرام » تسمن صفحاته وتسخو تجديداته ! .. « المصرى » له شعبية الشارع اليومى وتجربته ، ولا يأبه بالمزاحمين الصغار ! .. « صحافة الوفد » تطل من الشبايبك فى ضجر وسأم فماذا يعنيه ! ..

« صحافة الأحزاب والمعارضة » تأخذها تقلصات الحرقه واللهفة أن يبين أى جديد ! .. « الصحافة المستقلة » تهرش رأسها وتفكر فماذا بعد ؟ .. دكاكين الشارع الصحفى الصغير فتوعة بأحوالها المستسلمة فعم يأخذها الخوف أو الذعر ! .

ضجة انتقال ليست من « الشاميهدية » إلى « المصرية العصرية » فقط - بل من مدرسة التابعى القدية إلى مدرسة خريجيها الألفوات ! .. تنقلات من آخر ساعة ، فكامل الشناوى يترك رئاسة تحريرها وينضم متفرغا لأخبار اليوم ، و « التابعى » السائح المرفه فى « كبرى » ونجم حاشية النزهة مع « الملكة نازلى » تنشر له باذخ الصور وهو يرفع الملكة الأرملة الضحوك اللعوب بذراعيه من زحلقة الجليد - وعلى وجهه ابتسامة مختالة تستدرج لنا الهمس والطين والتباهى ! .. التابعى تصله الأنباء هناك عن الانقلابات التى تجرى فى دولته فلا يأبه ، فهو الامبراطور الخالد وبوسعه أن يعود فى أى وقت ليهش الصغار والرعاع عن تطاولهم على عرش مملكته .. انه لا يأبه ويعطى تعليماته تليفونيا أن يدير آخر ساعة حتى عودة صديقه « الدكتور سعيد عبده » ! .

تنقلات ، وسعيد عبده يأخذ معه « هيكىل » من « روز اليوسف » إلى « آخر ساعة » ويعود « إحسان » - الذى كان فى خصام مع أمه - من « آخر ساعة » ، إلى مجلته « روز اليوسف » .. و « رخا » يفزع العشرين مجلة التى كان يرسمها بأنه سوف يكف عن المعاملة بعد أن تفرغ لأخبار اليوم .. « المازنى » و « الصاوى » و « توفيق الحكيم » و « العقاد » يوقعون العقود بأرقام مرعبة .. إشاعات عن النصف مليون جنيه التى دفعها « الملك » و « أحمد حسنين » للتوءمين كى يطيحوا بالوفد و « مصطفى النحاس » ! .. أو الثلاثة أرباع المليون التى دفعها « عبود » ليرسخ إعلاميا من سيطرة اقطاعيته الصناعية التى ترامت معالمها من « دمياط إلى الأقصر » ! ..

أو « أم كلثوم » التى أودعت ذهباً ومصاغها ضماناً لقرض كبير من بنك مصر ! .. إشاعات وإشاعات .. ومنها من يصارح ويؤكد أخيراً - ولا مليم ، فالتويمان خاويًا الوفاض وما اعتمادهما المغامر الأهلل إلا على هذا الحافى العارى الساخط المحروم الذى اسمه « الجمهور » ! .

.....

وفى مساء « التعيين لصديقى الدكتور سعيد عبده - يشرف على تحرير « آخر ساعة » .. وصديقى « محمد حسنين هيكل » يسك « السكرتارية » بمرتب صاعد وثابت هو ستة جنيهات ! .. وكان الاتفاق لى معها أن نحتفل بالمناسبة فى أى مكان ، وعلى حساب سعيد الممتلئ طبعاً .. وقد جاء الاحتفال فى تلك الأمسية رائعاً وبلا قصد ، عندما قابلا فى ومعها دعوة من « النجمة البازغة زوزو ماضى » ، فالليلة تقيم سهرة عيد ميلادها فى شقتها الواسعة الفاخرة بشارع الملكة نازلى بجوار « غمرة » ! .

السهرة تتوهج بالنجوم والكواكب .. مزدهمة ونشوانة ومتألقة .. مجتمع غريب صاحب ، يموج مع بعضه ، ولا يسأل إلا عن هناء ليلته ، ففداً يوم آخر ! .. وقد أخذنا لأنفسنا ركناً منزوياً للنقد والتأمل ، فمتعنا فى أى مكان - ومنذ أشهر - أن نكون سوياً كل ليلة ونجد جديداً نطل عليه أو ننقده ! .

صديقى . « الدكتور سعيد عبده » يلحق ريقه ، بيننا نجمة مسرح الرياحى الشهية « ميمى شكيب » تحب أمامه فى لحمها الأبيض الفاخر ، وتستحلفه فى تنثى الغوانى أن يعيد على مسامعها مواله الصاعق الشهير عن « حلمى عيسى باشا وزير التقاليد » ، هذا الذى كان قد أصدر قراراً يلغى به « معهد التمثيل المسرحى » ، فالتمثيل انحراف ومجون ! .. وبصوته العصفورى الناحل انطلق سعيد ينشد لها كل مواويله : بيننا عزيزى الحجلول هيكل يمسح بعينه المتلمظتين على خمائل العنق والأكتاف والنهود .

صديقاي البريثان الممتعان يمرحان - صوت وصورة - مع من التف حولهما من نجوم وفانتات ، وأنا شارد وبعيد فحرماني أكبر من كل هذا بكثير .. لهفتي وحرقتي منذ بدأت تلك التنقلات الصحفية ، إلى إشارة الأصبع الذهبية الساحرة من مولاتي صاحبة الجلالة وطريقة أن تأمر لأخذ مقعدي ، كيف بالله في بلاطها الخاوي من أولاد الفلاحين ! . عيني تميل على منظر صديقي الدكتور سعيد ، فكم هو بسيط وودود .. وفي أعماق نفسي وقبل أن أعرفه - يلهب خيالي بأسلوبه الراشق المختال ، وقصصه الخلاب ، وموايله القاصمة ، ومقالاته الفريدة ، وأي شيء يكتب فيه فله عطر يتميز ! .. ها هو بجوارى ، وكنتفى لصق كتفه في حالة صداقة أخاذة .. إنه ريفي مثلي ، ولكنه ليس من طبقتي ، فهو طبيب وأستاذ جامعة ورئيس تحرير ، ولا بد أن لأبيه أرضا وأملاكا ، وإلا فكيف دفع مصاريف الطب الباهظة ؟ .. إنه يكبرني - أنا وهيكلم ورمسيس - بعشرة أعوام تقريبا - ولكن طباعه الفنانة قادرة دائما أن تذيب فارق العمر ، بل إنه يبارينا أحيانا في المرح وشطط المآزق ! .. ورغم حبي له وانبهاري به فقد كان يفزعني منه مقدرة تطويع القلم - فهو يجيد الكتابة عن الوطنية إلى درجة الالتهاب ، ولكنه في قرارة نفسه يستخف بجداها .. يهاجم وله مخالب في موايله الحزبية ، ولكنه بعدها يتمسح معتذرا فما هو إلا محترف ! .. أسقط رأيه السياسى في بئر غائرة ، فهو اليوم في المجلة الوفدية ، وغدا في المجلة المستقلة ، وربما بعد غد في الجريدة المعارضة ، فمادام النشر بلا توقيع ، أو حتى أحيانا بتوقيع ، فما هو إلا قلم يأخذ أجرا ! .. نعم كان يفزعني بتلك الضحكة العصفورية المستخفة كلما تشجعت وأبرزت له بعض الخفى من تربصاتي في أمور الكتابة للناس .. أحلامي الجياشة في وطن له كرامة بمثل وطن هؤلاء الانجليز وهؤلاء الأمريكان وهؤلاء الفرنسيين ! .. إحساسى الواثق بأن مصر - بعد حرب هتلر - تقف على شرفة تغيير هائل وجارف .. وتعال أراهنك

عزيزى وأخى الكبير على أن « فاروق » هو آخر ملك ، وأن الانجليز هم آخر استعمار ، وأن هش تلك الأحزاب وتلك الزعامات سوف يصبح وقودا لمرحلة تحرق كل شيء ، وإن الاقطاع سوف يرتعد من مفزع مصيره فيصرف نفسه بنفسه ، وأن رايات الأغليات سوف ترفرف ذات يوم عاجل وقريب على ساريات هذا البلد الذى هذا هو منظره فقد نفذ صبره وأوشك أن ينفجر كبته ! .

تفزعى ضحكته الهازئة المستخفة ، ففيها مرارة إنسان بدأ مثلى ثم بعد عديد التجارب تراجع .. كمن وقعت عليه صدمة كبرى من تلك المثاليات والوطنيات ومازال فيها .. ولعلنى كنت ألاحظ تلك الصدمة الغامضة وانتشارها فى ملامح هذا الجيل كله .. عدواها فى الطباع الصحفية .. كلهم مصابون بها حتى الناشئة الجدد ، محترفون ولا شيء أكثر .. مؤجرون ولا التزام أكثر .. محترفون جدا وملتزمون جدا ، وتذاكرهم قطعوها واستراحوا ، فهم ركاب أكسبريس فاخر ومريح يأخذهم سهلا وهينا إلى محطات أهل الزهو والأنامالى .. ركاب قطار فاخر وسريع ، وممنوع أن تفتح الشباك والإرماك تراب الفقر والبؤس والهزال والمذلة والهزيمة من ثلاثة ألف قرية تبدو كأكوام الطين والقمامة حول النهر البائس .. ولقد حيرتنى تلك الصدمة وعذبنى البحث عن سبب استمرار سريانها ، فهل هى رضاع الاستعمار ، أو التربية منذ المهد فى الصحافة الشاميهودية ؟ .. أبدا ، فمنذ جيل قريب لاحت الوطنية المصرية فتية يافعة ، وانتفضت الشعبية تقتحم قلاع الصحافة والسياسة ورغم أنف أى استعمار وأى شاميهودية ، فهل يكون السبب هو انكسار النفس منذ صدمة الفشل من ثورة ١٩ ؟ .. ومن قبلها صدمة الفشل من ثورة عرابى ؟ .. ومن بعدها صدمة الفشل من ترهل حزب الأغلبية وتحوله إلى محاسيب وأنساب وأصهار وشلل قمصان زرق وسواها ؟ .

تلك الضحكة الهازئة المستخفة - كلما كشفت الستر عن ريفتى

المتربة - لم أكن أسمعها من صديقى الطبيب المصدم سعيد عبده فقط ، بل كانت تواجهنى من أرجاء الأجنحة كلها .. تستوقفنى بل تكسفنى وتستخف بطموحى وأهدافى ، فأضم نفسى على نفسى فى انطواء الخجل والدهشة .. حتى « هيكل » ، وعندما كانت تتضام رؤوسنا ليأخذنا الهيمان مع طموح المستقبل فقد كان الحلم الأكبر له مثلاً مثلاً - لو يكون موجوداً ومعه كاميرا ليأخذ اللقطة والنبأ من لحظة يقرر القدر فيها أن ينهار هرم الجيزة الأكبر - أعوذ بالله يا ساتر ! - فيكون هو أول من يحمل المانشيت والصورة لصحف كل العالم ! .. وكثيراً ما كنت أشمئز منه وأخاصمه لحركات جديدة تعلمها ويوشك أن يصبح فيها أستاذاً .. حركات جديدة أو موضة جديدة اسمها « المقلب » انتشرت وراجت فى تعامل الأرجاء الصحفية ، وأخذوها على أنها مباريات أعماق رياضية ، فالسمك يأكل السمك .. ثم هذا التلفيق الذى استمرأه وأدمنه من « القبركة الصحفية » وخداع العناوين وتقويه الأخبار وتسريب الإشاعات .. أعاتبه أحياناً ونفترق متخاصمين - ولكن نعود دائماً والذراع فى الذراع يجمعنا ولع من حمية صداقة وشباب .. نعود وهمسه التراضى فى أذنى .. كن أنت ولأكن أنا .. - ودعنا لا تناقش أموراً نختلف فيها ، ومن قبلها ناقشها ومارسها من هم أعظم منا وقد أكدوا أن الصحافة احتراف حياة خاصة .. تفرغ حياة خاصة بمثل تفرغ السيرك ونجومه من حيوانات ويهلوانات !.

.....

سهرة زوز ماضى ممتدة .. « اسماعيل يس » يلقي منولوجاته .. « الكحلوى » يغنى جديد بدوياته . « كاريوكا » ترقص .. « عزيزة أمير » وزوجها « محمود ذو الفقار » .. « أنور وجدى » و « حسين رياض » و « ميمى شكيب » و « سراج منير » و « حسن فايق » .. « إلهام حسين » و « محمد أمين » و « وداد حمدى »

و « حسن إمام عمر .. » و « مصطفى وعبد الشافي القشاشي »
و « ميكى ماوس » و « السيد شوشة » و « ليزولين » .. « زينب
صدقى » و « أحمد بدرخان » و « روحية خالد » .. « سعاد
مكاوى » و « عباس كامل » و « إبراهيم ناجى » و « زوزو حمدى
الحكيم » و « لولا صدقى » و « عزيز عثمان » و « بشارة واكيم »
و « حسين فوزى » .. « سليمان نجيب » و « قاسم وجدى »
و « حكمت فهمى » و « عبد العزيز محمود » و « فتحية أحمد »
و « محمد كريم » و « صالح عبد الحى » .. سفرجية من
« جروبي » ، وهدايا من « السرجاني » ، ولفائف من
« شيكوريل » ، وباقات ورد من « على باشا إبراهيم » و « حفى
باشا محمود » و « الخواجة » « مزراحى » و « الخواجة » « بوللى » ..
ويسكى . وكونياك ، ونببذ ، وشمبانيا ، وخراف مشوية ، وندى
محر ، وبقلاوة ، وتفاح ، وروائح سجائر حشيش ! .
مجمع مخملى باذخ المظاهر ، مرتفع الصوت ، هائل الصيت ،
فلا نجومية فى مصر المعمورة إلا للسياسيين والصحفيين والفنانين ! .
أخفض رأسى .. أفر من حسرة التأمل ، فإن مجموعة صاحبة من
أخبار اليوم الجديدة ، قد ظهرت تتمختر مختالة وكأنهم ديوك الصحافة
الجدد ! .

« الحديقة »

القاهرة ٤٤ و ٤٥

صديقتى العذبة « عزيزة » وصداقتنا سارية فى محفة من رقة وعفة وحنان ! .. واحة ظليلة فى هجير لافح .. قناة ماء سلسبيل فى متاهة جرداء .. أحكى لها عن طحن أفكارى ، وعتو قلقي ، ولظى حيرتى بل لهفتى وحرقتى وراء مظاهرة الضجيج من ظهور أخبار اليوم ! .

هذا الإعداد النشط المسرف لمائدة « صحافة مصرية » لا طعم فيها للشوام أو اليهود .. لا مقاعد فيها للشوام أو اليهود .. وفرصة لو أتيت لى فى هذا العرض الباذخ أن أرفع هذا القناع الذى يكبلنى من « مى الصغيرة » ، بل إنها الفرصة لهم يا رباه ، فأين مقاعد الفلاحين ، بل كيف جودة الطعم المصرى بلا فلاحين ؟ .

واضح أنها سفرة عصرية أنيقة ، ولها أتيكيت الشوكة والملعقة والسكين ، وبريق الفراك والسموكن والبويون ، والمعازيم هم أهل الصفوة والصقل واللمعان من صالونات القاهرة والاسكندرية فقط ! . كيف غفلوا عن مقاعد الأغلبية وهم يقولون أنهم من جذور نبتها ؟ . هل هو اجتذاب البداية من سطوة الاحتكار الارستقراطى فقط وبعدها يشمرون الأكتاف ؟ .. هل هى لفافة الأعداد الأولى فقط

وبعدها يفضون الحوائج الشعبية ؟ .. يا دهشتي فماذا يكون القصد من هذا الظهور الطبقي حتى بيننا نحن بسيط المصريين ! .

.....

أحكى لعزيزة والجلسة لنا على ضفاف النيل من شاطئ « روض الفرج » وقد علا صوتي دون أن أدري صاحبا ومحتجا بل اغرورقت معه عيوني ! .. تميل بكل الرقة والدعة والحنان وتغلق بيدها على فمي وفي عينيها عتب على طفولة شبابي ، فأى فرصة تلك التى سوف تضع - وقارب مئ الصغيرة - والحبل فى يدك يخر بك العباب فى فسبح قادم الفرص ؟ .. ظهور أخبار اليوم هو بداية الشرخ من تهشم سور اللا مصرية ، وأنتظر بعدها عبور عديد القوافل ! .. ثم أنت مازلت فى مقتبل العمر فأى فرصة لك تتوقع أن يصنعها سواك ؟ .. فرصتك بيدك أنت ، وهى أن تظل تنمى من مواهبك ومما منحه لك الله وتستمر بالثقة فى نفسك - وقل يا صاحبي البريء الطيب فأنت لست من هذا الرعيل - وتذكر ما تردده دائما أمامى من أنك ابن أغلبيات نائمة لم يوقظها أحد بعد .. كن أنت من يوقظ فيهم .. هكذا دع قاربك يأخذ المسيرة بين خلجانهم ، وتماسك واصمد ومهما كانت الأنواء فسوف ترسو ذات يوم على الشاطئ المنشود ! .

« عزيزة » وأشعر أحيانا أن فى خصوصيتها « الأم » المصرية الصبور العريقة « الملهمة » وعمرها من عمر هذا النهر ! . هذأت .. تماسكت .. ظهر - عدد أخبار اليوم الأول ، - وكان حافلا محشودا مبهرًا ، وله بذخ الشكل من « باشا فخم ومثير » خلع بدلة التشريفة بنياشينها البراقة ، ودخل فى ثياب « المصرى أفندى » البسيطة الفقيرة بسبحته المدلاة ذات الشراشيب ! .

.....

أدرت ظهري وعدت أفرك يدي على حديقتي الصغيرة فى مجلة

الساعة ١٢ ! . انسحبت من مرحلة القلق والحرمان حول كبير الحداثى ! .. ثبت قناع مى الصغيرة فوق عنقى ، وعزمى أن أكمل له المشوار فى حمية أشد ، وهفتى أن أسترد ما تخيلته قد ضاع وتطايير من ضعف إرادتى على طول تلك الأسابيع التى شردت فيها وفكرت أن أفض القناع ! .

الحمية والعزم دائما أجدهما فى يسر وسهولة كلما جلست وأمسكت قلمى لأكتب ! .. « قلمى » هذا العجيب المحير ، ومهما حاولت تفهمه فهو جديد وماكر وغير تقليدى .. ابن من ؟ ! .. أبدا فلا يعطينى أسرار . فهو فى كل نشوة يفاجئنى بالخبايا مما يدخر ! .. والنشوة له لا سواها أن يمتشق حريره وانطلاقه وسيادته وكبرياه .. ويا فزع ما أحس دائما - فهذا أنا أصارح نفسى - بأننا مختلفان بل بعيدان .. بل أنا غير لائق له وغير قادر عليه .. بل يا جنونى أحيانا حينما أتسلل بنظراتى عليه وهو يجرى على ورقة الكتابة ، وكأننا يد أخرى غير يدي هى التى تحركه وتدفعه .. روح أخرى تتقمصه ، وما أنا لها إلا الأصبع التى تضغط له الأزرار ! .

عدت إلى حديقتى الصغيرة - تغمرنى النشوة من حماس تجويد الزرعة فى كل ما أكتب على صفحات الساعة ١٢ .. أحاول مزروعات جديدة ألد طعما .. فاكهة جديدة أشهى مذاقا .. مغرية ، وشهية ، ورخيصة ، لمن يتصادف ويتوقف عند حقلها .. ظهور أخبار اليوم يسرى بالانتعاش والصحة فى أرجاء الخمود الصحفى . يدفع بالتنافس المتأجج الساخن إلى الشوارع والميادين . والتنافس دائما إذا أطلق له العنان فلن تقدر أن تكبح جماحه ففيه سر التطور .. هكذا لاح عصر المرأة الصحفية .. بصيص خفيف متردد منه يطل من ثنايا جروأت أخبار اليوم وقد اقتبسته منهم ، وجعلته وهجا بل فنارا أستدير به من أسطح حديقتى الغارقة فى الظلمة والانكماش ! .

فى القصة القصيرة ، فقد أصبحت « مى الصغيرة » جرس مدرسة

جديدة - يدق وينادى على مواهب الناشئين ، ويغرى بسهولة قفز السور ومجانبة الالتحاق . فقط والتساؤل فأين له البوابة والمبنى ؟ .. وفى النقد و« السياسة » والمجتمع « فهى صفارات إنذار تتلاحق من شارع محمد باشا سعيد ، وتدوى وتنذر وتثير الرعب ، عن زحف الأغلبات ودبيبها المسموع فى الطريق . فقط والتساؤل من يسمعها من دفنة هذا البدرورم ؟ ! .

تحولت الساعة ١٢ إلى نسخة أسبوعية من مشهيات مى الصغيرة وبرامج منوعاتها .. تضخم بريدها واستفحل إلى درجة الدعاية منها كما نشرت فى برج بابل ، فهى تطالب مصلحة البريد بحصة من مبيعات الطوابع ١ .. وانهمرت الرسائل من قبلى ومن بحرى .. طرقات من تنفس الحرمان والضياح . تفجر الحرمان والضياح .. أغلبات مقهورة تفض كبت نفسها على العتبة الجريئة .. شباب حائر يلهث بأنين هومو وبائر طموحه ويحوم من حول الينبوع الناحل المتدفق .. ثم « رسائل غرام » من معجبين ، ومدلهين ومتيمين - ويا طرافة الملامح - من ريفيق الخشنة وهى تستحى وترتبك وتحار أمام نوع هذا الانهمار .. وكل يوم غريب الأنواع من خطابات بنفسجية وفيها قلب ينزف وبه سهم مرسوم بالدم الحقيقى وزهر جففته الدموع ، وقطرات على صفحات تتندى بالعطر الفواح .. جيل الحرمان يا قلبى يتضور جوعا وتلظما ، خطابات غرامية ملتبهة ، وعروض زواج من عمال وفلاحين وتلاميذ وأفندية وبيكوات . وعجبية تلك الخلية النشيطة من شباب « اليهود » المراهق .. من « غمرة » و« العباسية » و« الأزهر » و« شبرا » و« بولاق » و« السكاكيني » .. أنهم ألفوا جمعية اسمها « عشاق مى الصغيرة » .. وقوائمها أولاد وبنات ، مثل هذا المثابر لللحوق « سيمون جاك » و« بنوا يوسف منشة » و« شمعون يعقوب الياهو » .. ومن الفتيات أيضا « سلطانة إبراهيم داسون » ، وأختها « متاتيا » ، ثم « فيكتوريا كوهين » ! .. يلهثون وراء قصص

مى الصغيرة عن « البنت إيستر » البائعة على الريون فى « شيكوريل » أو « الحلوة مارسيل » بائعة تذاكر « سينما تريومف » .. أو « ليزا » بنت مدام كارل صاحبة البنسيون بعمارة عدس ! .. أفردت بابا فى صفحات المجلة عنوانه « القراء الطيبون » ، تحول من ركن فى صفحة ، إلى صفحة كاملة ، إلى ثلاث وأربع صفحات .. وبهذا الباب فى تلك المجلة الصغيرة ، بدأ التكريم الشعبى والانحناء للقارئ .. فقد كانت التقاليد للصحافة ، فالرسالة إذا لم تكن هامة جدا ففورا إلى سلة المهملات ! .

تكاثرت علاقاتى وصداقاتى فى الأرجاء الصحفية ! .. « إحسان عبد القدوس » أصبح صديقى الحميم وتساؤله الدائم المتلف عن جديد القصص عن « مى الصغيرة » وشوقه الذى يصارحنى به أن يقدر فيكتب القصص ذات يوم بمثل ما يقرأها وتلهيه فى الساعة ١٢ ! .

« صلاح عبد الجيد » - طيب القلب ، رغم أى شىء ، يستعيدنى دائما كلما بعدت أو نفرت منه .. يجذبنى إلى أركان فى الكواليس ، سفلية وغريبة من قيعان القاهرة الفنية والصحفية .. جلسات تدخين الحشيش ، وموائد القمار ، ودوائر النيمة ، والهجس والهذر ، والمقالب .. أتفرج ولا معارضة ، فما جدوى المعارضة ؟ أتزود لنفسى شخوصا ومدادا .. أما العدوى منها فلا . عندى لها دروع تحمىنى من كرامة وكبرياء واختلاف ! أخذت أتردد على « نادى الصحفيين » فى شارع قصر النيل بصحبة « مأمون ورخا » .. أرافقهما وهما يلعبان الشطرنج ، وعينى تملأ نفسها من الجالسين الكبار على بقية الموائد .. علاقاتى كثرت . وانتشرت أيضا بشباب « الوفد » يتردد دائما على الساعة ١٢ .. « ياسين سراج الدين » و « اسماعيل عبد المولى » ثم « حمدى ثابت » و « عبد اللطيف أبو النصر » و « رشاد رمزى » -

وهؤلاء الثلاثة يشتغلون في الرقابة الصحفية .. وتزلفى الدائم يل
توسلى لهم أن يخففوا الوطء من الشطب والحذف عن كتابات « مى
الصغيرة » ؟ .. أما « اسماعيل عبد المولى » فهو شاب صعيدى
صاحب متأجج يحمل لقب زعيم اتحاد الطلبة الوفدى بجامعة فؤاد
الأول ! .. أما « ياسين » فهو ولى العهد الزاحف وراء شقيقه الأفخم
المثير اللامع فؤاد باشا سراج الدين ! .

« ياسين » و « اسماعيل » وبقية الصحاب ، حاولوا أن يأخذونى
إلى المراتع الوفدية ، وتعال يا أخى وقابل فؤاد باشا ثم خذ منحة القبلة
من يد النحاس باشا فماذا ينقصك أيها الشعى لتكون وفديا
مرموقا ؟ .. ولقد رفضت دائما .. تهربت دائما .. فمئذ انقشع سحر
الزعامة من وفاة سعد زغلول ، وفديتى الغريزية قد تسربت وتبخرت
وتحولت إلى وطنية يتيمة راقدة فى الجوانح ! .. علاقاتى وتنقلاتى
انتشرت وكثرت فى أرجاء البلاط من صاحبة الجلالة الصحافة - وإن
بقيت تتحدد وتتركز فى مجموعتنا الرباعية الفريدة ، « سعيد عبده »
و « هيكى » و « رمسيس » و « أنا » .. بل فى أغلب الأحيان هيكى
وأنا فقط ! .. يعجبنى طموحه .. يأخذ بلبى ، بل يفتتنى وكأنه يهيم فى
عوالم ساحرة سوف يأخذنى إليها معه ذات يوم قريب .. أنا وهو
نجوب الشوارع .. نتسكع أو نحلم أو نتشاجر أو نتصافى ، يقرأ لى ما
يكتبه أصبح له الأسلوب والتعبير .. يشجعنى أن أصبح له ، فقد كان
واضح الافتتان بأسلوب مى الصغيرة ، ومهما تدارى ، فقد سرت فيه
العدوى مثل كثيرين سواه ! .

« آخر ساعة » فى عمارة بحرى ويدير تحريرها صديقى المتعرس
« سعيد عبده » ، ويساعده فى السكرتارية « هيكى » ، ومعهما طقم
المحررين والكبار والصغار طبعا ، وياقطة النيون الخلاية تطل على
ميدان الاسماعيلية الفسيح ، واللقاء لنا يوميا .. وأنا أرفض دائما أن

أصعد إليها في شقة المجلة .. أُرهب أن أصعد إليها وعقدنى الطفولية المذعورة منذ ذاك اليوم البعيد الحارق ، وأنا أحوم حولها مترددا منها ، وفي جيبى رسالة ذليلة للتابعى أفسى له السر عن « مى الصغيرة » وأستعطفه أن يلحقنى بآخر ساعة ! .. عقدة مضحكة طبعاً ، فقد مزقت الخطاب يومها بعد ظهور « حازم فودة » ولكنى أبدا لم أمزق قشعريرة الذكريات من ذاك النهار ! .. كان انتظارى لها دائما أما فى « إيسافيتش » ، أو فى « أسترا » ، أو واقفاً أحملق فى الميدان القاهرى الكبير الذى يطل على قشلاق قصر النيل .

آخر ساعة ورغم ظهور أخبار اليوم وسفر التابعى الدائم ووتيرة تحريرها الذى لا يتجدد .. رغم هذا ما زالت هى الأم والصدارة والقيمة فى الصحافة الأسبوعية .. يكفى مقال التابعى السياسى بقذائف تعابيره وخفايا أسرارهِ . ثم تلك الحلقات القصصية الرائجة التى يرسلها من مراقده الملكية بعنوان « بعض من عرفت » وفيها ما يلهب الخيال من مغامرات وغراميات ونفائس تعابير .

ولكن أخبار اليوم أخذت تمتص الكثير من جاذبية التابعى الصحفية .. الاثارة والشطارة ، والنجومية ، والفهلوة ، والتقليب السهل فى كواليس السياسة وغير السياسة .. امتصت الجاذبية ، ولكنها لم تمتص الرسوخ والقدم والعراقة من آخر ساعة .. ظل التابعى يديرها بطريقة « لاسلكى ماركونى » .. من عواصم يتمختر فيها فى معية الملوك والباشوات والأميرات والاغوات ، والتعليمات المشددة والمخيفة له - وحتى يعود أن لا تغيير ولا شطط من تقلبات صحفية .. هكذا صديقى المصدوم الغامض سعيد عبده يتشاءب فى روتينية تحريرها وإدارتها ، بينما عزيزى الصغير المتأجج « هيكال » يحاول بقامته القصيرة أن يجد الفرصة ليطل من أبراج قلعتها .

صديقى « ميجور كول » تتواصل علاقته مع مارى .. ودهشتى عن هذا الادمان العاطفى الذى يستولد الدود فى النفس فى أى نفس ، فيفتك بالعقل والادراك فيها ، بل يلغى مستوى الحضارة والثقافة منها . تسلطت عليه « فتاة الفجالة » الأمية الهوجاء .. ركبته تماما وكأنه لعبة حصان خشبى فى يد طفل عابث . يغير لغيرتها ، ويحقن لغضبها ويخفض رأسه ذليلا مستسلما أمام شطط نزقها .. تسلطت عليه تماما ، فقد نقلها بكل أسرتها من الحارة المسدودة فى شارع حبيب شلبى ، إلى شقة واسعة بالانتىكاخانة فى عمارة جديدة ، بها تليفون ، وفريجيدير ، وكل مباهج الأثرياء .. أغرقها هى وأهلها بالمال والهدايا .. حجزها عن العمل فى قشلاق قصر النيل ، فإنها أصبحت خطيبته ، وإن لم يوثق ذلك رسميا يعد فى انتظار موافقات متعددة يجب أن يحصل عليها .. حجزها عن العمل ، بل حجز هو نفسه عن أى انشغال إلا مارى وأهلها ، والشقة وأحوالها ومصاريفها .. أصبح حائرا عصيبا متوترا يتحاشى ويتحاشى نظراتى إليه ، بل بت أنا الذى أتحاشاه وأحذر من غيرته الرعناء أن ترتطم بى ! .. تلك الشقة فى الانتىكاخانة - ولم أذهب إليها إلا مرة واحدة فقط ، ولمدة خمس دقائق خاطفة فى عيد ميلاد الصغيرة « روز » شقيقة الخطيبة .. وقد اعتذرت يومها متعجلا بدعوى أصدقاء فى انتظارى وقوفا فى الشارع .. خمس دقائق فقط ، انصرفت بعدها عندما لاحظت مارى تسكر ، وتتمر أن تبدأ فتتحدى وتتهاهى ، ومن حولها أسرتها والمنظر الباذخ لهم كمن ابنتهم قد تزوجت ملكا ! .

و ذات يوم بعدها بأسابيع - تأبط « كول » ذراعى فى مودة وأنا منصرف معه من بوابة قصر النيل - وكان يبدو مهموما ومختنقا .. وسألنى وأنفاسيه تزفر إذا كنت أقبل أن أسهر معه الليلة ؟ .. وقبل أن أرد سارع يقول : - وحدنا بلا مارى ، فإنها سافرت مع أمها إلى الاسكندرية !

وعلى مائدة منزوية وبعيدة في « الميناهاوس » - تحت سفح الهرم - وبعد أن جرع عدة كؤوس ويسكى ثقيلة بلا تلج ولا ماء - بدأ يهذى بكلام صاحب وغريب عن باهظ الثروات والأموال التي تضع هدرًا في سفاهة تلك الحرب ! . تلك الأموال والثروات التي تبدها قنبلة واحدة وتلك البضائع والمعدات والأحمال الغالية التي تغرقها غواصة صغيرة . وكل جنون الانفاق هذا على دخان يتبخّر في هواء ، وبارود يذوب في البحر أو في البر أو في الجو ! .. معسكر « جنيفة » الذي كنا فيه ، فهل تعلم مثلاً أن غارة ألمانية قد دمّرت تمامًا منذ أيام .. مسحت منه حتى المعالم والجدران ولم تبق إلا الشظايا والركام ، فهل هذا معقول ؟ ثم ازداد هذيانه فراح يدق على المائدة بقبضة يده وهو يقول ويحلف أنه وبحق يسوع المسيح ، بات حلال أن يسرق لصوكم من المخازن المشحونة بكل غال وثمين بدل أن يفتنيها دمار تلك المعارك .. نعم أنا لا أسميهم اللصوص ، بل الشجعان والعقلاء وأنا احبّهم وأتضامن معهم بل أتمنى لو أشجعهم ! .. ثم .. ثم ألقى ورقته الأخيرة والتي من أجلها رتب هذا اللقاء .

صديقي ميجور كول - يصارحنى بغتة عن عملية قد رتب لها وخططها وقرر تنفيذها ، لنقل شحنة لورى من صفقة صناديق معدات وقطع غيار ثمينة ، من المخزن الهام الذى أشرف على محتوياته ، وسوف تصلنى استمارة الصرف منه ، وما على إلا أن آمر بشحن اللورى ، وعندما ينتهى ويخرج من البوابة ، فكل المطلوب منى هو ألا أدرج تلك الاستمارة فى الدفاتر ، بل أعيدها له ليمزقها وينتهى الامر بسهولة !! أنا أنصت له ذاهلاً وقد تلجم لسانى وانحبست أنفاسى ، وهو مستمر فى عرض خطته ، وفى حماس وحيوية أفاق لهما من سكرته . فالشاري موجود والتلميحات أفهمها - فهو من طرف مارى ، ومن أجل هذا سافرت إلى الاسكندرية ، والصفقة سوف تعود علينا

بـ « ١٥ ألف جنيه » سوف يكون نصيبى منها « ألف جنيه » والباقى له ولمارى طبعاً !

أفض صمتى وذهولى فأنطق ، بماذا يا إلهى أنطق ؟ .. وباللهشة ..
باللهول عزيزى الميجور هاريسون كول .. صديقى الأخلاقى العريق
الشريف ابن اللوردات والأسياد . قف . قف جدا . فأنت تشن غارة
فجائية ورهيبة على قلاع فى نفسى أحتوى فيها لك الصداقة والنبل
والاحترام .. قف .. قف جدا .. فقد أخطأت النظرة والاختيار فلست
لصا وأبدا لن أكون !

أمسكت يده ونظراتى عليه استهوال وعدم تصديق ، ثم حيرة
وعطف وإشفاق .. سألته هل تلك أول مرة يفكر فيها فى هذا الأمر أم
سبقته مرات ؟!

صدم من ردى وشحب وجهه ، وتقلصت خلعجته ، ثم لأك لسانه
الملتوى وهو يرد متخاذلاً ومصارحاً بأنها أول مرة ولكن .. استوقفته
عن ولكن تلك فهنا الفخ لك والمستقبلك ولمصيرك حتى ولو أمام
نفسك .

عزيزى كول ، وقريباً سوف تنتهى الحرب وتعود إلى الحياة بين
أهلك ، وتعود للتدريس على طلبتك ، فبأى ثوب لهم سوف تعود ؟
هل بثياب اللص أم ماذا ؟

صارحنى وهو يوشك أن يبكى بأنه لم يعد يهتم .. إنه لا يصدق رفضى
السهل هذا وهو يستعيدنى فيه . فهى حقاً أول مرة ولكن تصميمه ألا
تكون آخر مرة ! .. وعندما لمح الاصرار والصرامة على وجهى ، بدأ
يبكى فعلاً ، وصارحنى بأنه مأزوم جداً وفى ضائقة مالية طاحنة لم يعد
يتحملها .. مرتبه الشهرى كبير نعم ، ولكنه لم يعد يكفى أسبوعاً
واحداً .. ومنذ أشهر وهو يستقطع سلفيات ويستدين من زملائه ! . ثم
أسرته بصراحة لوردات نعم ، ولكن والبقايا معدمة ، ولاثروة له ولا

أملاك من قصر قديم وآخر الأنبياء عنه أن قنابل هتلر قد دمرته ولم تبق منه الا الاطلال .

عزيزى كول .. لا .. لن أفعّلها .. ولا بيليون جنيه .. قل ماشئت فلن يخطر على بالى ولا للحظة أن أفكر فى أمر مثل هذا - وحتى لو كانت فلوس إبليس فلن أفعّلها . قمت .. انصرفت .. تركته يتخبط فى الدهشة والذهول !

« الشارع » _____

القاهرة ٤٤ - ٤٥ :

عدت تلك الليلة لأحلق في سقف غرفة بنسيون كتج فيليب
بالفجالة ، وأستعيد المنظر الذى مازال يلهب أفكارى !
المائدة المنزوية تحت الشجر الغليظ فى حديقة الميناهاوس الرملية
وعليها زجاجة ويسكى ومزات ، وأمامى إنسان انجليزى يعب منها
ويتطوح ! . صديقى « الميجور هاريسون كول » واعجابه الانسانى
المتحمس بلصوص العسكرية عندنا ويريد مثلهم أن يجرب ! .. لديه
خطة سرقة سهلة بسيطة ويعرضها على ! .. صفقة الـ ١٥ الف جنيه
ولى منها الألف ! .. يريد أن يجرب ويشركنى معه ؟! . أستعيد المنظر
ونظراته المنهزمة الحانقة نحوى عندما أبيت ورفضت . انكماشه الذليل
الذاهل أمام شكلى الممتعض المترفع .. نصحى له بل زجرى ألا يفعل ،
فإنها سقطة أولى وبعدها تكثر السقطات .. ولكن - هل يمكن أن
يكون قد اقتنع وتراجع ؟ .. لا أظن .. إنه فتيل وقد اشتعل وأنا معه
الآن فى دائرة خطر !

.....

أحلق فى سقف الغرفة والباب مغلق بالمفتاح - فياشدة ما أحس
باليتم والوحدة فى شوارع القاهرة الصاخبة ، أما هنا فدائنا عندما

أغلق الغرفة فرصتي ومعبدى ونجواى واعتراى واستقبال رعاىاى ! .
أحلق الليلة فى سقف الغرفة ضجرا محتجا على هذا الأمر الطارئ التافه
الذى يعيق نشوتى عن فرص الفكر والتحلىق والكتابة .. ولكن الامر
حاسم ويجب أن أتخذ فى القرار .. صحة العمل مع الميجور كول لم تعد
تتفع بل يجب النجاة فورا من خطرها الواقف !

مشكلة طبعا بعد أن تحدت ورفضت .. تفكرى ومهما غاص فى
دوامات البحث عن الحلول . فأسهلها على خاطرى الآن أن أترك
وظيفة قشلاق قصر النيل هذه ، بل حان أن أحسم المرحلة فأترك
وظائف جيش الحرب الانجليزى كلها ! .. مرتب الـ ٣٠ جنيها ثروة
شهرية نعم ، ولن أجد مثلها ولا حتى ربعها فى أى مكان - فأين
الوظائف فى هذا البلد المملق ، والعاطلون يملأون المقاهى ويزفرون فى
الشوارع .. وماذا بوسعى أن أصنع إذا انقطع هذا اليراد فجأة وليس
عندى أى مدخر ؟ . وكيف أجارى صداقاتى التى تكاثرت فى الشارع
الصحفى - وبعض جاذبتي أحيانا - هى أن يدى مسرعة دائما إلى
جيبى كلما تطلب الأمر صرفا أو عوناً ؟ . أسئلة متلبكة عويصة
طرحتها على نفسى كثيرا من قبل ، ودائما كنت أتسلل هاربا منها فى
صبيانية دلوعة لامبالية ، فمستوليتى أن أفكر وأكتب فقط ، أما أن
أعيش فتلك مسئولية من خلقتى فى هذا العالم الغامض الصاحب
المتلاطم !

.....

هكذا أسئلة كثيرة لن أستغرق فيها إذا ماقررت أن أحسم الأمر ،
وهذا أنا ولا مفر لى من الحسم .. لقد بات يرهق عقلى ومشاعرى
منظرى الخابى المتسلل وأنا داخل أو خارج من بواب جيش الحرب
الانجليزى فى قصر النيل .. العمل برىء وشريف ولا مؤاخذه فيه ولا
شبهة . فهو مجرد وظائف بسيطة خلفية تسند حربا مشنونة وبعيدة ..

وهناك مثلى الآلاف من الشبان المصريين وغير المصريين يملأون إدارات المكاتب والمخازن . وهم مجرد تروس فى آلة هادرة تهرس بعيدا عن أراضيتهم .. ولكن .. مهما كان الشكل فأنا أشتغل مع الانجليز ورغم أية ورقة معاهدة تحالف ووثيقة استقلال فهم فى رشقة العين والمشاعر لمهرف المشاعر الوطنية مثلى .. مناظر بغيضة من اعداء ومستعمرين !

حقا مسحت الحرب تأجج العداوة أوقفت الصراع ، فأصبحنا لهم حلفاء ومساندين ، بل ومشفقين أحيانا على ما بهدر من نزيف دماء الملايين من أبنائهم فى الميادين .. بتنا لهم أهم محطة تموين .. أصبحنا لأولادهم المحاربين فى عراء الصحراء وريد حياة .. بل ربما نحن من خلفهم الآن فى حماية من أن تباد القاهرة الغالية العريقة فى سرعة تلك الحرب مثل ما أبيدت مدنهم لندن وبرلين ! .. كل الحياة المصرية - أفلام وفن وصحافة وسياسة وطباع شارع تهرول منجدة ومأمورة تلبى مطالبهم .. فلوس الحرب وسيولتها المتدفقة على قحط الشرق الأوسط - وهنا ينبوع الصرف من القاهرة .. لاليس القاهرة هى التى تصرف من لحمها فماذا لديها تلك البائسة غير الشظف والاملاق ، ولكن هم الذين يصرفون على أنفسهم ونحن من حولهم نلتقط وافر الفتات ! نعم فلوس جيش الحرب الانجليزى ردت الرمق إلى مصر التى كان يسفح فيها الفقر والقهر والانهاك .. ردت الروح لطواير ملايين الفقراء والمعدمين الذين التحقوا عمالا بالمعسكرات .. وبعد الجوع والعراء والحفاء ، هاهم يتناولون أجورا ويجدون مسكنا وثيابا وطعاما .. ولأول مرة يعرفون شكل الجنيه فى اليد . واللحم فى الطبق ، والمخدة تحت الرأس والبطانية فوق البدن ، مصر كلها تشتغل لحساب جيش الحرب الانجليزى ، من أول الملك فاروق الذى يتاجر فى التوريد لهم ، ويعزم صفوتهم فى صالونات وحمائل قصر عابدين .. إلى النحاس باشا الذى يظهر معهم واسع الابتسامة وذراعه فى أذرع

زوجاتهم .. إلى « العقاد » وأيضا « طه حسين » وبقية أرباب الفكر
المصرى وأقلامهم مسلطة ضد الفاشستي موسوليني والنازيست هتلر
دفاعا عن ديمقراطية الانجليز والحلفاء .. إلى بقية البلد فى أى بقعة فى
البر والبحر .. فى الريف والمدن .. وفى أى مكان تراه العين قبلى
وبحرى تجد الانجليز والعمل مع الانجليزى وكل الفلوس مع
الانجليز ! .. طلائع أثرياء الحرب بالمئات بل بالآلاف .. باعة
الخيش . وتجار الخردة والتبن والعلف والقمامة يتبوأون مقاعد الأثرياء
ويضعون الساق على الساق وبعد القيقاب فالخذاء شمواه والخواتم تملأ
الاصابع ، والركوبة بعد البلغة والحمار هى البويك والبيكار !

التليفونات والمواصلات والسكك الحديدية وكل المرافق وراء جيش
الحرب الانجليزى .. الصحف أيضا ومبنى « دار الهلال » الجديد
الفاخر هذا ، والاعتراف الصريح لنا فقد بناه الانجليز لأولاد زيدان
من أجل تلبية المطلوب من مطبوعاتهم ومنشوراتهم .. « الأهرام » لها
لقمة الكواليس الضخمة ، « والمقطم » عميل صريح ورائج ،
و « المصرى » وكل صحف الوفد تماشى وتجارى وتؤيد وتأكل على
مائدة الحلفاء طبعاً .. وحتى الجديدة أخبار اليوم فقد دخلت حلبة
الدعاية بفروسيية أقلامها من منشيتات وغريب حكايات ومثيرات ..
والقارئ لايسأل ولايتوقف ، فعينه مفتوحة مجانا وفى شهية أكبر على
قراءات شغوفة وصريحة ومدهشة من ملمس مليون مجند أوروبى
وأمريكى هاهم فى شوارعه وعقر داره !

.....

نعم ، ورغم كل هذا التجييش العام فقد بات المنظر يرهقنى ويدلنى
وأنا داخل أو خارج من بوابة جيش قصر النيل .. كأننى أحمل رائحة
نجسة للعابرين فى الطريق !
حقاً ومنذ أول مرة التحقت فيها بمعسكر « جنيفة » فى أرض

القتال ، أمسكنى الفرع الوهم بأنتى خدشت بل لطخت ثوبى الوطنى
الناصع إذ أضمر نفسى إليهم ولو كموظف صغير مهمته أن يرتب الورق
أو يسجل الأرقام أو يضغط على الآلات الكاتبة ! .. خيّل إلى أنها
سوف تبقى وإلى الأبد وصمة فى تاريخ حياتى .. عار وسوف يلاحقنى
ويلتصق بى أنا الوطنى المهرف المتأجج المتباهى بعراقه وكرامة منبته ..
أجل قضيت فى البداية أياما حارقة طاحنة وأنا أعقد المحكمة لنفسى فى
القفص من خيمة جنيفا تلك .. ولكن - رويدا رويدا خف اللظى
عندما بدأت أتحمس الاختلاط الطبيعى مع مفاجأة تلك البيئة واغراء
هذا المجتمع .. حضاريون ومصقلون ومثقفون ومتفردون ومهما كانت
همجية الحرب التى يتلاطمون فيها .. العدل والنظام والمساواة وكرامة
الإنسان هم قبل الحرب فى أول القائمة من الخدمة والتعامل .. بدأت
الاقتباس منهم بان أعاملهم بمثل مايعاملون أنفسهم ، بل حاولت فى
حمية الغيرة من تألق طباعهم أن أبرز لهم دفين الراقى والعريق من
كنوز الاخلاقيات الريفية المصرية فىنا إذا عاملتها ندا بند .. رويدا
رويدا أتانى الاقتناع بل الالهام إنها فرصة القدر لى أن أضمر إلى تلك
البيئة فالتحق بهذا المجتمع فيعوضنى عن قطع دراسى الثانوية .. نعم
أخذتها منحة تعليم مجانية وسخية لأكمل مافرض الفقر والقهر أن
أكمّله .. تحولت إلى تلميذ نشيط ومجتهد وجد نفسه فجأة مقيدا فى
أكاديمية هؤلاء الناس .. حضارة هؤلاء الناس ! .. حضارة وقد جعلتها
الحرب الضارية تتعرى عن قشورها فهى واقعية بلا زيف أو خداع ..
فرصة الاندماج فى حياة هؤلاء الناس .. توغلى المستكشف فى
أرجائهم .. تواصل النظر من ثقوب الابواب على حياتهم الخاصة
ورفاهية ماهم فيه من وزن وكرامة .. منحة حضارية وسياحية وثقافية
وعمق تأمل وتقليب وجدان - أتانى كل هذا اغداقا سهلا ! .. نعم
أحس أن تلك الاعوام الثلاثة قد عوضتنى عن قطع الدراسة وأنتى
تقلت معها بين مدرجات الكمبيوتر والاكسفورد . وخطبت وصحت فى

الهايدبارك ، وتنزهت في الويست اند والبكاديللى ، وحضرت الحفلات مع اللوردات في قصر باكنجهام ، وعشت وثبا ومرحا في الخلايا انغذى من دسم هذا المجتمع الذى يقول العالم أنه الشعب الحضارى والقمة التى لاتغرب عنها الشمس !

أحس أن تلك السنوات الثلاث قد قفزت وصعدت بي إلى شهادات من بكالوريوسات كثيرة وليسانسات كثيرة - اعظم بكثير من تلك التى مازال زملائى فى الثانوية يتخبطون فيها على عتبة شهادة البكالوريا ! . وأبدا أبدا لم أرتعب على نفسى أن تصيبني العدوى من أوبئة طباعهم .. حضارتهم الاستعمارية دست فيه العنصرية والغطرسة والمادية والاستعلاء .. ثم هذا الاغراق التعيس فى الخمر والشذوذ والغرور .. أبدا لن تمسني العدوى فمصريتي لهم متربصة وجلدها أصيل وسميك وأبدا لاينفذ منه إلا ما يروى عطشى للثقافة والحضارة والمعرفة ! .. نعم نعم وهذا الأخذ والاقناع صمدت وصعدت فهذا هو العام الثالث لى فى أكاديميتهم - وبوسعى الآن أن أبرزهم وأنفوق - فماذا يكون هذا المشهد الذى جرى الليلة منى امام ابن اللوردات الفاخر إلا أصالة وحضارة أقوى وأرقى وأشمخ !

هكذا تشبعت واكتفيت من أكاديمية السنوات الثلاث تلك .. ولعلنى من شدة الشبع والامتلاء فأنا قادر الآن وبلغتى العريية السهلة ، أن أكتب القصة القصيرة الانجليزية والامريكية والفرنسية . لقد نشرت فى الساعة ١٢ منذ أسابيع قصة عنوانها « الشقراء فى اجازة » تدور كلها فى شوارع وحوارى وبيوت لندن ! .. بل قبلها أيضا قلدت قصة بقلم وأسلوب كاتبهم الاشهر « برنارد شو » تدور وقائعها فى أحياء الايست آند الانجليزى ، وكل من سمعها منهم اندهش وراجعني ولم يصدق ! تشبعت واكتفيت بل بت أضجر من حماقاتهم ونزواتهم ، فلم يعد يلصقني بهم إلا تلك الـ ٣٠ جنيهها شهريا .. وحتى تلك النقود كنت

أتناولها وكأنها لا تخصنى ، بل هى التكلفة المرصودة لمشوارى الصغيرة وتنقلاتها وطرقاتها الحارقة على أبواب اللهفة للمستقبل .. نعم كنت أؤكد لنفسى دائما وأعودها على أن هذا المرتب سوف ينقطع فى أى لحظة . وكل يوم أصحو وعلى أن أواجه الأمر الواقع ولكن الأمر الواقع - يا حيزتى وقلقى - هو أننى يجب أن أصرف وأعيش وإلا مت جوعا وجفافا فى هذه المدينة الانانية ذات القلب الحجر !

.....

وفى الصباح .. ولم يكن « كول » قد حضر إلى مكتبه بعد - توقفت عند « سيرجنت ميدث » وارهاق الأرق يبدو على وجهى بالشحوب والاصفرار .. وضعت ورقة الاستقالة تحت يدها بلا كلام .. قرأتها فى دهشة ثم أقطبت وتجهمت وتفرست فى منظرى فما السبب ؟ .. قلت لها وأنا أحاول أن أبعدو متماسكا بأننى فى طريقى للتفرغ للصحافة ، وما كان عملى هنا أو هناك إلا مرحلة تمهيد مؤقتة ! .. راجعتنى فى اهتمام ولكنى صمدت أمامها مصمما فهزت رأسها مستسلمة وضمتها إلى الأوراق حتى يحضر كول !

لم يحضر كول فقد أبلغ أنه مريض ، وقالت لى أنها سوف تستبقى الاستقالة حتى يعود .. ثم قامت تمشى معى فى تودد ، وصممت أن أتناول الغذاء على حسابها فى « الميس » !

« ميدث » فتاة طيبة وذكية - واحساسى منذ عرفتھا رغم نزوات شبابها - أنها تحب رئيسها كول فى صمت وتكتم .. وقد استدرجتنى الى الحديث عنه وهى تشركنى فى أساها عن هذا الاحتراق الذى هو فيه .. الاضطراب الذى هو فيه - وهل كل هذا بسبب هذه الفتاة مارى ؟ . حسنا فالقيادة غير موافقة على هذا الزواج الاحق فلماذا لا يحسم الأمر ؟

استدرجتنى « ميدث » فضعفت إرادتى وحكيت لها بصراحة عما

حدث أمس .. الطيش الخطير الذى وصل إليه عزيزنا كول ! .. وقد أنصتت مروعة ومفروعة وشاردة ، ثم عندما وصلت الى مشهد الرفض ونصحى له ، عرتها الدهشة وتخضب وجهها بخجل المقارنة ! .. عادت تحاول أن تراجعنى فى أمر تلك الاستقالة ، ولكنى توسلت إليها أن تكف عن ذلك .. إنه قرار حاسم فى حياتى فأرجو ألا تثبطى من عزيمتى فيه ! .. قالت - حسنا سوف أعرضها ولكن القانون أن تنذر قبلها بخمسة عشر يوما ! .. صدمت وارتبكت فقد كانت لهفتى أن أخرج اليوم حرا منطلقا من بوابة قصر النيل تلك - ولاحظت صدمتى وحيرتى فصعبت عليها ، وقدمت لى الحل على شكل ورقة طلب بإجازة مرضية .. وعندما وقعتها قالت إنها سوف تتصرف فى توقيع الطبيب الذى هو صديقها ، ثم أكدت أنها سوف توالى الاتصال بى تليفونيا عند مدام موريس !

خرجت يومها والذى حدث - وقبل أن ينقضى الاسبوع الذى انزويت فيه تماما - كلمتى « ميديث » تبلىنى أن أحضر غدا فالأمر هام !

وعندما ذهبت .. فوجئت بالخبر الهائل والخطير عن سفر ميجور كول الفجائى .. لقد صدر أمر نقله إلى « سنغافورة » وطارت به الطائرة أمس ولا عودة له بعد هذا إلى مصر ! .. وعندما تلاقى عيناى بميديث كانت عيناها مغرورتين بالدموع وهى تسلمنى رسالة تركها كول وفيها يقول إنها الحرب الملعونة يا صديقى !

فوجئت بالنبا فجلست حائرا متأثرا ، وكانت ميديث تراقبى بنظرات حزينة ولم تقل شيئا .. وبعد فترة سألتها عما تم فى أمر الاستقالة فابتسمت فى ذبول وقالت - بل أسألنى عن العلاوة فقد أصبح مرتبك منذ منتصف هذا الشهر - ٣٥ جنيها !
صحت فوراً وبلا تردد وكأنتى أمتنع عن نفسى خطراً من ضعف

إرادتى - أبدا أبدا أيتها الكريمة وأتوسل إليك فأنا مصمم على تغيير
مجرى حياتى .. لقد رتبت نفسى على تلك الاستقالة !
وبعد مناقشة طويلة لم أضعف فيها .. ودعت اللطيفة الطيبة ميدتى
ودعت قشلاق قصر النيل .. طويت صفحة صديقى الميجور كول وكم
أنا آسف له !

.....

طويت صفحة صديقى كول وكم أنا آسف له - ولكن كان ينتظرنى
عند بوابة قصر النيل هذا اللغم الباقى الذى اسمه « مارى » -
فبمجرد أن عبرت البوابة وجدت شقيقتها الصغرى « روز » تنتظرنى
فى لهفة وذعر وبكاء .. « مارى » فى المستشفى القبطى الآن . إنها
انتحرت وتموت ، وقد أرسلتها أمها فلا بد من حضورى !. وبلا إرادة ،
فلم أقدر حتى أن أتردد ، ركبت معها التاكسى إلى المستشفى ، وحكت
لى فى الطريق كيف هاجم البوليس الحربى أول أمس شقتهم فى
الانتيكخانة ، واستولى على كل ما فيها من حاجيات وهدايا وثياب
وأموال كول ، وقبضوا على مارى ، وحققوا معها فى السجن الحربى .
وبعد تحقيق طويل أفرجوا عنها . فخرجت منه لتغافلنا وتدخل إلى
حجرتها وتغلق على نفسها حتى سمعناها فى شخير لفظ الانفاس ، فقد
ابتلعت زجاجة كاملة من أقراص الاسبرين الانجليزى .

.....

عندما دخلت إلى المستشفى وكانت غاصة بأهل مارى وأقربائها -
قابلتني الأم فى لهفة وامتنان وكأننى النجدة لها .. وتعال انظر ماحدث
لنا .. نحن الولايا والبنات وماحدث لنا .. وعلى صوتها الذى بدأ يعلو
نشيجا وولولة ، فتحت مارى عينيها واستدارت ورأتنى .. وفى حركة
غريبة وغير متوقعة اكفهر وجهها ، وارتجفت بالغضب ، وانطلق منها
الصياح بأنها لاتريد أن ترى وجهى .. أن أخرج حالا من أمامها -

فأنا السبب في كل ماجرى لها ! .. أخرجت ودهشت وغمرنى الخجل والارتباك أمام الحاضرين ، وكان الطبيب واقفا فأشار لى أن أخرج تهذئة لها .. تحركت وقد بدأت أفيق من اللخمة والارتباك إلى الغضب والسخط والنفور .. أنا السبب ؟ .. أى هراء تهذى به هذه المجنونة ؟ .. ولاحقتنى الأم خلف الباب وأمسكت بيدي فى استعطاف وتوسل فإن هذا البوليس الحربى تركهم على الحديدة .. وتلك الشقة سوف يتركونها فوراً بالطبع ولكن ، تكاليف المستشفى لمارى ؟ .. إنهم يطالبونها وهذه هى الفاتورة بـ ١٢ جنيهها - فليس معهن الآن المليم الواحد ! .. لا رجل بجوارها .. لا أحد ينجدها .. ومارى صدقنى تحبك . لاتأخذ بكلامها فصراخها هذا لوعة حب .. انجدنا بسرعة أرجوك !

ويا غرابة السرعة والسهولة التى امتدت بها يدي بالنقود .. خرجت متعثراً حائراً مهموماً - وذعري تلك الجنيئات القليلة التى تبقت فى جيبى وقد أصبحت من اليوم بلا عمل .

.....

لقاءاتى مستمرة مع الحميمين « سعيد عبده ، هيكىل » ثم بقية الصحاب والأصدقاء فى الشارع الصحفى . كتاباتى فى الساعة ١٢ تتصاعد حرارتها وتزداد اندلاعا .. بلاط الصحافة من حولى مازال يعيش فى الرجة والاهتزاز بعد الزلزال من ظهور « أخبار اليوم » .. « التويمان مصطفى وعلى أمين » تطول قامتهما وتعلو منها الهامة - وقد كتبت مسجلاً أتساءل بل أتباهى فأين من هو أشهر منها الآن فى البلاد المصرية ؟ .. سطوع حزب جارف جديد أعضاؤه هم القلم والورق والمطبعة والأخبار .. إنه يكتسح أمامه عتيق الأحزاب .. عصرية صحفية ، واقتباس أوربى أمريكى ، وطموح دولى ، ونقله حارة مغامرة مؤثرة للقارئ المصرى ، تحاول أن تلبسه بدلة الفراك وقبعة التوب

هات ومعلش قريبا سوف نجد الحذاء اللميع لقدمه الحافى !
أمسكت عن الصرف بين الصحاب .. يدى تتلجم على فتحة جيبى
الخاوى .. لم أقل لأحد أننى أصبحت بلا عمل وبلا مرتب وبلا نقود ..
أهرب من لقاءات أشتيتها وسهرات قد اعتدت عليها وأحاول عبثا أن
أجد الطريق إلى تلك المنحطة المذلة النقود ! .. كلمت « حازم فودة »
أن يرفع من أجر « مى الصغيرة » عن كتابتها ، فدهش واستغرب
وتعجب ، فقد اعتاد منى التهوين من أهميته ، وكثيرا ما رآنى أدفع ثمنا
لإعلان فى الاهرام عن « مى الصغيرة اليوم فى الساعة ١٢ » .. دهش
واعتذر عن مقدرته إلا من زيادة الجنيه الواحد فقط .. شكرته
وانصرفت !.. ثم انزويت بنشيط الوسط الفنى صديقى « عبد الله أحمد
عبد الله » وعرضت عليه أن يحاول بيع قصص مى الصغيرة للمنتجين
السينمائيين !.. ذهبت إلى مكاتب الفجالة وشارع محمد على ، وفى
يدى الدوسيه الممتلئ مما ظهر من قصص مى الصغيرة لعلهم ينشرونها
كتابا .. اعتذروا جميعا فمن يطبع القصص الآن ، ثم ماذا يجدى أجرها
التافه ؟! استلمت فى قسوة وفظاظة . وبسرعة قدرية غريبة - اشهر
الإملاق تلك .. بدأت أستدين من ناس بعيدين عن الصحافة !..
وبالربا والرهن أبيع ما لا حاجة لى به ، بل حتى ماأنا فى حاجة
له من ثياب ومقتنيات !.. ابتعدت عن عزيزة !.. أخذت أتهرب من
لقاءات هيكل وسعيد عبده ورمسيس ومأمون ورخا وصلاح وإحسان ..
وكلما سألتونى عن السبب تواريت وأنا أطلق ضحكة سخيفة فجأة يبللها
الخنجل بأننى ومى الصغيرة فى خلوة غرام مع كتابة رواية طويلة !..
يا هذا الفقر - وفى كل مراحلك معى أتلذذ بتعذيبك لى بل أفخر -
فدائها أمرق وأنجو منك بلا مذلة - أما تلك المرة فأنت تقتل رمقى
الباقى من رقيقتى وحبيبتى وآمالى مى الصغيرة !

وذات يوم مباغت وغريب وكنت أجلس وحدى بمقر الساعة ١٢
بشارع محمد باشا سعيد فوجئت برجل أصلع ضحوك يطرُق الباب

ويسأل عن عنوان الكاتبة القصصية مى الصغيرة !!
إنه المخرج السينمائى الصاعد « أحمد ضياء الدين » وفى يده عقد مكتوب باسم مى من صورتين بالكربون ، كى تكتب له حوار فيلم عاطفى غنائى جديد تقوم ببطولته مطربة تونسية جاءت تبحث عن الشهرة فى مصر اسمها « حسية رشدى » ومعها الممول - ويقوم بالبطولة أمامها المطرب « محمد صادق » !! مفاجأة أذهلتنى بل اقتحمتنى وزلزلتنى ، فبعد خمس دقائق من تعارفنا وتفاهنا واتفاقنا ، خرجت معه فى شارع محمد باشا سعيد لنختار جلسة التوقيع واكمال التفاهم فى حديقة « فندق شبرد » بجوار جنيينة الازبكية !!
سلمنى ملخص القصة وهو من صفحتين .. حاولت عبثا أن أقرأ مع رجفة المشاعر التى تملكتنى وأحاول إخفاءها ، ثم سلمنى العقد المكتوب بالكربون وقد وقعت عليه بصفى الوكيل عن مى الصغيرة « ثم وقعت ايصالا عن قسط الـ ٥٠ جنيها من أصل العقد وقيمته ١٥٠ جنيها ، وكانت ورقة واحدة كبيرة ، وضعتها فى جيبى مع ورقة الـ ٥ القروش الوحيدة البالية التى تبقت معى !! وعندما انصرف « ضياء » صفقت للجرسون فكم كنت جائعا ، وهات من الأطباق سكالوب بانيه ومعه المحشى ، وكباب وطرب وكفته ومعه الطحينة ، والحلويات مهلبية وبقلاوة وعيش السرايا بالقشطة . فعلت هذا ثم قمت نحو كاين التليفون أدق على الثلاثى « سعيد ورمسيس وهيكى » والعزومة يافتيان الليلة على حسابى كيفما تريدون وأينما تشاءون وخذوا المعلومة منى فأنا الليلة فى ثراء أغا خان !!

« المليون » _____

القاهرة في ٤٤ - ٤٥

أكلت وشبعت ودفعت الحساب .. ٧٦ قرشا لا مانع ، فالיום لى بهيج !

جيبى منتفخ بفكة ورقة الـ ٥٠ جنيها ، تلك التى استبدلها لى هذا الجرسون المتعاطف فى مطعم فندق شبرد ، وكومها أمامى وورقات مهلهلة من ذات الجنيه الواحد !.. أتهادى نازلاً على سلام الفندق والساعة الآن الرابعة ظهرا ، والقاهرة فى مطلع مايو تودع الربيع وتستقبل دفئا منعشا لذيدا ، ونشوقى الملهبة الآن أن أمنح نفسى شيئا فوريا يسعدها بعد أن صمدت ومرقت من أشهر الفقر والقهر والحيرة والانكماش ! .

نظرات جرسونات وزبائن مطعم شبرد على مظهرى الخابى كانت تقرص لقمى .. قاعة المطعم مهيبة رهيبة وكأنها صالون الاستقبال فى قصر باكنجهام الامبراطورى .. السقف البلورى ، والنجف الضخم كالشجر المقلوب ، والمرايا التى تلف وتدور ، وكل تلك الارستقراطية الجارفة التى تغمر المكان !.. المائدة التى كانت بجوارى جلس يتصدرها « الماريشال الكسندر قائد الجيش الثانى فى الصحراء » ، وعلى يمينه البرنس بول ولى عهد اليونان ، وبرفقتها ضابطان آخران يجلسان وكأنهما تمثالان من رخام .. وفى مائدة أخرى قريبة فعينى تأخذ النظرات

على ثلاثة باشوات ضخام عظام هم : « عبد الجليل أبوسمرة » ،
« عبد المجيد صالح » ، و « يوسف سيدناوى » .. وفي مائدة أخرى
ترفرف نظراتى فى لهفة وفخار وأنا أرى « فكرى أباطة » أحد أبطال
خيالى وهو جالس بشاربه الهتلى ، والسيجار فى فمه ، والمارتينى بين
أصابعه وأمامه امرأة أربعينية متفجرة تضاحكه فى دلع وتدلل ، وترميه
بورق الورد من فائة المائدة ، وبجوارها « غلام » لا بد وأنه ابنها -
يلتهم ويلعق مايوضع أمامه من أطباق .. وعلى مائدة بعيدة ألمح النجمة
السينمائية « راقية ابراهيم » وبجوارها جنرال امريكى فارط الطول
وبادى التجاعيد ، يتهامسان ويضحكان ويبدو أن لها دالة عليه ..
أغلبية الموائد ضباط حرب كبار - بعضهم يقطن فى الفندق ، وبعضهم
ينزل فى إجازة ميدان ، وبعضهم يحلو له التواجد فى أهباء الفندق
العريق الذائع الصيت .. أتأمل وأختلس النظرات وأبدو فى مائدتى
المنكشة لصق الحائط بمثل « قط هزيل » ينبش عن بقايا العظم
واللحم فى سلة نفسه !.. أحاول إخفاء الحذاء القديم الذى بدأ
يتفطح ، وأضم أطراف الجاكطة التى بدأت تكلح .. أنا متطفل ومقتحم
طبعاً على تلك الأماكن وهؤلاء الناس ، ولكنه التحدى المؤدب الساكت
الذى أحاول به ترويض حياى فى هذه المدينة الطبقيّة المتقلبة المخادعة
فماذا يكون البهاء هؤلاء الناس إلا من فخارة مظاهرهم وانتفاخ
جيوبهم !

أتهادى نازلاً السلام . جيبي متنفخ ، ونشوقى الملهبة حقاً أن أمنح
نفسى شيئاً فورياً يسعدها .. أكتسى مثلاً ؟.. طبعاً فتلك لهفة أفكارى
الآن وإلا فكيف يقدر لى أن أوصل الصراع من خوض تلك الغابة التى
توغلت أقدامى فيها ؟ .. وكان « صديقى نجيب » قد حكى لى عن
محل فى « شارع المدايع » اسمه « قصر فكتوريا » ، بوسعك أن تدخله
فلاحاً فتخرج منه أميراً .. فيه الكسوة من كل شيء .. الحذاء ،

والقميص ، والبدلة ، والحماله ، والكرافته ومنديل الزينة ، ماعدا
الطرايش طبعا - فالمحل للخراجات !

أمشى متمهلاً إليه .. والشوارع ومعالمها الكاكي والأصفر ،
وضجيج المرور الحربى .. عساكر ، وعربات ، ومصفحات وجيب ،
وموتوسيكل ، ولوريات مشحونة ، وطواير أسرى من الطليان
والالمان يتفرج عليهم المارة فى دهشة واشفاق !.. شارع سليمان باشا
وقصر النيل ، وفؤاد الأول ، وإبراهيم باشا ، والمناخ ، والمدافع ،
تتلاطم بالزحام والندرة أن تجد وجهها مصرى !.. عبنى على يفت الاسماء
والاعلانات والعناوين . فلا توجد كلمة واحدة عربية .. لاقراءة من
اليمن أبدا .. لى عشر دقائق وأنا أتربص أن أسمع كلمة أو نداء
بالعربية لغتنا ، أبدا أبدا - حتى بائع الصحف فى تلك الشوارع يأنف
من حمل الصحف المصرية ، فالذى عنده مجلات وصحف أجنبية ..
ويوشك رعب التراجع أن يأخذنى فأنا مقتحم على أمكنة عائلية خاصة
بالأجانب أصحاب الامتيازات !..

لم يكن معى سجاثر ، فتجرات أن أدخل محلا شجعنى أن البائع فيه
له بشرة مصرية سمراء .. طلبت منه علبة سجاثر بحارى وكبريتا ،
فهز رأسه فى أنفه فهو لايفهم .. كررت له مطلبى بصوت واضح -
بالعربى طبعا - فصطحها لى بالانجليزية ورمها كما يرمى القعب ..
« لابس » البقال وزميله « كورثوس » ها ها أمامى وذات مرة
أخرجنى « صلاح عبد الجيد » أن أشتري من عنده البصل والبطاطس
فقد كنا فى طريقنا لإعداد ورقة لحم فى الفرن نأكلها فى بنسيون
الانتيكخانة مع بعض الصحاب .. يومها ياخجل ولحمتى ، فالبقال
الرومى لايعرف كلمة بصل أو بطاطس ، فهل هذا معقول ؟ .. وقد
تعبت حتى أفهمته مطلبى البسيط فنصحنى وهو يردده بالفرنسية
والرومية أن أطلبه بلغة مفهومة أو معروفة !.. أضواء النيون تسطع

بالاعلانات في عز الظهر .. أفيشات وفترينات ومعرضات في كل مكان ، ولكنها لا تناديك أيها المصري فهي لا تشعر بوجودك بل صياحها بالفرنسية وهتافها بالانجليزية وترحيبها بالرومية أو بالعبرية !.. مضى ودهشتى وسخط نفسى أن تلك مدينتى وعاصمة آبائى وأجدادى فمن وضع هؤلاء الناس على أرضها وجعلهم يتحكمون ويحتكرون .. بل كيف حلت لهم الحياة هنا ولهم بلادهم التى يفخرون بجماها وحضارتها وزهو الحياة فيها ؟ .. سهولة الكسب طبعاً !.. سيولة الاستنزاف طبعاً !.. مصر البقرة والمرعى لهم الزيد واللبن ، ولنا القش والروث .. الحياة للأجانب في مصر راحة ما بعدها راحة .. امتيازات ، والقتل مجاناً للوطنيين إذا أتاك المزاج .. لا ترهقك ضرائب أو التزامات أو تجنيدات أو مسئوليات .. لايهمك ما يحدث لهذا البلد من محن وكوارث فما شأنك فليس الوطن وطنك !.. لايهم أن تعرف من هو رئيس الوزارة أو حتى من هو الملك ، فأنت في القمة سلطان نفسك !.. أوفى اللبن والزبد يحلبها العبيد المصريون وكفاهم لعق الطبق ثم غسله !.. وأخيراً قف يا هذا السخط الطارئ على نشوتى المتلهفة فهذا « قصر فيكتوريا » أمامى .. لم أتمهل .. لم أتردد .. تجرأت واقتحمته والتذكرة في يدي رزمة الجنيهاات المنتفخة في جيبي ! .

.....

خرجت من المحل وأنا أتألق في جاكete كحلية من صفيين بأزرار نحاسية براقه آخر موضة تفصيل الصالون الانجليزى .. وفي الجيب العلوى منديل الزينة الأحمر مثلث وهرمى .. ثم كرافتة فضية بها تعاريج ذهبية .. والبنطلون صوف رمادى شارلستون .. والحذاء شمواه بلا رقبة ولا رباط ! .. دفعت مبلغاً رهيباً التهم ستة جنيهاات كاملة - لا بأس يا قاهرى فاليوم لى بهيج !
أتهادى بأناقتى الجديدة حول ميدان سليمان باشا ، ثم أستدير

وأتوقف عند مدخل « سينما راديو » ونشوقى مازالت غامضة بحثا عن ملمس مايسعدها غير لفافة تلك القشور ! .. مازال ميعاد سهر الليل مع « هيكल وسعيد ورمسيس » أمامه ساعات طوال ، وأبدا لا رغبة لى الآن فى العودة إلى شارع الفجالة وعفونة أزقته وحواريه .. ضجرت من شارع الفجالة هذا ويجب أن آخذ النقلة إلى سواه .. تنجذب نظراتى نحو يافطة ستديو تصوير جديد والإعلان عنه بالانجليزية طبعاً عن الاختراع الفوتوغرافى المدهش « صورتك بالرتوش تأخذها بعد ساعة » - وأوكازيون فديسة الكارت بوستال بستة قروش .. ولم أتردد ، فأى فرصة أكثر من تلك لأنال تسجيل المرحلة التى أنا فيها .

وحتى تطبع الصور قطعت تذكرة بلكون فى السينما .. كان الفيلم فى منتصفه ولم ألبث أن سئمته فهو دعاية حربية مضجرة .. قنابل ، وموت وسفك دم ، ياإلهى ماهبل تلك الحرب ؟ .. جنون هؤلاء الحضاريين ؟ .. ماهذا الاقتراس لأنفسهم ؟ .. سئمت وضجرت فالقاعة غاصة بالعساكر الانجليز والأمريكان والسنغال والهنود - ومعظمهم سكارى ومتطوحوون وصاخبون !.. خرجت من السينما .. وقفت أنتظر الصور .. هاهى الصور يا رباه فهل هذا أنا ؟. أول صورة لى بلا طربوش .. وبياشدة الحياء من صفاقة أناقتى التى بت فيها !

.....

أعود وأتمشى ، وأتوقف أمام « مكتبة روكسى » الأقلام والكشاكيل الملونة تناديني من الفترينة .. أدخل وأشتري « قلم حبر فونتين بسن زجاجى » وكشكولاً أبيض مصقول الورق - وهذا أنا أكتشف نشوقى الغامضة فى إسعاد نفسى ، وهى أن أكتب .. أجلس وأكتب .. تلك الرواية مثلاً ، وملخصها الذى فى جيبى فلماذا لا أبدا ؟ .. وكنت قريباً من مقهى « بور فؤاد » فدخلت واخترت مائدة فى الركن ، كنت قد غازلت جلستها ذات مرة فأعجبتنى !

فنجان القهوة ، والكوب الثلج ، وقلم الحبر فونتتين ، وكشكول الورق المصقول مفتوح على أول صفحة ، ويذى تتحسس ملخص الرواية ، فأكتشف مروعا أنه غير موجود فقد نسيته في جيب البدلة القديمة والتي تركت ربطتها في المحل حتى أعود وآخذها .. لم أهتم فنشوق الآن ليست لها .. ثم أى ملخص رواية هذا الذى وضعه الأخ المخرج « أحمد ضياء الدين » فى يذى لأكتب حواراه ؟.. إنه مجرد حدودة ملتوتة سفروته عن فتاة عربية متزوجة كانت تهوى الغناء هى البطلة « حسية رشدى » هربت من زوجها وبلدها إلى الفن والشهرة الجمال فى بلاد المصريين والمشهد لها من محطة باب الحديد وفى يدها عنوان المطرب الكبير « محمد عبد الوهاب » فتلتنقى مصادفة - على الرصيف بالمطرب الصغير « محمد صادق » وبعدها خذ المسار ماشئت مع الحكاية !.. وفى نيتى أن أولفها طبعا طبعا .. وكما اتفقت مع ضياء فسوف تكون « مى الصغيرة » حرة فى أى إضافة وأى تأليف مادام العمود الفقرى والذى هو الغناء موجودا !.. فى عزى أن أتقنها ، وبذل اتفاق المهلة شهرا ونصف الشهر للانتهاء فلن تأخذ منى أكثر من أسبوع ، فلهفتى شديدة إلى القسط الثانى والثالث !

بائع الصحف ير فى المقهى بعدد آخر ساعة الجديد ، والزبائن يتخاطفونه فى حماس فالمانشيت على الغلاف عن « أسرار الأزمة بين القصر والوفد وولى العهد » اشترت نسخة .. عزيزى « هيكمل » له توقيع صغير منمنم فى ملزمة الصفحات الأخيرة على موضوع مترجم ... « سعيد عبده » له التوقيع العريض كرئيس تحرير ، وموال له أيضا ورسم لصاروخان عن مدينة الأوقاف موضة البيع والمساهمة هذه الأيام .. مسلسللة التابعى عن أسرار الأزمات فى للقصر ، وجراءة صحفية جديدة فى التناول لولى العهد المعقوت هذا الذى اسمه « صاحب السمو الملكى الأمير محمد على باشا » .. تلك الجرأة فهل

هى تسديد لحساب فاروق اللاهى فى الكباريات وأمه المتزحلقة على جبال الجليد السويسرى ؟ أم هو تسديد لحساب الشعب المختق المطحون الذى لا يدرى من يصدق وكيف يصدق وماذا يفعل إذا صدق أو لم يصدق ؟ .

صفحات العدد الجديد الطازج تلسع يدى ، وحرمانى وجوعى آه لو انتقلت ولائم مى الصغيرة من كشك الساعة ١٢ الموحش إلى البلاط الفاخر الحاشد من آخر ساعة .. أطوى حرمانى فلا داعى لهذا الشوك الطارئ أن يخز نشوقى ويفيقنى من ابتهاجى ، ثم أتوقف منجذبا عند مسلسللة التابعى الأخرى الأشد تشويقا وابداعا - يكتبها تحت عنوان « بعض من عرفت » عن غرامياته الدونكيشوتية الفاحشة فى مراتع البندقية وفينيسا وفروسياته الدنجوانية المسرفة فى مخادع الكونتسات وذوات الدم الأزرق على شواطئ مونت كاتينى والكوت دازور !... أسلوب التابعى ماأروعه ، تعابيره المختالة ذات الرنين الذهبى ، ولها أحيانا صليل الأنقى ذات الأجراس .. خيالياته وعالمه المبهى الساخر خاطف الأبصار الذى يهيم به محلقا بالقراء المصريين وعجزة الجذاب المقبول عن الهبوط المهشم لهم على أرض الواقع !

ولست أدرى بعد أن انتهيت من قراءة آخر مغامرة له فى أوروبا التى مازال يسرح فيها - كيف تهيجت نشوقى أن أتبارى معه محلقا فى مثل تلك السموات من أنواع تلك الكتابة ومثل هذا العنوان - ياكثرة الغريب والمذهل مما عرفت فى تلك السنوات الثلاث الصاخبة !.. قصة واقعية لم أحكمها بعد فكم أنا خجول من صفة الواقعية لنهايتها .. فركت يدى فتحت القلم والكشكول .. وقبل أن أنهمك فى الكتابة - وكانت الساعة قد أصبحت السادسة - قمت إلى تليفون المقهى وابلغت « هيكىل » إننى موجود فى انتظارهم بعد أن ينتهوا فى الجناح الخلفى من مقهى « بور فؤاد » بشارع فؤاد الأول ... ثم تركت رقم

تليفون « بور فؤاد » فى البنسيون لمن يسأل عنى ، وعدت لأبدأ كتابة
العنوان - بعض من عرفت - بقلم مى الصغيرة !

.....

بدأت ... اندججت .. سخن قلمى .. القصة والسرد المختصر لها -
فالبطلة أمريكية مجتدة حسناء اسمها « تمارا » تزور القاهرة فى مهمة
لأول مرة - وتقف فى الطابور أمام شباك استقبال يتألق فيه البطل وهو
شاب مصرى نشيط وأسمر ووسيم ، جذاب وبادى المرح والطموح ..
تسأله النصيحة فأمامها ٢٤ ساعة فى تلك المدينة كيف تقضيها ؟..
فبتطوع فى شهامة النبلاء أن يضع نفسه فى خدمتها ليكون دليلها إذا
انتظرت ربع ساعة فقط حتى تنتهى ودية عمله !.. وفى تلك الربع
ساعة كان قد أعد فى ذهنه برنامجا حافلا محشودا من ليلة شرقية أخاذة
سوف يسلب بتفانيها بنات الدنيا الجديدة !.. وبقية القصة وليمة ليلة
حارة يصنفها مصرى باذخ الاحلام مع أمريكية مأخوذة ومطبعة ، تصور
بعدها أنه سلب قلبها وملك عقلها ومشاعرها وأنها سوف تطارده غراما
وهياما بل لعلها سوف تلغى سفرها لتتفرغ فى بلاطه الفرعونى تغسل
أقدامه بدموعها !.. الغرض وعن فتانا شاهق الاحلام والطموح هذا
فقد استيقظ فى الصباح ليجد مظروفا تركته الامريكية مطوية على ورقة
عشرة جنيهات « تكلفة الليلة وشكرا » !! قصة ملاغية لعوب .. فكهة
لاذعة ولاهية وملطفة لوقدة الحرمان والحنين ولكنها مفوقة أيضا من
جامع الخيالات ... الوصف المستدرج هو أهم ما فيها ، ولقطات القلم
تستنبط الجديد المغرى من رشقات الكتابة على الجدران القصصية
المصرية .. ولقد وجدت نفسى أضحك مع النهاية بعد أن كتبتها ، عندما
ظهر « هيكى » و « سعيد عبده » ومعها « رمسيس » فوق رأسى ،
فما هذا الذى يضحكنى وأنا وحدى ؟.. أسرعت أغلق الكشكول وأبعد
القلم فأبدا لم يريانى من قبل وأنا أكتب !.. ولكن عزيزى الدكتور

سعيد أسرع واختطف الكشكول من أمامى ليفتحه على العنوان العريض بعض من عرفت بقلم مى الصغيرة .. وتعلو ضحكاته العصفورية ، وتتخاطف الكشكول الأيدى ، وتحفظ على الاسم والخط والعنوان ، وتهمر الضحكات والسخریات وقفشناك متلبسا يا حشرة الأنسة مى الصغيرة !.. اضطربت واربتكت وأصابتنى اللخمة ، فبادلتهم الضحك ووجهى يضطرم بحمرة الخجل - والرد لى أنها تبيض لمسودة قصة أعدتها مى الصغيرة للساعة ١٢ !.. ظل الكشكول فى يد الدكتور سعيد ، فلم يلبث منظرى الفائق الأناقة أن آخذهم إلى شغب دعاية أكبر ، فانهالوا لذعا واستفهاما ، فأردت أن أغيظهم أكثر فأخرجت صور الكارت بوستال الفاخرة فتخاطفوها مبهورين - وهيا وقع بالهدية ولكل واحد منا صورة !

اجتذب الكشكول فضول الاستطلاع والقراءة من صديقى الدكتور سعيد فانزوى عنا يطالع فيه .. استغرق فى القراءة وعلى ملامحه مرح وشغف وانبساط ، ثم غمز لهيكل يهمس فى أذنه ويقرأ ان سويما ثم انضم إليها رمسيس ، وكنت قد انشغلت عنهم وراء تليفون يطلبنى فى كابين المقهى ... تليفون والمتكلمة « روز » شقيقة مارى ، تبغنى والفرح يأخذها أنهم قلبوا الدنيا بحثا عنى ، ومفاجأة أن غدا سوف تتم الخطوبة الرسمية لمارى من « كوبرال » أمريكى اسمه « جيفرى » ، والسهرة سوف تكون عند « مدام آدمة » !.. وفهمت منها عن أهمية حضورى ، فالحكومة تريد توقعيات من شهود مصريين من أجل اجراءات السفر وخلافه ، فمارى سوف تسافر مع خطيبها إلى « سان فرانسسكو » ليعقدا زواجهما هناك .. تمت الاجراءات فى كل شىء ومارى وكلهم سعداء !.. أربكنى هذا التليفون .. سرى بالقلق الخفيف والحيرة المخاطفة فى نفسى - يالهذه الفتاة « مارى » ومغامراتها الأسطورية فى غابة أنواع الرجال .. هذه المرة أمريكى فهل أصدق ؟

.....

اخترنا سهرة الليلة في « حلمية بالاس » بضاحية الزيتون ..
سهرنا وشبعنا وسعدنا .. وكانت فاكهة السهرة طبعاً هذا القفش
التواصل عن منظر مى الصغيرة المتلبس في مقهى بور فؤاد !.. انطلق
اللدغ والمرح ، ومنحتنا الصدفه الرائعة منظراً ملكياً رائعاً مروعاً ، فقد
كانت « الأميرة فايژه شقيقة الملك فاروق » تجلس على مائدة عائليه
ومعها زوجها « محمد على رؤوف » وضيوف آخرون فيهم أمريكيان ..
والذى حدث أن « رؤوف اختلس نفسه من برودة الجلسة الملكية
المتكلفة وتسلسل إلى « البار » ليأخذ جلسة فرفشة مع إحدى فتيات
فرقة الرقص الفرنسية .. وظهر « فاروق » فجأة مع حاشيته ، وعندما
لاحظ أخته وضيوفها وحدهم ، ورمقت عينه صهره التيس القسطنطيني
في جلسته على البار !.. سخن دمه الشرقي وانقبضت عروقه واتجه
مندفعاً وبلا مبالاة من نظارات الساهرين ، وقفش رؤوف من قفا
الجاكتة يحجره إلى حجرة مدير الملهى القريبه ثم أغلقها وهات ياضرب
فيه .. أصوات من الركل والصفع والطحن والشلاليه ، وعبنا نحاول
أصوات الأوركسترا وموسيقى الجاز أن تغطيها .. ثم فتح الباب
ليخرج مرفوع الرأس وهو ينفض يده ويتجه في خطوات سريعة
ليتكوم في مقعد الصدر من مائدة شقيقته وضيوفها !.... هكذا سهرنا
وشبعنا وتفرجنا ... ولم يكن الحساب مرعباً جداً فإنه « خمس ورقات
فقط » خففت بعض العبء من هذا الانتفاخ في جيبى !

.....

نسيت الكشكول وفيه القصة مع « هيكال » تلك الليلة - وطبعاً لن
يضيع وانشغلت في اليوم التالى مع « مارى » وتوقعات عرسها
وسفرها ، وكما استغربت لمنظر هذا الشاب البرئ الخجول والذى
مازال يبدو صبياً - الكربورال الامريكى جيفرى - وكما أخذنى
التعجب لما أصبحت مارى فيه من اتزان وعقل وهدهود وطيبة ودموعها

تجربى هذه المرة صادقة أمامى - عن إنها سوف تغادر أحبابها الحقيقيين
فى مصر ، فهل يقدر لها يوما أن تعود ؟
وعندما قابلت « هيكى » بعد يومين سألته عن الكشكول ، فقال لى
فى بساطة مثيرة انه ضاع منه .. ضاع ؟.. قالها فى بساطة سمجة مما
هيجنى وأطلق غضبى فثرت فيه فى انفعال شديد فمن أين لى أن
أستعيد تلك القصة ؟.. قال وهو يضحك سخيلا وبلا مبالاة ، فلماذا
لا أنسخها من المسودة المعطرة ؟.. وعندما جاء « سعيد » وسمع
صخبى وثورقى وعرف عن ضياع الكشكول ، تحيز ضاحكا مع هيكى
وزغدى فى جنبى مداعبا ومهدئا وبأخى فتش فى أوراق المرحومة عن
سواها ! .. المرحومة ؟! .. يقصد مى الصغيرة فما أقساه هو الآخر ؟
امتعضت صريحا من قسوة اللفظ وتلكنى الضيق إلى درجة أن هممت
بالانصراف مخاصماً ومقاطعاً ولكنها تمسكا بى واعتذرا وبررا ضياع
الكشكول بكلام غامض مداعب ، وهما يؤكدان بعد كل ضحكة بل
يضعطان على القول بأن أمتع المناظر لها عندما يريانى أقلت من قفص
حيائى الريفى وأبدو غضوبا صريحا بمثل هذا الذى أتأدى فيه الآن من
أجل ورق قصة لن يتاح لها النشر طبعاً ، فهل معقول أن يؤخذ عنوان
التابعى لمجلة أخرى غير آخر ساعة ؟

.....

وصباح الاحد استيقظت على تليفون ميكى يطلبنى وكان المخرج
أحمد ضياء الدين وفى صوته غموض واعتذار ، فهو يطلب منى سرعة
اللقاء من أجل تغيير العقد بعد أن انكشف الاسم .. ماذا ؟ .. وقبل أن
أفئق من صدمة أو غرابة الطلب ، قال ، إنها والله فكرة خدعة رائعة
تصلح فيلما .. ماذا ؟ .. ماذا ؟ .. وأخيرا فهمت منه أنه يتكلم « وعدد
آخر ساعة الجديد » مفتوح أمامه - وفيه صورة كبيرة لى ، مع قصة
بقلم مى الصغيرة عنوانها « بعض ما عرفت » ..
ماذا ؟ .. ماذا ؟ .. ماذا ؟ ..

« وداعا يا مدموازيل » —————

هذه « هي صورة مى الصغيرة » !!

« هذه هي صورة الفتاة التى خدعت قراءها فى الصحف بضع سنوات .. وغازلتهم بكتابات وقصص اتسمت كلها بالجوع العاطفى إلى القبلات ، وتلفت من كثيرين منهم رسائل معطرة بأريج الهوى المشبوب وتهديدات القلوب المحترقة .. فى بعضها عروض للزواج وفى سائرها استدرار للعطف الذى تختبئ فيه السهام المسمومة لكيوبيد الشرير .

هذه هي مى الصغيرة ، التى سمعت من أكثر من واحد من أصدقائى قصص غرام لعب فيها دور اليريمادونا من جانب ولعبوا هم من الجانب الآخر أدوار الفرسان الأول .

هذه هي مى الصغيرة ..

« خنشور » مثلى ومثلك ، له لحية وشارب ، وعنده اليوم يريد يساوى - فى الميزان فقط بطبيعة الحال - بريد وزير .
هو الزميل الأستاذ ... إلخ » .

« سعيد »

« آخر ساعة - العدد ٥٥٣ - الأحد ١٣ مايو ١٩٤٥ »

.....

عدد المجلة يهتز في يدي وأنا واقف أمام « المعلم الحاج أبو الفضل » بائع الصحف بجوار كازينو البسفور بباب الحديد .. مفتوح على الصفحة الثانية وهذه هي قصتي وهذه هذى صورتي ، وتلك هي مقدمة الدكتور سعيد عبده لى ! .. يا إلهى .. يا إلهى ميدان باب الحديد يتحول فجأة فى نظرائى الغاصة بالدموع إلى مسرح عريض ، طويل ، هائل ، محشود بالمتفرجين ، يحملقون فى منظرى الذى ارتفع عنه الستار فجأة !

خشية المسرح بلا كمبوشة ، وبلا ديكورات ، وبلا ممثلين ، فأنا وحدى الواقف فى دائرة من ضوء ، تتحرك أينما تحركت .. هكذا فجأة أصحو عليها .. لم أكمل ارتداء ثيابى بعد .. مازلت أحاول أن أضع ساقى فى رجل البنطلون .. تواجهنى تلك الحلقة الجاحظة الرهيبة من حشود المتفرجين ، حلقة تميد بى ، ثم قهقهة تدوى فى أذنى ، ثم ضحكات متواصلة مجلبة زلزل وقفى - فهل هى تسخر من منظرى الريفى الحائر ؟ .. مقدمة « سعيد عبده » تلك ؟ .. هذا التسديد اللاذع المنصب فقط على الغراميات والالتهابات والعاطفيات ، فهل كانت تلك إلا القشور واللفائف للحقيقة البريئة المتوسلة من قلم ريفى محروم صاحب متمرّد يحاول أن يفض الكبت عن قهر أهله ؟ .. مقدمة سعيد تلك هل هى هو وإثارة فى السوق الصحفى المتنافس المنسوب ؟ .. رمية جليد خاطفة لاهية سوف تذوب فى حرارة منظر واحد ؟ .. أم هى منحة انحناء عطوف ترفع الراية وتنفخ البوق ليفتح الباب الملكى من بلاط صاحبة الجلالة للفلاح الحافى !

.....

عدد آخر ساعة مازال يهتز فى يدي وأنا واقف أمام بائع الصحف العجوز .. أشعر بالدوار شديد الدوار .. أنكمش وأنكمش كأنما مسنى إحساس بالتلاشى .. عروقى وأوردتى وأوعيتى فى داخلى تتلبك

وتتبعثر .. وقلبي في جوفى أيضا يعلو ويهبط ويدق بمثل ماسورة دق الأساسات .. روحى ترفرف وتضج وكأنها مارد محبوس في قمقم وهي الآن في ثورة الخروج والانطلاق .. أستند على حائط البسفور بجوار المعلم أبو الفضل .. اتهاوى رويدا رويدا فلم أعد بقادر على الوقوف .. اتكوم بجواره ، وأجلس على الأرض ساكنا لا أتكلم .. ويدهش الرجل بل يذعر من منظرى المسلوب فيسألنى عما بى ؟ . لا أقدر على الإجابة ، فيتلجم لسانى عن النطق . فأشير له نحو الصفحة الثانية المفتوحة من عدد آخر ساعة الجديد . يحملق الرجل فى الصفحة برهة ، ثم يرتفع صوته محمقا فى دهشة - إنها صورتك - ؟ .. أومئى له أن نعم فيعود يحملق فى الصورة ومنظره طروب ومغتبط ونظراته تنزل إلى الكلام المكتوب تحتها .. الرجل لا يعرف القراءة . أو الكتابة ويوشك أن يطلب منى قراءة هذا المكتوب ولكن منظرى السارح والبعيد جعله يتراجع فينادى على جاره الفكهانى ليقرا له .. ألاحظهما من طرف عيني الزائغة وقد مالت رأسهما على بعضهما ، فهذا يقرأ وهذا يسمع .. تأخذ نظراتى شيق اللمحات من دهشة المعلم الفكهانى وهو يقطع القراءة ما بين فقرة وفقرة ليتأكد من مقارنة الصورة بوجه هذا الأفندى الغريب المنطرح مثلها على الأرض ، والحاج أبو الفضل يزغده فى جنبه مستعجلا أن يكمل المكتوب .. أتابع ملامح بائع الصحف العجوز وقد تفتحت أشداقه عن ضحكات راضية وطيبة ومندهشة .. يا شدة ما تأكدت فى تلك اللحظة ، فكم كنت أشعر بهذا الإحساس يراودنى ، بأن هذا الرجل عم فضل هو صديقى الأول الحار فى هذه المدينة لاسعة البرودة .. قريبي أو من عائلتى ، بل هو أبى إذا شئت أن آخذ أنفاس الرفق والحنان ، فمن يطعننى سخيا من هذا الزاد الغالى ؟ .. تلك الطبلية الثرية الشهية المنوعة التى أحوم كل صباح من حولها ، متلمظا بمنظرى الجائع متضورا بقرشى اليتيم ؟ .. المعلم أبو الفضل تنتشر ضحكاته ، ثم فجأة - فى صيحة ميدان - يعلو

صوته ملوحا بأخر ساعة مفتوحة على صفحتى ، وينادى بمثل « المصور وفكرى أباطة » ، فهذه المرة « آخر ساعة ومى الصغيرة » . اسكت اسكت يا عم أبو الفضل .. أشده من ذراعه أستوقفه عن لسعة الكرباج من هذا النداء .. أتوسل إليه أن يكف ، ولكنه نزع ذراعه منى وانتفض واقفا يطلب من زميله الفكهاى أن يفتح زجاجة شربات على حسابه .

.....

خطواتى تهول مبتعدة وهاربة يطويها الرعب والحياء من مظاهرة الحاج أبو الفضل تلك وعزومة الشربات الأحمر ! .. تلك التصفية الحانية البريئة للمتفرج أعلى التياترو ؟ .. الانبساط الهائل يرج مشاعرى .. حسنا فقد انتهى المشهد الأول فماذا بعد ؟ .. انكشاف مى الصغيرة فى آخر ساعة يطيح بمشاعرى ، ولكن مباغته هذا الحسم ترعبنى فماذا بعد ؟ .. ما هو المشهد التالى الذى سوف أقدمه ؟ .. أنه ليس فى يدى ولا أملكه .. فأين نصه ومن يلقتنى إياه .

تهول خطواتى وعدد آخر ساعة فى يدى يسرى بالكهرباء فى عروقى .. ورقة امتحان انتهتها ولم يعد يصلح لها غش أو إضافة ، فقد باتت فى يد الممتحن ؟ .. هل أروق ؟ . هل أمرق .. هل أجتاز الامتحان من تحت عيون الدهاة والمترسين ؟ .. تلك القصة المنشورة ؟ .. مصادفة تلك القصة المنشورة ؟ .. يا غرابة أن تقفز دون سواها لتكون فاتحة الشباك ؟ .. بل غرابة المصادفة أن أكتبها فى لحظة نشوة لمجرد هو وشغب مع نفسى ومحاولة شخصية جدا لاقتحام حلبة التابعى العملاق .. هل لم يكن أجدى لو أعطيت اتقان الفرصة بدل هوج المصادفة هذا ؟ .. طنين فى أذنى يهدئ من انفعالى وتطابير أفكارى ، قف أيها الأهيل المفزوع فالمصادفة هى التى تحكم هذه الدنيا .. هى هندسة هذا الكون ومسيرة كل هذا الخلق .. هى علاقات

هذا العالم وشبكاته المتواصلة .. هي الحقيقة المسوكة وقل إنها البداية
والنهاية من أى شىء. وكل شىء !

مصادفة نعم ولكنى أحوم من حول تفسيرها وانطوح إلى توقع
ما بعدها ؟ .. تتابى الأفكار - يا شدة الشك مما زرعه الضيم والقهر
في غرائزى - فهل صديقى سعيد وهيكىكل مخلصان جادان أم لاهيان
عابثان ؟ .. تلك التقدمة المهدارة - وكأنها نكتة أسبوع وهات
ما بعدها ؟ .. هذا الانكشاف المباغت الذى غير خططى ؟ .. سيئ أم
حسن ؟ .. هل أغضب أم أفرح ؟ آخر ساعة مجلدة كبيرة نعم وأم
المجلات حتى الآن نعم ، ولكن منذ ظهرت « أخبار اليوم » بدأ
يستلمها الضمور والفتور ... نعم كانت لهفة خطتى أن يدشن مولدى
على صفحات أخبار اليوم والتي تتبختر الآن في عباب القارئ فخورة
بمصريتها محتالة بطموحها .. أنها توزع الآن ١٢٠ ألفا فماذا توزع
آخر ساعة ؟ .. ربما ٣٠ ألفا فقط فمن يبلغ عنى للتسعين ألفا
الجاهزين ؟ .. قف . قف أيها الفلاح المملق المفلس الدخيل يا شدة
البطر مما تمنى أو تشهى .

الساعة السابعة صباحا وأنا لم أفطر بعد .. خطواتى تكتسح ميدان
باب الحديد ذهابا وإيابا وعينى على باعة الصحف وعدد آخر ساعة
الجديدة يهمل فى أيديهم .. محطة مصر وشبابيك التذاكر ومشاعرى فى
لفحة من حنين جائع إلى القطار المسافر فى اتجاه قريتى .. ميعاده بعد
ربع ساعة - خط المناشى - فهل أفعلمها ؟. لهفتى جانحة وحنينى
حارق إلى ظل الجميزة ، والنخلة ، وتكعيبة العنب ، ثم التربة
والرياح ، وحوض القصب ، وغيطان القمح ، ورعرة البرسيم ..
شوقى إلى عم قطب وعم هاشم ، والشيخ حسنين ، والخال أبو بكر ،
والحاج عقرب ، والعمة أمينة .. الولد كامل ، وغانم ، والطحاوى ،
وعبد المجيد ، وعبد الحميد ، ومرسى واسماعيل . مولد سيدى

أبو الحديد ، وبخوت شم النسيم ، ومزار البركة من ضريح الشيخة زاهية ؟

أستدير عن باب الحديد ولهفتى الواثبة هي أن أركب ترمواى ٨ إلى شبرا .. سنوات الصبا والمراهقة وحرقة النظرات من ثنايا الخصى القاهرى فى « حارة خليل على » .. ركبت محطة واحدة فقط عبرت بى الكوبرى ، فشيتى وإفطارى الآن أن أمشى وأنهم من منظر آخر ساعة والباة يوزعونها طبق إفطار .. شبرا لم تستيقظ بعد . أبدأ من جزيرة بدران ثم مزلقان السبتية ، إلى شارع ابن الرشيد ثم شارع مسرة .. سينما دوللى وباب الترسو .. مدرسة الاسماعيلية ، وعم زغلول بائع الكتب القديمة ، وعم محجوب مؤجر الكتب الجديدة .. أصدقائى وأحبائى بالعشرات من باعة الصحف والمجلات وأى ورق يقرأ .. حارة الدرمللى ، ومدرسة النيل وشارع الترعة البولاقية حتى العسال وشيكولانى ، مستشفى كيتشنر .. شارع العروسى ، ومدرستى الابتدائية .. ثم هذه الشرفة من شارع المحمودى وأول خفقة قلب من لقاء عين الريفى المنطفئ بوهج فتاة قاهرة .. ثم « قصر رفعت باشا » وزير الحرية - وابنه « حسين » الذى كان زميلى فى الابتدائية ، أخذنى إلى بيته ذات مرة ورأيت أخته ، تركية ناحلة بيضاء شقراء وعود ريحان .

أعود إلى بنسيون كنج فيليب بالفجالة ، بعد أن تعبت قدماى من ذرع المدينة طولا وعرضا .

.....

« السفرجى زيتون » وفى يده آخر ساعة ، يقابلنى مبتهجا متهيجا ويصمم على تقبيلى .. « ومدام موريس » تشخط فيه أن يبتعد وتمسح بيديها فى حفاوة على جاكتى ما قد يكون علق بها من مريلة زيتون .. تحتفى بى وكأننى عظيم من صنع يديها ومنه سوف تنتشر شهرة البنسيون .. وأنا ؟ .. أنا أتلعثم تعسا وحائرا وخجولا ، وهدق أن

أهرب وأتوارى لأخلو لنفسي .. أتسلم من زيتون قائمة من سألوا
وبحثوا عنى .. صلاح عبد الجيد .. ووديع شبلى ، ومنير فريد ،
ومأمون ، وحسن ، ونجيب ، وهيكل عدة مرات ، وسعيد عبده طبعاً ،
ثم رشاد رمزى ، وعبد اللطيف ، وأميل ، ورمسيس . لا لن أرد على
أحد ، ولن أتصل بسعيد أو هيكل .. سوف أغلق الحجرة على نفسى ،
أحاول أن أحاصر هذا الطوفان من مشاعرى وأفكارى .. حسنا لقد
وقع الحدث ، والخطوة القادمة فماذا بعد ، وترى هل هى فى يدى ؟ ..
انطرحت على سرير كنج فليب استلمت صفحة السقف - وهات هائج
سطورك يا خيالى وتعال نتناقش .

.....

اليوم الثالث لى وأنا منكمش ومختبئ فى حجرة كنج فليب .. أحاول
أن أجمع المتفجر من أفكارى وبعثرة مشاعرى - وأبدا لا قدرة لى على
ضبطها وترويضها .. التليفونات كثيرة تطلبنى ، وقد صممت ألا أرد
على هيكل أو سعيد بالذات - وحجتى المترددة أنتى غير راض عن
مباغثة هذا الغدر منها .. لا نصيحة لى عندها الآن بل انها قد
يقوداننى إلى هزل أكبر .. ولكن فجأة يدق التليفون بطريقة الترنك -
و « لندن » تطلبنى على التليفون .. هرولت أسرع مستغرباً ، فهل هو
الميجور كول أم بياتريس ؟ .. ووجدت ضحكات « هيكل » وهو
يقفشنى فأين أنا للمدلهات المغمى عليهن من حول عمارة بحرى يطلبن
رؤية الدون جوان الخنشور .. المظاهرات والزوار فأين أنت لها
يا أستاذ ؟ أغضبتنى نيرة السخرية من دعابته فشخطت فيه أن يتوقف
وكفى بواخا من هزار سمج ثقيل لم أعد أطيقه ؟ .. واختطف سعيد
السماعة منه وهو يطلق على الضحكات ، فهل أنا زعلان حقاً كما
يقول هيكل ؟ .. ومم الزعل يا أهبل وكل مصر قبلى وبحرى
لا حديث لها هذا الأسبوع إلا عنك ؟ وقبل أن أبرز له حجتي من
زعل التقدمة ، قاطعنى فهذا هو الوزير « عبد الحميد باشا

عبد الحق « جالس معنا في آخر ساعة ويريد أن يتعرف عليك ؟ ..
وجاءني صوت الباشا الصعیدی ضحوكا مداعبا وهو يسألني هل
أنا صعیدی أو بحیری ؟ .. قلت له إنني « جيزاوی » فقال : ملاك
الهرم يا بختكم .. ثم تلتف معي شيقا بلهجته السوهاجية التي تنقشع
معها الهيبة من أي باشوية أو وزارية ، وحكى كيف كاد أن يقع في
الخدعة من ممي الصغيرة وكان على وشك إرسال خطاب تعيين لها
لوظيفة مدير عام للاعلام في الوزارة ؟ .. بادلته الضحك فكم هو باشا
لطيف ، وعاد سعيد يستلم التليفون ليجدني رحبا صافيا بلا انفعال
ولا غضب .. عدنا نتضحك .. عاتبته على تلك التقدمة التي ترقص
بالصاجات في سوق الغوازي ، فصرخ في وجهي زاجرا ومفوقا أن
أعيش عصرى وانفض عن نفسي أغطية الريفية والتحفظ فقد انقضى
عصرها .. وقل ماذا تريد الآن لتهنى زعلك ، إذا كانت تقدمتى لك قد
أغضبتك فتعال وقدم نفسك بنفسك ، وخذ صفحتين بل ثلاثا في العدد
القادم - وليس هذا تنازلا منا أو منحة فهو النزول على رغبة القراء
والتليفونات التي لم تهدأ لحظة في آخر ساعة وهى تسأل عنك وآخرها
من التابعى الذى أمر بتعيينك وضمك من اليوم إلى أسرة آخر ساعة !

.....

وفي الصباح .. فى مقهى بور فؤاد .. الركن الهادئ الرومانسى ،
والمائدة الرخامية الشهية ، وفنجان القهوة الدسم ، وكوب الماء المثلج
اللذيذ .. فرشت الورق وتعال أيها القلم الفونتين أجرب معك توقيعى
الحقيقى لأول مرة .

أنهت المقال .. لم أتردد فيه .. كتبتة سهلا بطريقة خاطف
الأقصوصة .. والأقصوصة فيه هى المشهد من ريفى يقع فى حفل
« بال ما سكيه » وها هو يروى ما وقع بين يديه من غريب اللواذع
والتواذر .. ثم جعلت الإهداء له فى برواز تحت العنوان .. « إلى
الصديق سعيد عبده - سامحه الله - هذا الذى أجهض الجنين الذى لم

يكمل شهره التسعة « .. طويت المقال الطويل في المظروف وكتبت العنوان باسم الدكتور سعيد ويسلم له شخصيا ويدًا بيد - وخوفي الشكاك المستريب أن يقع في يد العايب هيكمل .. ثم قمت وتمشيت إلى عمارة بحرى ، وفي صندوق بريدها بجوار الباب وضعت الظرف ثم استدرت - وقد هدأ انفعالي قاصداً رستوران الريمجيت حيث كانت تنتظرني الموناليزا العذبة عزيزة .

.....

صباح الأحد في الفجر .. تأخذنى عربية صديقى الودود « نجيب » إلى مطار أمانة لنودع « مارى » وخطيبها المجند الأمريكى « جيفرى » فسوف تقلع بها طائرة السادسة - وإلى الأبد وداعاً يا مصر .

في يدي عدد آخر ساعة وبها المقال الجديد وسوف أقدم منه نسخة لمارى - أول الطبعة من مى الصغيرة - عربية نجيب تنهب الطريق ، وأعود أتصفح العدد ، فمع وداع مارى اليوم فأنا أودع أيضاً مرحلة حارة من حياتى هى مى الصغيرة .. أول مقال عليه توقعيى .. العنوان له كبير ومبرز ، ولكن المبرز أكثر والذى يأخذ الوهج أكثر ، هو اسم الكاتب .. لفة قراء آخر ساعة الآن أن يقرأوا لهذا الكاتب .. هذا هو الاسم ما نشيت وعريض لم يأخذ عشر سنوات أو عشرين أو حتى ثلاث - وعزيزى كريم ثابت فما رأيك الآن ؟

مارى واقفة وسط حلقة من أهلها فى صالة الانتظار .. أتهادى نحوها ومن خلفى طابور الوداع من هائل الذكريات .. لاجئ الحرب التى وضعتنى فى ميادين حروب ضارية شرسة على طول ثلاث سنوات .. تجربة الكى على الضلوع بنار الأنوثة .. عروس بحر النار التى أوشكت أن تغوص بى فى غور أوارها .. أقترب منها وبمجرد أن ترانى تطفر الدموع من عينيها .. تأخذها نوبة التأثير من لظى الوداع .. تمسك يدي وتضغطها فى عتاب لا ينسى له الحنين .

أودع ماري .. أسلمها عدد آخر ساعة الجديد .. والصفحة مفتوحة
على المقال .. نهاية الرواية من فصل النشأة والعنوان له - ما أغرب
المصادفة - يعطى المعنى والمغزى من هذه الراحلة الحارة - فقد كان
يقول لها وللناس .

« وداعا يا مدموازيل » .. والتاريخ ٢٠ يوليو ١٩٥٥

« العهد والقسم » _____

من يوميات القاهرة ٤٥

أغسطس والحر لافح والساء غروب !
شبابيك شقة الدور الثانى من « عمارة بحرى بيمدان
الاسماعيلية » - التحرير الآن - مفتوحة بأضوائها على
المصرعين ! .. يافطة النيون الملون . أزرق أخضر أحمر أصفر
تضىء ، وتطفئ بشعلة الاسم لأشهر مجلة أسبوعية فى مصر .
آخر ساعة ! .

أتهادى نحو بوابة العمارة فى بظء ورجفة ! .. رغم البدلة الجديدة
والقميص المكوى والحذاء اللميع ومنديل الصدر المثلث والقلم
الأنوسى يلمع فى الجيب . فالشكل الأعماقى يعلن بالطبل والبوق
أننى صبى فلاح كادح وحافى مشقق القدمين وبالجلابية الزرقاء الجرباء
وبالفأس والمقطف على الكتف والظهر ! .

أمرق من البوابة ويذى مطوية فى حرص وعناية على خمس ورقات
فلوسكاب مكتوبة بخط اليد . فيها أول باب صحفى لى سوف يظهر
فى العدد القادم .. تركنى التابعى أختار نوع مادته وأسلوبه
وعنوانه ! .. سوف أقدمه له بعد لحظات . ويا شدة ما أحس بالرعب
والخوف والتردد وخطر السقوط ! .

التابعى - وكان قد قرأ مقال المفاجأة المدوى - كشف القناع عن مى الصغيرة - وهو فى مراتع موسم الصيف فى ربوع أوروبا وكان قد سافر منها إلى فلسطين ليقضى أياما قبل أن يعود إلى مصر .. دق التليفون على نائبه فى المجلة سعيد عبده - من جناحه الفاخر بفندق الملك داود بتل أبيب . وسأل عنى ومن أكون ؟ .. ثم بعد أن سمع من سعيد أعطى أوامره بإلحاقى عضوا بأسرة المجلة بمرتبة عشر جنيهاً فى الشهر لتبادل كتابة القصة القصيرة الأسبوعية مع نجمها المرموق « صلاح ذهنى » الذى تعين هو أيضاً فى نفس اليوم وب نفس المرتبة ! . وعاد التابعى بعدها بأيام قليلة - وظل مقبياً فى بيته بالزمالك . يستقبل زواره وسماره المشتاقين والمحتفين قبل أن يظهر فى المجلة - وكان فى غيبته تلك قد قرأ لى أكثر من قصة من هذا النوع الذى أحدث ضجة ودهشة وفضولا فى دوائر القراءة والكتابة الصحفية ! .

.....

هكذا أتهدى فى بطاء ورجفة وفى يدى الورقات الخمس التى سوف أقدمها بعد لحظات ! .. نعم بطاء ورجفة وخوف الفشل فى الاختبار ! .. لقد تمكنت فنجحت فى امتحان الحيلة من اشهار نفسى ككاتب قصة قصيرة يطل من خلف قناع فتاة . وبقي أن أنجح فى امتحان المستقبل كله ككاتب صحفى يطل من حدقات عيون الجماهير .

أصعد السلام كمن أتسلق هرما شاهقا ! .. الورقات الخمس ؟ .. الباب الصحفى الجديد ؟ .. يا ذعرى أن أفضل فى الاختبار . فكل فقراته جريئة متمردة منطلقة وذات كبرياء . تعطى ظهرها للجيل أرستقراطى قديم متهرئ لتعبر عن مشاعر جيل جديد عنيد صمم أن يقتحم بوابة النشر المغلقة على طبقيتها وغطرسة تقاليدها ! .. أنها تذكرنى بالعريضة المنفجرة التى رفعها المظالم من « فقراء قرية

وردان « يشكون القهر والجوع والمذلة في دائرة أملاك البرنس عمر طوسون مالك وحائز الـ ٩٩ ٪ من الأرض والزرع والبشر والمواشي في قريتهم التي ولدوا بها ! .. تذكرني بعدها بالنظرات الحمراء الشذراء على عساكر الهجانة السود وقد هجموا على القرية بالكرايبيج والنعال وحوافر الخيول والبغال وطاحوا بعنف العقاب على البيت والأب والولد ! .. أبدا لا تنسى ! .. كيف تنسى ؟! .. تذكرني بصراخات الهتاف الوطني الغضوب في مظاهرات التلمذة ضد الاستعمار والظلم والطبقية من الابتدائية إلى الثانوية إلى الجامعة . وكونستبلات الانجليز وعساكر الحكام بالرش والهاروات يحاصروننا في مغلق الأزقة والحارات ! .. أنسى ؟ .. بالله كيف أنسى ! .

هكذا تلك الورقات الخمس في رجفتي الآن هي أيضا محاولة تقديم عريضة احتجاج بل صرخات تمرد وثورة إلى المجتمع كله من صبي قرية وردان . وأيضا محاولة صراخ وهتاف من غلام المظاهرات ! .. الصبي والغلام الذي أصبح شابا وملك لأول مرة منبر الرأي والصوت العالي في المجلة الأولى والكبرى مسقطة الحكومات ! .

.....

أول أمس . استدعاني التابعي إلى غرفته المهيبة .. الباهر العملاق . جليس الملوك . مخيف الأحزاب والحكومات .. أجلسني أمامه متوددا ومشتتا الهيبة .. شجع واستغرب حدائق أسلوبي .. شكر واستقصى عن منبع قصصي .. استلطف حيائي الريفى وانداهش من قلة تجاربي . فمن أين جاءت إذن تلك القصص الواقعية الصاخبة ؟ .. حكيت له ما قدرت .. صارحته بما تمكنت .. ثم بعد تلك الجلسة عزمى على بيته الأمبراطورى في الزمالك .. على الكرفوازييه المعتق والسمان المشوى .. أجلسنى شغوبا بانبهارى وسط تلك الهالة المعلقة من صور معجباته ومغرماته الدوليات .. الكونتس لويزا والليدى مادونا والدوقة ايزابيلا والبرنيسس شاهنزارده والنبيلة حسن شاه ! .. ليلة مترعة

مدوخة .. ثم وهو يودعنى عند الأسانسير أخرج من جيبه ورقة عقد لمدة سنة بتعيينى كاتباً ومحرراً فى آخر ساعة بمرتب ١٥ جنيهاً فى الشهر .

« ملحوظة » - بعد ثلاثة أشهر من تلك الليلة . فجر التابعى زلزالا فى البورصة الصحفية عندما أعلن أنه رفع عقد الكاتب الناشئ - الذى هو أنا - إلى ٤٠ جنيهاً فى الشهر . بأعلى مما يتقاضى كبار وعواجز الكتاب ! .. خبر صحفى تناقلته وكالات الأنباء ووردته الصحف فى دهشة واستغراب ! » .

« ملحوظة أخرى بعد أربعة أشهر من تلك الليلة » - تلقيت دعوة لقاء عاجل وهام من صاحبى أخبار اليوم « مصطفى وعلى أمين » فى شقة الأسطح من شارع قصر النيل . وعندما ذهبت إليهما أغلقا باب حجرتهما وأنا معهما واتفقا معى على الانضمام إلى أخبار اليوم كمحرر رئيسى وكاتب متميز بمرتب ٧٠ جنيهاً فى الشهر ! .. وقبل أن أنطق بكلمة استدعيا مدير الإدارة الأستاذ عيد « ليقيد التحاقى ابتداء من اليوم ! .. وفى هذا اللقاء المدوخ المثير خجلت أن أرد بلا أو نعم . ولكننى بمجرد أن انصرفت من عندهما جلست على مائدة أول مقهى وكتبت لهما خطابا عاطفيا مشحونا بأشد الأسف والاعتذار - فلن يرضيهما طبعاً أن تكون بداية مسيرتى الصحفية - هو نكران الجميل لأستاذنا التابعى !

قدم لى يومها عقد الـ ١٥ جنيهاً . والمطلوب منى « باب صحفى جديد » سياسى واجتماعى وفنى . ترك لى اختيار مادته وأسلوبه وعنوانه . وسوف يخصص له ابتداء من هذا الأسبوع الصفحة الثانية بعد الغلاف ! .

دخت . سعدت . تماسكت .. استعدته عن نوعية ما سوف أكتب فى هذا الباب ؟ .. فقال - أنت حر ! .. استعدته راجيا مرة أخرى فكرر

كلمة أنت حر . ثم عندما لاحظ حيرتى قال - لماذا لا تجرب أسلوبك القصصى الجديد فى النقد والذد والتعليق على أحداث الأسبوع ! .

.....

.....

أنت حر .. أنت حر ..

خطواتى المسلوقة ترددها وأنا عائد إلى بنسيون كنج فيليب ! . فى تلك الليلة التى طويت فيها عقد آخر ساعة ولحظة أن وضعته فى جيبي . شعرت باللمس والحس والاستشاق من حواسى الخمس أننى أضيف جديدا على عضوياتى الحسية والجسدية .. عقدا جديدا ملزما بأننى بت مندوبا مكلفا عن أهالى ومظالم قري وردان وبني سلامه والخطاطية وبرقاش وكفر أبو الحديد . لأنوب عنهم أمام بلاطات وصالونات وقصور ملوك وأمراء وباشوات وحكام وطغاة مدينة القاهرة .. وأن سلاحى لهم - أيها الكاتب أنت حر ! .

تلك الليلة . قبل أن أنام . وبعد أن خلعت ثيابى .. توضأت . تطهرت . ركعت . صليت . وبدأت لحظات التاريخية فى تربية تلك الجلسة .. التبتل والدعاء وأخذ العهد .. طلبت العفو والمغفرة عن أى انحراف مضى من تلاطم حياتى وعثرات شبابى ونزوات محاولاتي . فيها أنا منذ اليوم متطهر وجاهز لحمل أمانة القلم ! .

فى تلك الجلسة التى أيدا لن يزول نقشها على أول صفحة من مجلد حياتى القلمية . وضعت الدستور الشخصى لحياتى ككاتب وصحفى وأديب ومفكر جهز نفسه ليكون المعبر عن أجيال عصره ! .. الكراسة المقدسة للصحفى والكاتب الناشئ الصغير ! .. عاشق بلاده ومندوب أهله ! .. خذ المسكن والوقفة دائما فى أجنحة الأغلبية فهى تحمل روح الله وإرادته ! .. الأغلبية وروحها هى لؤلؤة التاج فى مرصع مملكتى وما سواها غير رخص وخدم وعبيد ! .. كن جريئا مرفوع الرأس دائم الكبرياء لا تنكص ولا تهاب مادام درعك وحاميك هى تلك

الأغلبية ! .. حذار أن تطمع أو تخدع أو تخون فيادميم منظرِكَ إذا
جاملت أو حايت أو نافقت أو تهربت ! .. يا رخيص شكلِكَ إذا
أغراك منصب أو منفع أو جاه ! .. كن مرفوع الرأس في مهنتكَ فأنت
بقلمكَ فارس في حلبة بل سلطان في مملكة ! .. لا تنزلق ولا تكن ذيلا
أو دلدولا للحكام والرؤساء والمتسلطين وألا أحتقرك قلمكَ وورقكَ قبل
أن تطل بهما على القراء ! .. أبعد علاقاتكَ ونزواتكَ وغرائز بشريتكَ
عن مسرى قلمكَ ونقائه ! .. كن جديدا متفتحا على عصركَ . مفيدا أو
مضيفا ومضيئا ومجددا أو مرشدا للتابعين من أهلك ! .. هيا هيا يا جدد
مصر نختطف بلادنا الجلييلة العريقة من مستنقع الحرمان والذل
والهوان ! ..

و .. مسحت عرقى وبدأت الكتابة ! ..

لا شيء .. وضعت أمامى جملة « أنت حر » وبدأت الكتابة على
بصيص ضوئها .. أنفذ معها العهد والقسم .. تعليقات على أحداث
الأسبوع الداخلية والخارجية .. والثوب والأسلوب لها زينة عصرية
وجرأة مبتكرة وتحرر يختال برشاقة عوده .. فقرات قصيرة .. نحن في
عصر الساندوتش فلماذا لا أقدم في الفترينة مادته الصحفية بطريقة
التغذية الخاطفة والسريعة .. والإضافة بهارات وتوابل مصرية عريقة
وحريفة لم يجرب القارئ مذاقها من قبل !! .. مثلا مثلا . ألغيت
الألقاب في الصفحة فليس فيها باشا أو بيه أو صاحب سمو أو صاحب
مقام رفيع ! .. لا طبقية فيها ! .. التعرية الصريحة على الكروش
الحزبية .. مطاردة العمالة والانتهازية والغلق والتزمت وضيق الأفق
والتعصب والتضليل السياسى والخداع والختل الاجتماعى وممنوع
ممنوع خداع القارئ ؟ .. أكبر الكبائر يا حملة الأقلام خداع
القارئ ! .. المرح أيضا والدعابة ولذع المصارحة وفض الكبت
والحرمان ! .. لا بمجاملة ولا تأدب مع الرقيق والوضيع والمخادع

والمنحل .. وكل الاقبال والتشجيع والطبل والتصفيق للوطنى الصادق
والناصر والشريف ! .

.....

.....

هكذا أصدع السلام لأسلم الباب الجديد فى رجفة ورهبة .. لقد
نفذت توصية التابعى - أنت حر - فى مبالغة مفرطة باهظة .. ترى
ماذا يكون وقعها ؟ ! .

دخلت إلى صالة التحرير .. مشحونة وصاخبة .. كلهم أصدقائى
ومعارفى حتى قبل أن أنضم زميلا لهم فى آخر ساعة ! .. « أحمد
حسن » . « أبو الخير نجيب » « فرج جبران » . ثم أخى الجديد
وصديقى الحميم « الدكتور سعيد عبده » بضحكته الناحلة . ثم رفيقا
العمر فى ذاك الزمان « صلاح عبد الجيد » سكرتير التحرير بلسانه
المفلوت ومساعدته « محمد حسنين هيكل » بمشيته الزاحفة المختالة
كطائر البطريق .. ثم العجوز الأرمئى الأصلع الرائع رسام الكاريكاتير
« صاروخان » بعينه الغامزين ! .

كانوا فى انتظارى مع تعليمات التابعى ! .. وبسرعة خطفوا منى
ورقات المقال . ثم تجمعوا حول مكتب سعيد عبده الذى فرش
الورقات أمامه . واتكأ صلاح على كتفه مستطلعا معه . أما هيكل فقد
أخذ الانحناء قارنا من وراء ظهره ! .. أرعبنى منظرهم .. بدأوا
القراءة والاستطلاع وسعيد عبده يرددها بصوت عال ! .. أغمض
عينى وأماسك بلهات أنفاسى .. وشعورى أننى أجتاز الاختبار الخطير .
ولكنه ليس أهم اختبار فالأخطر والأرعب منه هو اختيار التابعى ! لم
أتحمل انتظار رأيهم .. انتهزت فرصة انكياهم وانصرفت متسللا ! .

.....

.....

لم أعد إلا ثانى يوم فى الفجر ! .

منذ تسللت عنهم لم أنم ولم تهدأ مشاعرى ولا لحظة ! .. أحضر مبكرا قبل وقت حضورهم .. ترى ما رأى سعيد وهيكل وصلاح ؟ .. ترى ماذا قال التابعى ؟ .. هل قرأ التابعى ؟ .. ما أدرانى أن يكون قد وضعها فى سلة الزباله ! .

دخلت .. لمحت صاروخان وحده وريشته قمرح وتقفز على الورق الذى أمامه .. ألقىت عليه تحية الصباح مقتربا من مائدة الرسم .. ثم تسمرت عينائى على منظر ورقاقى الخمس مجموعة بأحرف المطبعة فى سلخات فسألته ما هذا ؟ .. فقال . موتيفات لصفحة حضرتك الجديدة ! .

اختطفت السلخات من أمامه . وعينى تجرى وراء ما يكون التابعى قد حذف أو شطب أو عدل من فقرات الباب . ويا رباه أبدا لا حذف ولا شطب ولا تعديل . ثم جحظت عينائى على العنوان المكتوب . وكنت قد تركته لاستشارة آخر لحظة .. ووجدته مكتوبا بخط سعيد عبده الذى أعرفه . وكان . « صواريخ » ! .

صواريخ ؟ .. صواريخ ؟! .. وقبل أن أتلفت لأفكر فى وقعه على أعماقى ومشاعرى المرتجة . ظهر سعيد عبده داخلا ليرمق منظرى وفى يدى السلخات .. قابلنى ضاحكا ومعانقا بحرارة .. وأبلغنى أن التابعى أعجب بالباب وأصدر أمرا بأن لا حرف يتغير مما كتبت أو سوف أكتب .. ولا أحد يتطفل بالتعديل أو التغيير فى الأسلوب .. وكيف أعطاه قرش صاغ مكافأة لأنه اكتشفنى لآخر ساعة ! .

قال هذا وكنت شاردا أردد فى تردد وحيرة عنوان صواريخ الذى اختاره . فقال إنه اقتبس العنوان من فقرة فى الباب كنت أعلق فيها على حدث الأسبوع الدولى . والذى هو إطلاق أول صاروخ أمريكى .. بداية دخول البشر إلى عصر الصواريخ ! .

الفهرس

الصفحة

٣	مقدمة : بقلم الأستاذ صلاح منتصر
٩	- الينسيون
٢٥	- النحلة والرحيق
٣٩	- الخطيئة
٥٥	- هارب من التجربة
٦٩	- الأسوار
٨٣	- جنون القمر
٩٧	- نحن بشر
١١٥	- الأجراس
١٣١	- المحطة
١٤٥	- البوابة
١٥٩	- العتبة
١٧٣	- السلام
١٨٧	- الزلزال
١٩٩	- الحديقة
٢١٣	- الشارع
٢٢٧	- الصالون
٢٤١	- وداعا يا مدموازيل
٢٥٣	- العهد والقسم

١٩٨٨ / ٣٥٦٣	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٤٧٨-٢	الترقيم الدولي

٢ / ٨٧ / ٦٥٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



فلاح ..
فلاح بكل طيبة قلب الفلاح
وقناعاته وفرحته بحصاد الموسم
يكفيه إirاده لكل العام ..
فلاح له جذور عديدة تمتد إلى
أعماق القرية وأعماق تاريخ
ميناء وخوفو ورمسيس وكل
الفراعنة الذين كانوا يسيرون شاخى الرأس تحف بهم وتحيطهم
الرعية ..

فلاح له كل مواصفات الفلاح المصرى من طيبة وعناد
وبساطة وقوة ، وقناعة بالقليل ، وتمسك بكل ما يؤمن به
لا يمكن أن يتنازل أو يتخلى عنه مهما كانت المتاعب أو الأهوال .
ولهذا ليس غريبا أن يكون عنوانه لهذا الكتاب هو « فلاح في
بلاط صاحبة الجلالة » .

إنه ليس كتابا في التاريخ ، ولكنه حافل بصفحات وأسرار
التاريخ .

ليس كتابا في السياسة ، ولكنك تعيش فيه السياسة .
ليس كتابا في الوطنية ولكنك تتعلم منه الوطنية .
إنه مجموعة صور من سنوات الأربعينات .
هذه السنوات التى فى رحم أحداثها نمت بذور الثورة التى

غيرت وجه مصر ..

وفى كتابات إبراهيم الوردانى خلال هذه السنين تعلم كثيرون
جمال وحلاوة الكتابة ..

ولكن هاهى الأيام تجرى والتلميذ يقدم كتاب الأستاذ .
تفضل يا أستاذ ..

يا ناظر أول مدرسة تعلمت فيها كيف أمسك القلم .

صلاح منتصر